أعلام العرب
١٠

عبد الملك بن مروان

موحد الدولة العربية

حياته - وعصره

بقلم

الدكتور ضياء الدين الريس

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا أول كتاب يصدر عن عبد الملك بن مروان . أليس هذا عجيبا ؟ أليس عجيبا أن علما كبيرا من أعلام تاريخنا القومى : تاريخنا العربى الاسلامى ، وشخصية متميزة لعبت دورا من أهم الأدوار فى حياة أمتنا — لم يكتب عنه كتاب خاص الى الآن ؟

اننا فى عهد نعمل فيه لبعث مجد الأمة العربية وتحقيق نهضتها وتجديد قوتها ، ونتحدث فيه كثيرا عن القومية العربية ، فهل يمكن أن يتحقق ذلك الهدف ، أو هل يمكن أن يكون فهمنا لهذه القومية واضحا ، وايماننا بها عميقا — الا اذا فهمنا تاريخ الأمة العربية ، والأحداث الخطيرة التى مرت بها ، والرجال أو الزعماء أو الأبطال الذين صنعوا هذا التاريخ ؟

لذا كان مشروعا جيدا أن قامت « وزارة الثقافة والارشاد القومى » باصدار هذه السلسلة عن « أعلام العرب » ، لتحقق

شيئا من هذه الغاية وتملأ جانبا من هذا الفراغ ، ورحبت بالفرصة فاقترحت أن يكون موضوع الكتاب الذى أقوم بتأليفه عن « عبد الملك بن مروان » ، لما أعرف من أهميـة الدور الذى قام به فى التاريخ ، وهو أحد كبار خلفاء « الدولة الأموية » : تلك الدولة التى ظهرت فى عهدها شخصية الأمة العربية بكامل قوتها ، وكان الطابع السائد فيها فى نواحى الحياة العامة عربيا محضا .

ففى هذا الكتاب نستعرض سيرة عبد الملك : حياته وأعماله ، فتوحاته واصلاحاته — لكن سيرته مرتبطة بتاريخ أسرته وتاريخ أمته ، فلابد اذن من معرفة هـذه الأسرة ، ودراسة تاريخ الأمة فى ذلك العهد .

لذا جاءت فصول الكتاب متتابعة تتناول هذه الجوانب : فالأول عن « الخليفة والدولة » ، والثانى يوضح كيف قامت « دولة آل مروان » ، والثالث عن الأسرة الأموية ، ثم بينت الفصول التالية أحوال الأمة والأحزاب، وما حدث من ثورات وما دار من صراع ، ثم جهود « عبد الملك » وسط هـذه المعارك ، حتى وصل الى تحقيق هدفه الأكبر —— وهو أعز

وأغلى هدف للأمة أيضا — ألا وهو تحقيق وحدة الدولة العربية .

ثم بعد أن تحققت الوحدة استعادت الدولة قوتها كعهدها السابق ، واستطاع عبد الملك أن يقودها الى النصر فى جميع الميادين ، فقهر الأعداء وتمت فى عهده الفتوحات العظيمة ، التى كان من أكبرها تحرير بلاد المغرب من ربقة الروم ، فأصبحت تلك البلاد منذ ذلك الوقت من أهم أقطار العروبة والاسلام — كما تمكن أيضا فى ذلك الدور من تنفيذ اصلاحات كان لها أكبر الأثر فى تدعيم بناء القومية العربية . فبعد أن بينت الفصول كل هذه الجوانب ، جعلت الخاتمة خاصة بالحديث عن شخصية عبد الملك وصفاته وسياسته العامة وادارته للدولة ، ثم عن بيته وأولاده الخلفاء الذين قاموا بالأمر من بعده ، فأدوا للأمة خدمات جليلة . فالواقع أنه فى الوقت الذى عرض فيه الكتاب سيرة عبد الملك وفصلها تفصيلا ، رسم صورة واضحة دقيقة لتاريخ الأمة العربية فى فترة من أهم فترات حياتها ، وهى فترة تبلغ نحو ربع قرن فى خلال القرن الأول الهجرى — فترة تقرر فيها مصير الدولة العربية وحضارتها ومكانها فى التاريخ والعالم .

واذا كان هناك عصر فى التاريخ العربى الاسلامى يستلزم

أن يدرس ويكتب عنه أكثر من غيره ، فهو عصر الدولة الأموية ، لأن تلك الدولة كثيرا ما صورت على غير حقيقتها ، أو كتب تاريخها على غير ما يرضى الحقيقة والعدل ، وطالما حمل عليها وأسيىء تقدير رجالها ، وذلك لأنها قامت نتيجة صراع ، فكان لها منذ نشأتها أعداء كثير ، وبقى العداء لها مستحكما الى اليوم . فأكثر ما كتب عنها كانت تمليه اذن وتفسده النزعة الطائفية ، ولا سيما من الشيعة ومن يحذو حذوهم — كما أنه جنى أيضا على تاريخ هذه الدولة — وكثيرا ما يتعرض التاريخ كله لمثل هذا — ان تناوله غير المختصين ، فبنوا أحكامهم على معلومات سطحية أو خاطئة أو دراسة ناقصة . والتاريخ — بصفة خاصة — ينبغى أن لا يتعرض له الا المتخصصون أو من يسير على منهجهم ، لأنه يعتمد على الدراسة والتحقيق ، ويشتمل على اصدار احكام ، وهو مجموعة من قضايا مثل القضايا التى تعرض فى المحاكم أو الحياة العامة الآن — وان كان زمنها فى الماضى — فكما لا يستطيع أن يفصل فى قضايا الحاضر أو يصل الى الأحكام الصحيحة فيها الا القضاة أو الفاقهون فى القانون ، كذلك لا يستطيع أن يصدر الأحكام السليمة العادلة فى قضايا التاريخ الا من خصصوا جهودهم للبحث

والتحقيق فيها ، وتكونت عندهم ملكة النقد التاريخى ، وتوفرت فيهم شروط الباحث ومن أهمها التجرد للحقيقة .

فقد بذلنا كل الجهد اذن لكى نصل الى الحقيقة ، ونقدم الصورة التاريخية الصادقة عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الأموية — وهى التى يجدر أن تسمى عصر عبد الملك ابن مروان — وعن الأحداث التى تكونت منها سيرته . وحرصنا فى اصدار الأحكام عن موقفه وعلاقاته بالأشخاص الذين ناضلهم ، أو كانت له بهم صلة ، وكذلك فى الحكم على هؤلاء الأشخاص ، وما عدا ذلك — أن تكون الأحكام كلها قائمة على مبدأ الموضوعية ، دون تأثر بالميل لبعض الطوائف أو بالأفكار العامة الشائعة — وان كان ذلك كله لا يقدم بأسلوب الدراسة الجامعية أو « الأكاديمية » ، ولكن بالأسلوب المناسب للكتاب الذى يقصد به الثقافة العامة ، والذى يطلع عليه أكبر عدد من القراء .

فعسى أن تكون الصورة التى سيحصلها القارىء من هذا الكتاب بالغة حد الانصاف لتلك الدولة ، التى طالما عانت من الحملات الظالمة لذوى الأهواء — مع أنها أدت خدمات جلّى للعروبة والاسلام . وعسى أن نكون بذلك قد أدينا خدمة لتراثنا القومى ، وللثقافة الأساسية التى هى

ضرورية لتقوية الوعى بالقومية العربية والايمان بها . وهل هناك ما هو أجدر — لتحقيق هاتين الغايتين — من الوقوف على حقائق تاريخ الأمة العربية ، وسيرة الزعماء أو القادة أو الرجال الذين صنعوا حياتها الماضية ، التى صارت أساسا لحياتها الحاضرة .

وقد يدرك القارىء مشابهات عديدة بين صور الماضى والحاضر . وفى هذا التشابه كثير من الصدق ، ومنه يمكن استخلاص كثير من الدروس والعظات ، لأنه لا يبعد التشابه فى تاريخ الأمة الواحدة — وان كان التاريخ لا يعيد نفسه تماما بجزئياته وتفاصيله . فهل الدور الذى تمر به الأمة العربية الآن من التفرق والخلاف والصدام ، يشبه الدور الذى كانت فيه الأمة العربية عندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ؟ اننا نترك الحكم عن ذلك للقارىء بعد أن يطالع الصورة فى الكتاب ويدرسها .

والآن يسرنا أن نقدم كتابنا هذا الذى جعلنا عنوانه : « عبد الملك بن مروان : موحد الدولة العربية — حياته وعصره » . والله هو الموفق .

ضياء الدين الريس

القاهرة { ٢٦ ذى الحجة ١٣٨١
٣٠ مايــــو ١٩٦٢

الفصل الأول

الخليفة والدولة

أتته الخلافة منقادة ·

في غرة رمضان من عام ٦٥ هـ وجد « عبد الملك بن مروان » نفسه خليفة .

أقبل عليه زعماء بنى أمية وأمراء الجنود ورؤساء القوم ، فسلموا عليه بالخلافة فى « دار الخلافة » بدمشق .

ذلك أنه فى بكرة ذلك اليوم روعت « دمشق » بنبأ سرى فى جميع أرجائها ، وهو أن الخليفة الذى عقدت له البيعة منذ عشرة شهور فقط ، وعلقت عليه كبار الآمال — قد مات فجأة ! . مات « مروان بن الحكم » دون أن يكمل العام الأول من خلافته .

ومع أنه لم يكن هناك شيء عجيب فى أن رجلا بلغ الخامسة والستين من عمره أو جاوزها ، وبذل جهدا فوق الطاقة فى أواخر أيامه ، يدركه الأجل فى أى وقت — فان

الشائعات ، أو الروايات فيما بعد ، أرادت أن تجد وراء ذلك الموت الفجائى سرا ، وأن تقدم له تعليلا غير عادى ، فنسجت حوله قصة مثيرة ، وهى أن موت « مروان » الخليفة لم يكن طبيعيا ، ولا بسبب علة طارئة — كما ذكرت أقوال أخرى — ولكنه كان اغتيالا ، نتيجة مؤامرة دبرتها زوجته الأخيرة — على أنها امرأة جليلة من نفس الأسرة — وهى بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس : أم خالد بن يزيد — وذلك انتقاما لحرمان ابنها من ولاية العهد ، ولعبارة اهانة قيل ان مروان وجهها اليها فى شخص ابنها على ملأ من الناس — وان كانت الروايات اختلفت بعد ذلك فى الصورة التى تم بها ذاك الاغتيال !

هل نقف لنحقق هذه القضية ؟ وهل هناك ضرورة لذلك ، وهذه القصة — مع ما تحتويه من عناصر متناقضة — تبدو لأول وهلة كأنها أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن : اما حبا فى الثرثرة ، أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسدا لما وصلت اليه من مجد ؟ ! اننا لا نرى هذه المسألة على كل حال ذات أهمية الآن . وسنعود اليها فى مناسبة قادمة ، لنبين وجه الحق فيها فى ضوء القرائن التاريخية . ولكن كيفما كان الأمر ، فالحقيقة

المؤكدة التى لا شك فيها هى أن « مروان بن الحكم » — سيد بنى أمية وشيخ قريش ومؤسس دولة آل مروان — قد انتهت مدته فى هذه الدنيا فى ذلك اليوم . فلما فرغ ابنه والقوم من أمره ، توجه ابنه — وهو ولى عهده — على الفور الى دار الخلافة ، وأقبل عليه الرؤساء وكبار رجال الدولة فبايعوه . وهكذا تمت البيعة لابنه الخليفة الجديد ، وهو « عبد الملك بن مروان » فى نفس اليوم .

كانت هذه البيعة أمرا مقررا ، اذ كان مروان حكيما بعيد النظر ، فاحتاط للأمر واتخذ له عدته قبل وقته . فما ان استتب له الأمر ، وشعر باستقرار دولته ، حتى حرص على دعوة الرؤساء ممن يدعون أهل الحل والعقد ، وأخذ عليهم المواثيق والبيعة بولاية العهد لابنيه : « عبد الملك » ثم « عبد العزيز » ، فانعقد الأمر لهما . وتم ذلك قبل وفاة مروان بأقل من شهرين . وكان هذا تدبيرا بالغ الحكمة ، فتمت البيعة لعبد الملك دون حدوث نزاع أو خلاف ، وأدى ذلك الى استمرار الدولة ، وانتقل الأمر بكل هدوء من الأب الى أرشد أولاده ، وقد حفظت وحدة القوم ، والكل مجمع على مواصلة الجهد لاكمال البناء الذى وضع أساسه الخليفة السابق ، حتى يصير صرحا شامخا .

فى دار الخـــلافة

بدأت اذن خلافة « عبد الملك » فى مستهل رمضان من عام ٦٥ هـ (وهو الموافق عام ٦٨٥ م) .

ولا بد أنه وهو جالس فى دار الخلافة أخذت تجول بذهنه الذكريات وتتوارد الصور . فهـو جالس فى نفس المكان الذى جلس فيه قبله الخليفة الكبير « معاوية بن أبى سفيان » ، ثم ابنـه « يزيد » ، ثم أبوه هو نفسـه الشيخ « مروان بن الحكم » ، بل انه يمثل اتصـال السلسلة فى تألف نظـام الخلافة الذى بدأ منـذ قيام دولة الخلفاء الراشدين ، ومن بينهم الخليفة « عثمان بن عفان » الذى كان بمثابة رأس لأسرتهم ، وهو الذى وضع أساس المجد للدولة الأموية بصفـة عامة والمروانية بصفة خاصـة . فترتيب عبد الملك بين خلفاء الاسلام منـذ بدء تاريخ الخلافة أنه الخليفة التاسع ، أو العاشر — ان عددنا خلافة الحسن ، والخامس بين الخلفاء الأمويين ، والثانى فى دولة آل مروان. فياله من منصب خطير تقلده ، وما أعظمهـا من مسئولية ، وما أجله من مجد فى الدنيا ، وأثقله من تبعة بالنسبة للآخرة . لقد أصبح عبـد الملك « أمير المؤمنين » يتولى رعايتهم

وحفظهم ، وعليه أن ينهض بعبء قيادتهم ، ويحرص على صيانة حقوقهم ، ويذود الأخطار عن دولتهم بل عليه أن يرفع من شأن هذه الدولة حتى تصل الى ذروة المجد التى تبوأتها منذ عهد غير بعيد ، وتبقى أبدا فى مكان القوة والزعامة بين دول العالم كما كانت دائما .

ثم ها هو ذا يجلس فى مقر الخلافة فى « دمشق » : هذه المدينة الكبيرة العريقة ، ذات التاريخ القديم منذ عهد الآراميين ، والتى شهدت مختلف الأقوام الى أن صارت عاصمة اقليم سوريا فى عهد الروم ، ثم تحولت الى مدينة اسلامية عربية ، ومضى عليها منذ هذا التحول نصف قرن ، وفدت عليها وأقامت فيها فى خلاله وفود العرب : من قبائل وجنود وساسة وعلماء وتجار ، وتكلمت باللسان العربى ، وأصبحت مدينة اسلامية ، يشرق عليها النور بالدين والعلم والحضارة ، ثم عظم شأنها فصارت عاصمة الدولة أو الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، الممتدة حدودها من أواسط آسيا الى أقطار المغرب ، ومركز العالم الاسلامى كله ، وذلك فى عهد الخليفة معاوية وابنه يزيد ، ومضى عليها فى ذلك ربع قرن ، فكانت أهم مدينة فى العالم فى ذلك الوقت .

كل هذه الخواطر — وأمثالها — لابد أنها كانت تجول فى ذهن خليفة دمشق الجديد : « عبد الملك » ، وكانت جديرة بأن تشيع فى نفسه مشاعر الغبطة والفرح ، وتقدير النعمة والافتخار . ولكن المسألة كانت لها وجوه أخرى ، وكانت توجد الى جانب هذه الذكريات الحقائق الواقعة الصارمة ، وهى لا تثير الا مشاعر الأسف والقلق والاحساس بالخطر ، وتقدير المصاعب التى كانت تنتظر العهد الجديد . فاذا قورنت حال الدولة فى أكثر عهودها السابقة : فى عهد عمر أو عثمان أو معاوية بحالها حينما تقلد الخلافة عبد الملك ، فانه يتبين أن أحوالها تبدلت وتغير وضعها : كانت الدولة وحدة : كتلة متضامة ، فأصبحت الآن منقسمة متوزعة ، كان يسودها الهدوء ، فأصبحت الآن تسودها الفتن والاضطرابات ، كانت جهودها كلها متجهة الى محاربة العدو فى الخارج ، فأصبحت الآن مشغولة بالتحارب بين أحزابها فى الداخل ، كانت قائمة على أسس التضامن والألفة وتأييد الرأى العام ، فأصبحت الآن لا يقرر مصيرها الا السيف والمال والسياسة ، ولابد من التصارع ، « والملك لمن غلب » .

فاذا فكر عبد الملك فى ذلك ، فانه كان يشعر أنه لا يحق له أن يخالط قلبه السرور ، ولا يرى أن ما ورثه من والده

خير محض بل هو مسئولية وتركة ثقيلة وهم مؤرق ، ويتبين أن ما آل اليه ليس نعمة خالصة ولكن أيضا محنة ، ستكلفه الكثير من الجهود المضنية وسيبتلى فيها فكره وعزيمته وارادته ، الى آخر مدى تتحمله القدرة البشرية . ذلك أنه اذا نظر الى ما حوله ، ماذا يرى ؟

* * *

يرى أنه يوجد فى الجانب الآخر من الدولة خليفة آخر —فلم يعد على العالم الاسلامي خليفة واحد ، بل خليفتان—: خصم قوى عنيد ، شخصية كبيرة ذات تاريخ مجيد وجهاد مذكور ، أحد أبطال الاسلام ، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ، له صلات قرابة بالنبى عليه السلام وأبى بكر والسيدة خديجة ، وأبوه حوارى رسول الله ومن كبار الصحابة ورجال الشورى — وهذا هو « عبد الله بن الزبير » الذى أبى منذ البدء البيعة ليزيد وأقام بمكة عائذا بالحرم ، ثم عقب موت يزيد (٦٤ هـ) أعلن خلافته ، فبايعه أهل مكة والمدينة أى الحجاز ، وأهل البصرة والكوفة أى العراق ، وأرسل اليه بالبيعة أهل مصر واليمن وخراسان أيضا ، وكاد أن يتم له الأمر لولا أن ظهر مروان وبايعه أهل الشام بعد سبعة أشهر ، ولم يستطع مروان أن ينتزع منـــه غير مصر فقط ، وذلك قبل وفاته بشهرين .

بذلك كان مع ابن الزبير القسم الشرقى كله من الدولة ، وهو الجزء الأكبر . فحين تولى عبد الملك خلفا من أبيه لم يكن فى يده غير الشام ومصر فقط ، وهذه كانت حدود خلافته المحصورة . هذا على أن دولتهم لم تقم بالشام الا منذ عشرة أشهر فقط ، ولم تضم مصر الا منذ شهرين ، وأخذت البيعة لعبد الملك وفى بعض نفوس بنى أمية ما فيها ، فكانت الدولة بحاجة الى أن تثبت أقدامها .

ولم يكن الأمر قاصرا على هذا الحد . فهناك فريق من الأمة أعلن الثورة على هذه الأوضاع كلها — وثورته على بنى أمية كانت أشد — وهؤلاء هم الخوارج . وقد أقام جمع منهم دولة لهم بالأهواز فى اقليم فارس جنوب البصرة ، وأقامت جماعة أخرى دولة ثانية فى جزيرة العرب فى اليمامة والبحرين وحضرموت . وفوق هذا كله ، كان هناك رجال الشيعة بالكوفة وغيرها يتأهبون وينظمون صفوفهم ، استعدادا للقيام بثورة أو تكوين دولة ، وجل غضبهم منصب على الأمويين بالذات ، لأنهم — فى نظرهم — هم الذين اغتصبوا الخلافة من آل البيت وأساءوا اليهم ، وقتلوا كبار أئمتهم .

فكانت الدولة الاسلامية العربية اذن ، التى كانت موحدة

من قبل — فيما عدا فترة الفتنة التى لم تطل بين علي ومعاوية — منقسمة الآن الى أجزاء وفرق متباينة ، أو دول : فهناك دولة ابن الزبير فى الحجاز ، ودولة بنى أمية فى الشام ، ودولة الخوارج « الأزارقة » بالأهواز ، ودولة الخوارج « النجدات » بجزيرة العرب ، ودولة الشيعة بالكوفة فى العراق . ولكن دولة بنى أمية بالشام تقف وحدها ، ويقف ضدها الباقون موحدين فى هدف محاربتها والقضاء عليها .

فهكذا حين ألقيت مسئولية الخلافة على كاهل عبد الملك . كانت دولته —وهى محصورة فى منطقتها— محاطة بالأخطار مهددة من كل جانب . وكان عليه اذا أراد أن يضمن بقاء دولته أو يوسع حدودها ، أو يعمد الى اعادة الوحدة للدولة الكبرى ، أن يواجه كل هذه الدول الأخرى ، ويخوض معها غمرات القتال . هذا على أن الدولة كانت معرضة للأخطار من الخارج ، أيضا : فهناك دولة الروم لا تزال بالمرصاد ، تنتهز فرصة الانقسام لتغير على الحدود فى الشمال والغرب . وقد ارتدت الجيوش فى شمال افريقية ، بعد أن وصلت الى شاطىء المحيط ، وفقدت بعض الأقاليم . كما أنه كانت على الحدود — فى الشرق — الجموع المتربصة من ترك وهنود وخزر وغيرهم . فالأخطار ماثلة فى الداخل والخارج .

هذا هو مجمل الوضع كما وجده عبد الملك فى بدء خلافته .

لكن كيف وصلت الأمور الى هذا الحد ؟ وكيف تطورت الأحداث حتى تصدعت الدولة ، ووجدت هذه القوى التى يقف بعضها فى مواجهة بعضها الآخر ؟ وما سبب هذا السخط أو العداء ، الذى كان موجها من سائر أجزاء العالم الاسلامى ضد دولة بنى أمية ؟ . ثم كيف وصل الملك أو الخلافة لمروان وبنيه ، وذلك منذ أواخر سنة ٦٤ هـ — مع أن مروان وأسرته وابنه عبد الملك قضوا كل حياتهم فى الحجاز ، ولم يهاجروا الى الشام الا قبل البيعة لمروان بستة أشهر فقط ، اذ أن قدومهم كان فى شهر ربيع الثانى من سنة ٦٤ هـ ، ثم تمت البيعة لمروان وبدأت دولته فى ذى القعدة من نفس هذا العام ؟ . وقد كان هذا تطورا عجيبا ، وضربة فذة من ضربات القدر .

فلا تفهم التطورات ولا تتم الصورة اذن الا اذا عرفنا أحوال الدولة فى هذا العام التاريخى ، الذى كان فى الواقع عام انتقال فى حياة الدولة كلها ، وكانت الدولة تمر فيه بدور أزمة ، والأحداث التى وقعت فيه كانت الأصل لما تلاها من أحداث ، وهو عام ٦٤ من الهجرة .

الدولة فى أزمـــة

افتتح هذا العام وجيش يبلغ عدده نحو عشرة آلاف مقاتل يتحرك ، متجها الى « مكة » — لمحاربة أهلها ، بعد أن فرغ من قتال أهل « المدينة » . وهذا الجيش أرسله «يزيد بن معاوية» ، الذى كان يحكم الدولة فى ذلك الوقت ، من الشام للقضاء على الثــورة التى شبت فى المدينة ، ثم الأخــرى فى مكة . وهذه الحقيقة وحدها ترمز الى حال السخط ، الذى عم أنحاء الدولة ضد حكم « يزيد » بصفة خاصة ، وبنى أمية بصفة عامة .

وقد كانت أسباب السخط متعددة : فكثير من الناس لم يكونوا راضــين عن تولية يزيد منــذ البداية ، وكثير لم يرضوا عن أعماله فيما بعد . ولكن كان فى مقدمة الأسباب سياسة الغشم والتجبر ، التى اتبعها بعض ولاة « يزيد » ضد الخصوم السياسيين لهذا الحكم ، والتى تمثلت بأبشع صورها فى مأساة قتل « الحسين » . سنتكلم عن هــذه المأساة فيما بعد ، ونحدد مسئولية ارتكابها ، ولكن يلزم مبدئيا أن نقرر أن المسئول الأول عنها هو الآثم الظالم : « عبيد الله بن زياد » — والى يزيد على العراق — ثم تقع

التبعة بعد ذلك على يزيد ، لأنه كان يجب عليه أن لا يطلق يد واليه فى التصرف ، وينهاه عن حد الوصول الى سفك الدم . وان هذه الفاجعة التى حدثت فى عاشوراء المحرم من عام ٦١ هـ — أدمت قلوب الناس ، وهزت مشاعر المسلمين هزا ، حتى فى داخل بيت يزيد نفسه . وقد عبر هو نفسه — فى عبارات مختلفة — عن آسفه وتحسره لما حدث . وقد أخذ الأثر السيىء الذى أحدثته الفاجعة يزيد ، ويعظم فى النفوس ، حتى تحول الى شعور بالنقمة والسخط على الحكومة ، التى كانت السبب فى وقوع الكارثة .

وفى العام التالى بعد حدوثها ، توجه وفد من أهل المدينة لزيارة الشام ، فشاهدوا مظاهر الترف والاسراف ، وسمعوا عن بعض سيرة يزيد ما أغضبهم ، فقد قيل انه يميل الى اللهو والغناء ، وهم الذين يتطلعون الى السير المثالية من أمثال سيرة أبى بكر وعمر ، فعادوا وقد ازداد سخطهم ، وهم مصممون على القيام بثورة . فعند قدومهم آعلنوا خلع يزيد ، وولوا عليهم رئيسا منهم ، وحاصروا بنى أمية الذين كانوا بالمدينة ثم أخرجوهم . فكانت هذه الثورة هى السبب الذى حدا بيزيد الى ارسال جيشه الذى أشرنا اليه ، وذلك بقيادة « مسلم بن عقبة » المرى — وكان رجلا جبارا —

لمقاتلة أهل المدينة ، فحدثت الموقعة التى تسمى موقعة الحرّة فى أواخر سنة ٦٣ ، وقد قتل فيها عدد غير قليل من أهل المدينة ، واستولى الجيش عليها .

ثم بعد أن فرغ الجيش من مهمته ، سار متوجها الى مكة لمحاربة أهلها الذين خرجوا على يزيد وحكومته ، وانضموا الى ابن الزبير الذى ظل معتصما بالحرم فى مكة ويدعو سرا الى نفسه وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٤ هـ — كما ذكرنا — فى المحرم . وفى الطريق مات « مسلم بن عقبة » ، وخلفه على قيادة الجيش « الحصين بن نمير السكونى » ، فوصل الجيش الى مكة فى أواخر المحرم سنة ٦٤ ، وضرب الحصار عليها . وكانت جموع من الخوارج من « البصرة » قد قدمت على عبد الله بن الزبير ، لما سمعت بمسير هذا الجيش الى مكة ، وذلك لتشترك مع عبد الله بن الزبير فى الدفاع عن الحرم ، وليوحدوا جهودهم معه فى مقاومة الدولة الأموية وانجاح الثورة ضدها . كما انضم اليه بعض الأبطال ، مثل المختار بن أبى عبيد الثقفى : من زعماء الشيعة ، الذى سيكون له شأن فيما بعد .

وقد ولى ابن الزبير — قائدا على جيشه — أخاه المنذر ابن الزبير ، وخرج بمن معه لمقاتلة جيش الشام ، فقاتلهم

قتالا شديدا . وقتل فى الموقعة المنذر وبعض أبناء المهاجرين ، ولكن ابن الزبير — وكان من فرسان قريش وأبطالها المعدودين — ظل يجالدهم طويلا فى ذلك اليوم ، والأيام التالية ، ولم يمكنهم أبدا من دخول مكة . فاضطروا الى الاكتفاء بالحصار ، وظلوا محاصرين لمكة طوال شهر صفر ، ثم أوائل ربيع الأول . وفى ٣ من هذا الشهر ، حدث حادث اهتمت له كتب السير ، وهو احتراق الكعبة . وقد اختلفوا فى السبب الذى أدى الى هذا الحادث ، ولكن الأرجح أنه حدث بسبب أن رجلا من أصحاب ابن الزبير أخذ قبسا فى رأس رمح — وكانوا يوقدون حول الكعبة — فطيرت الريح شرارة منه ، فوقعت على أستار الكعبة ، فأحرقتها وأحرقت خشب البيت . وقيل ان ذلك كان بسبب قذف البيت بالمنجنيق ، ولكن الحقيقة أن القذف به حصل فى الحصار الثانى — وهو الذى سيحدث بعد سنين لا فى الحصار الأول .

وفاة يزيد

واستمر الحصار حتى آخر ربيع الأول ، وقد ضاق الأمر على أهل مكة ضيقا شديدا . وبينما هم كذلك ، اذا

بالخبر يصل — فى أول ربيع الثانى — الى ابن الزبير ، قبل أن يصل الى أهل الشام : بأن يزيد ، الخليفة فى دمشق ، قد توفى منذ منتصف الشهر . فقد توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . فنادى ابن الزبير ومن معه فى جند الشام ، « علام تقاتلون ؟ قد هلك طاغيتكم ؟ ! » . فلم يصدقوا بادىء الأمر ، ثم جاءهم من أبلغهم الخبر اليقين ، فوقع فيهم الفشل ، وكفوا عن القتال . وكانت وفاة يزيد بسبب أنه كان يركض فرسا فى سباق ، فوقع من فوق فرسه فأصيب بكسور ، قضت عليه . وكانت مدة حكمه ثلاث سنوات وثمانية أشهر : (٦٠ — ٦٤ هـ) ، تميزت بوقوع هذه الأحداث الثلاثة ، التى أثارت الرأى العام وبثت شعور الكراهية ضده : وهى قتل الحسين ، ومقاتلة أهل المدينة ، وحصار مكة . فمات وسط شعور البغض له ولحكم بنى أمية .

ولم يكن يزيد مرضيا عنه منذ توليته — على كل حال — لأن كثيرا من الأمة كان يقاوم فكرة انتقال الحكم من نظام الشورى الى الوراثة ، وامتنع بعض الزعماء — الذين كان يؤيدهم جانب كبير من الرأى العام — عن مبايعته ، وهم : الحسين بن على ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ،

وعبد الله بن الزبير ، وجرت هذه الأحداث . وان كان معاوية رأى — عند عقد البيعة له بولاية العهد — أنه لا يستطيع أن يترك الأمة « كالضأن لا راعى لها » ، فيحدث التنازع والخلاف ، وتسفك الدماء — كما حدث بعد مقتل عثمان — فكانت هذه وجهة نظره . وان كانت الأحداث أثبتت ، فيما بعد ، أن الاختلاف لم يمنع — مع ذلك — وسالت الدماء . وكان من الممكن — حقا — تفادى ذلك ، لو استعملت الحكمة والسياسة بدلا من العنف والعسف ! .

وبدت الدولة كأنها تنهار بعد وفاة يزيد .

فأما فى الحجاز ، فان عبد الله بن الزبير أعلن الدعوة الى نفسه بالخلافة جهرة ، بعد أن كان يدعو سرا . وقد أجابه وانضوى تحت لوائه أهل مكة وأهل المدينة ، وسائر الحجاز — فيما عدا بعض الزعماء : مثل عبد الله بن عباس ، ومحمد بن على (المشهور بابن الحنفية) . وقوى مركزه لأنه أصبح بغير منافس ، فأخذت تفد عليه بعد قليل مبايعات الأقاليم : من العراق ومصر وخراسان ، حتى كاتبه عدد من الرؤساء فى الشام أيضا .

وكان قائد جند الشام — الذين قاموا بحصار مكة — وهو « الحصين بن نمير » ، قد طلب — عندما تيقن من

موت يزيد — أن يقابل ابن الزبير ليفاوضه ، فتمت المقابلة بمكان خارج مكة . وروى أن الحصين عرض على عبد الله أن يبايعه هو والجند الذين تحت امرته ، على أن يخرج معهم الى الشام ، فيأخذ له البيعة على باقى الجند والقواد فى دمشق ، ويتم له بذلك أمر الخلافة . وكان ما قال له هو : « أنت اليوم أحق الناس بهذا الأمر ، هلم فلنبايعك . ثم اخرج معى الى الشام ، فان هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك ، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة » . فأبى عبد الله بن الزبير أن يجيبه الى ما طلب ، وكره أن يغادر مكة ، ورفض أن يهدر الدماء . ويظهر أيضا أن أمله فى تحقق ذلك لم يكن قويا ، ولم يكن مقتنعا بأن الأمر سيتم على هذا النحو . فانتهت المقابلة بأن اختلفا . وحينئذ أمر الحصين جنوده بالعودة وتوجه بهم نحو الشام .

هجرة بنى أميـــة

وفى طريق عودته مر على المدينة ، فقال له بنو أمية : لا تبرح حتى تحملنا معك الى الشام ، فخرجوا معه . وذلك

لأن موقفهم صار حرجا بعد موت يزيد ، واضطراب الأمر بالشام ، وبعدما كان من علاقتهم بالقتال مع أهل المدينة ، فى موقعة الحرة . كما أن ابن الزبير — وقد استقر له الأمر — عين أخا له واليا على المدينة ، وأمره أن يخرج من بقى بها من بنى أمية .

ففى هذا الوقت ، اضطر مروان بن الحكم أن يتخذ قراره — الذى كانت الحوادث ستظهر أنه كان قرارا تاريخيا، لأنه ترتبت عليه أخطر النتائج — وهو المهاجرة مع أسرته من المدينة الى دمشق ، مع أنه قضى طول حياته هو وأسرته فى الحجاز . وكانت هذه أول مرة يفدون فيها على الشام ، للاقامة . وذلك لسر كان يعلمه الله ، ولم يكن يخطر على بالهم اذ ذاك ولا على خاطر أحد ، كحقيقـــة قريبة ، وهو أنهم يتولون الخلافة ويصير اليهم الملك ، ويؤسسون دولة يكون لها شأن كبير فى المشرق ثم المغرب . وكان مروان فى آخر حياته ، اذ كانت سنه اذ ذاك نحو الرابعة والستين ، أو أكثر . وكان ابنه عبد الملك فى نحو الأربعين من عمره . وقدموا على الشام (فى ربيع الثانى ٦٤ هـ) فوجدوا أنه بويع لمعاوية بن يزيد ، ولكن الأمر فى غاية الاضطراب ، والقوم فى حيرة وتفرق ، لأن معاوية قد تخلى عن الأمر ،

ولم تكن له رغبة فى المنصب ولا قدرة عليه ، وطلب اليهم أن يختاروا غيره ، وهم لا يستطيعون أن يتفقوا على شيء .

فى الشــــــام

وكان ما حدث بالشام هو أن يزيد — قبيل وفاته — كان عهد بالأمر من بعده لابنه « معاوية » ، فبايع له الناس عند وفاة أبيه . ولكن معاوية هذا كان كارها لتولى المنصب أو أية مسئولية ، لأنه كان ضعيفا أو مريضا ، أو تغلب عليه نزعة زهد فى الدنيا وتفكر فى أمر الآخرة ، فلم يخرج لمباشرة أى عمل من أعمال الدولة ، وطلب من القوم أن يولوا غيره . وأمر الضحاك بن قيس أن يصلى بالناس حتى يجتمع الناس على امام . وقيل انه فى آخر ولايته جمع الناس فخطبهم ، وقال : « انى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب فلم أجد ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » . وتغيب فى منزله ثم مات بعد قليل، دون أن يعهد لأحد ، وهو فى العشرين من عمره . واختلف فى سبب موته : فهل كان طبيعيا ، أم بالسم ، أم باصــابة بطاعون ؟ كما اختلف فى مدة ولايته : من أربعين يوما ، الى

ثلاثة أشهر ؟ وعلى ذلك نقدر أن تكون مدته قد انتهت حوالى جمادى الثانية سنة ٦٤ هـ . فوقع الاختلاف حينئذ شديدا بين أهل الشام ، وانقسموا شيعا ، أو على الأقل فريقين رئيسيين : الأول أخذ يتصل بابن الزبير ويريد أن يبايعه ، ويخرج الأمر نهائيا من البيت الأموى ، والفريق الثانى يرفض ذلك ، ويصر على بقاء الأمر فى بنى أمية كما هو ، ولكنه لا يستطيع اتخاذ قرار موحد ، لأن « خالد بن يزيد » صغير السن لا يرضى به كثير من الناس ، ولا يصلح بعد لتولى هذا المنصب الخطير ، وليس من السهل اختيار غيره — كما أن بعض الرءوس أخذت تتطلع الى اعتلاء المنصب . فاشتد الخلاف ولم يمكن الوصول الى قرار . وبقى الشام بدون خلافة : أى بدون حكومة أو دولة ، واستمر الحال كذلك نحو ستة أشهر .

ووسط هذه الأزمة ، وصل « مروان » وابنه « عبد الملك » وأسرتهم ، من المدينة الى دمشق ، ينوون الاقامة بالشام . فاشتركوا فى المداولات ، ثم وفد عليهم آخرون ، وبدأت الأمور تتطور . ثم بعد قليل أخذت اتجاها جديدا .

الموقف فى العراق

أما فى العراق ، فان تطور الأمور كان أقرب الى طبيعة رواية تمثيلية ، تحتوى على عنصر المفاجأة والتقلب .

كان الوالى على العراق ليزيد هو الغاشم « عبيد الله بن زياد » ، الذى تحمل الاثم الأول أو الأكبر فى مقتل الحسين . وكانت سياسته على العموم سياسة جبرية وجور ، فكان الناس يكرهونه فى قلوبهم . فلما بلغه نعى يزيد وتخلى ابنه معاوية ، واضطراب الأمر بالشام ، فكر فى حرج مركزه ، فدعا الناس الى الاجتماع فى مسجد البصرة وقام يخطبهم ، فذكر لهم اختلاف الناس بالشام بعد وفاة يزيد ، وتحدث عن نفسه فقال : ان البصرة هى مهاجر أبيه وأهله وفيها مولده وداره ، ونوه بعمله فقال : ان عدد المقاتلة أى : (جيش البصرة) قد زاد فى عهده من سبعين ألفا الى ثمانين ألفا ، وأن عدد عمال الديوان قد زاد كذلك ، من تسعين ألفا الى مائة وأربعين ألفا . ثم طلب اليهم أن يختاروا أميرا يولونه عليهم ، يدبر أمورهم حتى يجتمع أهل الشام على امام ، وقال انه يرضى بمن يختارون . فقال أهل البصرة : قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحدا أقوى عليها منك ، فهلم فلنبايعك » . فأظهر

التمنع ثلاثا ، ثم بسط يده فبايعوه . ثم انصرفوا فجعلوا يمسحون أيديهم بالحيطان وأبواب الدار ، وهم يقولون : « أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ؟ كذب والله ! » . وما لبثوا أن انفضوا عنه .

وكان قد أرسل أيضا رسولين الى أهل الكوفة يدعوهم الى مبايعته . فلما قدما الكوفة وقاما يخطبان الناس ، قاطعهما أحد الرؤساء ، فقال : « الحمد لله الذى أراحنا من ابن سمية . أنحن نبايعه ؟ لا ، ولا كرامة ! » . وقذفهما بالحصى، فتبعه الناس وأخذوا يحصبونهما . ورموا كذلك نائب ابن زياد فى الكوفة وعزلوه . وهكذا رفض أهل الكوفة أن يبايعوا لابن زياد ، وردوا الرسولين خائبين . فلما قدما البصرة ، قال أهل البصرة : « أيخلعه أهل الكوفة ونوليه نحن ؟ » فزادهم ذلك اصراراً على خلعه . وأخذوا جميعا يتفرقون عنه فذهب سلطانه ، وصار لا يجاب له أمر . فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأى فيرد عليه ، ويأمر بحبس المخطىء فيحال بين أعوانه وبينه .

وفى هذا الوقت ظهر أحد فرسان البصرة وهو : سلمة ابن ذؤيب التميمى ، فجاء الى سوق المدينة ممتطيا جواده لابسا سلاحه ، وهو يرفع لواء ويقول : « أيها الناس ، هلموا

اليّ . انى أدعوكم الى مالم يدعكم اليه أحد . أدعوكم الى العائذ بالحرم — يعنى عبد الله بن الزبير » فأقبل عليه الناس ، وأخذوا يبايعونه . وصار جمعه يكثر . فلما بلغ الخبر ابن زياد قام بآخر محاولة له ، فجمع الناس وقام فيهم خطيبا . فقص ما كان من أمره معهم وكيف أنه دعاهم الى أن يختاروا من يرضونه ، وأنه كان مستعدا أن يوافق على اختيارهم ، ثم قال — وهو يوجه الخطاب اليهم — « ولكنكم أبيتم غيرى . وانه بلغنى أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم . وانى آمر بالأمر فلا ينفذ ، ويرد على رأيى ، وتحول القبائل بين أعوانى وطلبتى . ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعو الى الخلاف عليكم ، ارادة أن يفرق جماعتكم ويضرب بعضكم جباه بعض بالسيف ! » . فقال الأحنف بن قيس زعيم تميم : نحن نأتيك به . ولكنهم حين أتوه ،وجدوا أن الناس قد اجتمعوا عليه وكثر أتباعه ، فتخلوا أيضا عن ابن زياد .

هرب ابن زياد

وجد ابن زياد حينئذ أنه أصبح وحيدا ، وشعر بالخطر ، فحاول أن يحمل الحرس الخاص وأفراد أسرته على أن يقاتلوا معه ، فأبوا . وحذره أحد اخوته من عاقبة ذلك

بل هدده اذا أقدم على ذلك أن يزهق نفسه ، بأن يستند بثقله على حد السيف ، حتى ينفذ من ظهره . ثم بدأ الناس يهاجمون ابن زياد ، فرماه بعضهم بسهم فأيقن بالهلكة ، ولم يجد بدا من الهرب ، فاختفى . وكان اختفاؤه بأن لجأ الى أحد أشراف الأزد — وهو « الحارث بن قيس » وطلب منه أن يحميه ، لأن الأزد كانوا أصدقاء أبيه . فخرج به الحارث فى جنح الظلام ، وسار به فى خوف بين دور الأحياء حتى أتى به منزله ، فأخفـاه عنده . لكن الهارب كأنه لم يشعر بالاطمئنان ، فأشار على الحـارث ان يذهب به الى منزل « مسعود بن عمرو » — سيد الأزد — وكانت له الرئاسة عليهم ، فتوجه به اليه . فلما رآهما مسعود كره ذلك فى أول الأمر ، ثم غلبت عليه طبيعة النجدة وحب الذكر ، فأنزل ابن زياد فى داره ، وأجاره . ولما اختفى ابن زياد ، رأى أهل البصرة أنه لابد أن يولوا عليهم أميرا يدبر شئونهم ، فاختلفوا أولا ، ثم اتفقوا على اختيار « عبد الله بن الحارث » — وهو ينتمى من جهة أبيه الى عبد المطلب ، ومن جهة أمه الى أبى سفيان — وكان أهل البصرة يلقبونه « ببه » — فبايعوه ، وكانت مبايعتهم له فى أول جمـادى الآخـرة سنة ٦٤ هـ . فبقى أميرا عليهم نحـو ثلاثة أشهر ، الى أن أرسل ابن الزبير اليهم أميرا آخر .

وفى أثنـاء ذلك دبر ابن زياد — وهو فى مخبئه — مؤامرة ، حاول أن يتمكن بها من الرجوع الى الامارة ، وذلك بأن سعى الى عقد تحالف بين قبائل الأزد وربيعة واليمن ضد تميم ، وأنفق فى ذلك أموالا ، فتم له ذلك . ثم بعث « مسعودا » على أنه خليفة له ، فسار على رأس القوات المتحالفة ، ليستولى على المدينة . فلما علمت تميم بذلك ، ورئيسها الأحنف بن قيس ، سارت — بعد تلكؤ — بقواتها ، لتمنع تنفيذ المؤامرة . فالتقوا عند باب مسجد البصرة ، وحدث قتال بينهم . وبينا كان « مسعود ابن عمرو » على المنبر يخطب ويحرض النـاس ، أصابه سهم فقتل ، أو استنزله رجال من تميم وقتلوه ، فانهزم قومه . ولما بلغ خبر مقتله ابن زياد — وكان يتتبع أخبار القوم ، وهو يتهيأ ليذهب الى دار الامارة — أسرع الى الرحيل ، فوضع رجله فى ركابه — وأرسلت الأزد معه من يؤمنه فى الطريق — وتوجه على الفور هاربا الى الشام . وكان ذلك فى أول شعبان سنة ٦٤ هـ .

دولة ابن الزبير

وفد ابن زياد على الشام ، فوجد هناك مروان بن الحكم وعبد الملك وجميع بنى أمية ، ووجد القوم مختلفين مترددين ،

لم يستطيعوا أن يتفقوا على شيء ، حتى ان مروان بدأت تساوره فكرة أن يكاتب ابن الزبير ، أو يذهب اليه ليبايعه ويأخذ منه أمانا لبنى أمية .

هذا على حين أن الأمر أخذ يستحكم لابن الزبير ، ويمتد نفوذ دولته . فالى جانب الحجاز الذى التف حوله منذ البداية ، أتته البيع من سائر الأقاليم . فلما تمت له بيعة أهل البصرة ، وأرسلوا اليه يسألونه أن يولى عليهم أميرا من قبله — أرسل اليهم ابن الزبير عمر بن عبيـد الله بن معمر واليا عليهم ، وذلك فى شوال سنة ٦٤ . كذلك لما أرسل اليه أهل الكوفة — ما عدا الشيعة — يطلبون أن يولى عليهم واليا — أرسل اليهم ابن الزبير محمد بن يزيد الأنصـارى واليا عليهم ، ومعه ابراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج ، فقدما الى الكوفة فى رمضان سنة ٦٤ . وعين ابن الزبير محمد بن الأشعث الكندى على الموصل . وحوالى هـذا الوقت أرسل اليه عبد الله بن خازم السلمى — بعد أن استولى على مرو وخراسان — ببيعتـه أيضا ، فأقره ابن الزبير وجعله واليا على خراسان . وأرسل اليه كذلك أهل مصر ببيعتهم ، فولى عليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهرى ، فقدم مصر وانضم اليه أهلها ، وذلك فى شعبان سنة ٦٤ هـ .

وهكذا فى تلك السنة سنة ٦٤ ، كاد يتم الأمر لعبد الله ابن الزبير . وولى الولاة من قبله — كما رأينا — على أكثر الأقاليم . بل ان أكثر أمراء الشام نفسه كتبوا اليه ، وأرسل يقرهم على اماراتهم . فكتب اليه الضحاك بن قيس الفهرى ، أمير دمشق ، والنعمان بن بشير الأنصارى أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابى أمير قنسرين . ولم يبق الا أهل الأردن وفلسطين — وأميرهم حسان بن مالك الكلبى — وهو من زعماء العرب اليمنية . واذ ذاك قدم عبيد الله بن زياد من العراق ، فالتقى مع مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، وسائر بنى أمية . واجتمعوا مع حسان بن مالك والحصين بن نمير ، وغيرهما من قواد الجيش . وحينئذ أخذت الأمور تتغير ، وتتجه اتجاها جديدا ، ستكون له النتيجة الحاسمة . وذلك منذ رمضان من ذلك العام .

شيعة وخوارج

ولكى تكمل الصورة عن أهم أحداث ذلك العام ينبغى أن نشير الى ناحيتين : أى الخوارج والشيعة .

فأما الأولون : فكانوا قدموا على ابن الزبير بمكة فى

أوائل العام — كما ذكرنا — ليؤيدوه فى الدفاع عن مكة والحرم ، ثم فارقوه بعد موت يزيد (ربيع الأول ٦٤) ، لأنهم اختلفوا معه فى العقيدة والهدف . فتوجه فريق منهم — وهو الأكثر — الى البصرة وعلى رأسهم نافع بن الأزرق . وتوجه فريق آخر الى اليمامة وولوا عليهم رجلا يدعى أبا طالوت . وفى أثناء اشتغال أهل البصرة بالوثوب على ابن زياد والمعركة بين تميم والأزد ، خرج الخوارج ثائرين ورئيسهم نافع بن الأزرق — وهؤلاء هم « الأزارقة » . فطاردهم أهل البصرة . ثم أقاموا معسكرهم أو دولتهم بالأهواز ، وذلك فى شوال سنة ٦٤ . وفارق نجدة بن عطية نافع بن الأزرق لأنه لم يوافق على مبادئه ، فلحق باليمامة . وهناك تبعه الناس وخلعوا أبا طالوت ، فكون نجدة دولة أخرى من الخوارج فى قلب جزيرة العرب ، وهؤلاء هم الذين يسمون الخوارج النجدات .

أما الشيعة ، فكانوا يكونون فى الكوفة حزبا منظما قويا ، وفى بعض المدن الأخرى . بدأوا تكوينه منذ مقتل الحسين ، ثم أظهروا أمرهم بعد موت يزيد واخراج ابن زياد ، وبدأوا ينشرون دعوتهم ويستعدون للحرب . وكان زعيمهم « سليمان بن صرد الخزاعى » ، وهو من أصحاب على

وصحابى قديم . ولم يمنعهم بقية أهل الكوفة ولا ولاة ابن الزبير ، لأنهم كانوا يشاركونهم الشعور ضد قتلة الحسين . ثم قدم الى الكوفة أيضا « المختار بن أبى عبيد الثقفى » ، بعد أن كان مشتركا فى القتال مع ابن الزبير ضد جيش يزيد ، وفارقه مختلفا معه . وهو زعيم شيعى آخر ، قدم مظهرا الدعوة الى « محمد بن الحنفية » ، وساعيا الى جمع الناس تحت لوائه . وسيبدأ حركة قوية ، ويكون له شأن . وكان قدومه فى منتصف رمضان سنة ٦٤ .

* * *

ونكتفى الآن بهذه الاشارة الى الشيعة والخوارج ، لأننا سنفصل أمرهم فيما بعد . وهكذا فى تلك السنة أو ذلك العام التاريخى ... أخذت القوات تتحرك ، والدعوات تظهر ، والاتجاهات تتحدد ، وكل حزب يجمّع قوته ويعد وسائله ويختار مكانه ، وذلك استعدادا لما سيحدث من تطورات خطيرة . وستلتحم هذه القوى بعضها مع بعض ، وتستمر معاركها زمنا . كما سيتبين ذلك من سير الأحداث فى الأعوام التالية . لكن أهم مسرح للحوادث ، وهو الذى يجدر أن توجه اليه الأنظار فى هذا الظرف ، لأنه ستتم فيه أهم التطورات وتتخذ القرارات الحاسمة ، التى ستغير مجرى

التاريخ ، كان هو مسرح الشام . لأن الشام كان مقر الدولة ، وطالما كان مركزها الحساس وقلبها النابض وعقلها الموجه ، فننظر الآن كيف تطورت فيه الأمور ، وماذا كان مصيرها ونتائجها ؟ .

الفصل الثاني

دولة آل مروان

كان وصول عبيد الله بن زياد الى الشام من العوامل الحاسمة فى الموقف .

وصل عبيد الله هذا الى الشام ، فوجد القوم فى أمر مريج . وهم منقسمون قسمين : فريق يدعو الى ابن الزبير سرا أو جهرة ، وفريق يدعو الى بنى أميـة . وزعيم الفريق الأول الضحاك بن قيس الفهرى ، الذى كان وقتذاك أمير دمشق ، وكانت له من قبل مكانة كبيرة عند معاوية وابنه يزيد . ويؤيده النعمان بن بشير الأنصارى أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابى (رئيس قيس) وهو أمير قنسرين . وزعيم الفريق الثاني حسان بن مالك بن بحدل الكلبى : (رئيس القبائل اليمنية ، التى من أكبرها قبيلة كلب) وكان أمير فلسطين والأردن ، وذلك منذ عهد معاوية ويزيد . وهو صاحب النفوذ الأكبر فى الشام ، لأن العرب اليمنية كانت

لها الأغلبية فى الشام ، ويكونون أكثرية الجنود . كما أن حسانا وعشيرته كانوا أخوال البيت المالك : لأنهم أخوال يزيد بن معاوية وابنه . فيزيد أمه هى ميسون بنت بحدل الكلبية ، من عشيرة كلب هذه . ويؤيد حسانا فى موقفه بنو أمية جميعا ، وكذلك أكثر قواد الجيش والجنود .

ثم ان هذا الفريق الثانى كان . بدوره ينقسم الى شطرين : فجانب أو حزب يدعو الى خالد بن يزيد بن معاوية بالذات ، بحق انتظام الوراثة . وهذا هو حزب حسان ومن تبعه . وآخرون ، فى نفس الوقت الذى يؤيدون فيه بنى أمية ، لا يرضون بخالد ، لأنه لا يزال غلاما حديث السن ، ولكنهم لا يعرفون من يرشحون بدلا منه . وكان فى مقدمة هذه الطائفة الحصين بن نمير السكونى ، الذى كان قائد الجيش الذى توجه قبل لحصار مكة وابن الزبير ، فى العهد السابق . كما كان من هذا الرأى أهل الأردن جميعا ، وهم قوة كبيرة بين العرب .

* * *

فهكذا كان أهل الشام مختلفين ، منقسمين الى هذه الطوائف أو الأحزاب . وظل أمرهم على هذه الحال ، ولم يكن هناك أمل فى أن يصلوا الى اتفاق ، أو يتنازل فريق

للآخر عن موقفه . وعلى ذلك استمر الشام بدون امـــام ولا دولة ، عدة أشهر . وكان لابد أن يؤدى التنازع والتوتر الى حدوث مصادمات ، فوقعت بعض المناوشات ، التى باتت تنذر بنشوب حرب أهلية .

كتب حسان بن مالك — وهو بالأردن — كتابا الى الضحاك بن قيس ، وهو فى دمشق ، يبين له فيه حق بنى أمية فى هذا الأمر ، ويدافع عنه ويشيد بأعمالهم ومآثرهم ، ويذكره بما أسدوا اليه من معروف وما رفعوا من قدره ، ويدعوه الى الطاعة والجماعة والبيعة لبنى أمية ، كما يذكر ابن الزبير فيثلبه ويذمـــه ، ويقول انه ناكث ، لأنه خلـــع خليفتين : وهما يزيد وابنه ، وهكذا . وطلب من الضحاك أن يقرأ كتابه هذا على الناس ، فى المسجد الجامع . لكنه فى نفس الوقت كتب نسخة ثانية أعطاها للرسول ، وقال له : ان لم يقرأ الضحاك كتابى على الناس ، فقم أنت واقرأ عليهم الكتاب — كما كتب نسخة ثالثة أرسلها الى بنى أمية ، وطلب منهم أن يحضروا هـــذا الاجتماع . فلما كان يوم الجمعة ، وصعد الضحاك المنبر ، قام اليه الرسول وطلب منه أن يقرأ كتاب حسان على الناس . فرفض الضحاك ، وأمره بالجلوس — فعل ذلك ثلاث مرات . فحينئذ ، قام

الرسول وأخرج الكتاب الذى معه . وقرأه على الناس . فقام بنو أمية وصدقوا حسانا ، وحملوا على ابن الزبير . وأيدهم الرؤساء من غسان وكلب . وقام آخرون من قيس من أتباع الضحاك ، فسبوا حسانا ، وأثنوا على ابن الزبير . وهكذا اضطرب الناس ، وجال بعضهم فى بعض بالمسجد وتضاربوا . وأمر الضحاك حرسه بأن يحبسوا الرؤساء ، الذين صدقوا مقالة حسان ، وشتموا ابن الزبير ، فأخذوهم ، ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة . فجاءت جموع من غسان وكلب ، فهاجموا السجن ، وأخرجوا المسجونين .

وهكذا زاد هذا الاشتباك العنيف من حدة التوتر . وهذا اليوم كان أهل الشام يسمونه « يوم جيرون الأول » — نسبة الى الموضع بجوار المسجد ، الذى حدثت فيه المعركة . وفى يوم جمعة آخر ، خرج الضحاك الى مسجد دمشق ، فجلس فيه . فذكر يزيد بن معاوية ، ووقع فيه وذمه ، فقام إليه شاب من قبيلة كلب بعصا كانت معه فضربه بها ، والناس جالسون فى هيئة حلق ، وهم متقلدون سيوفهم . فقام بعضهم الى بعض فى المسجد ، فاقتتلوا : قيس تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعو الى بنى أمية ثم الى خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد . ودخل الضحاك دار الامارة

وأصبح الناس فلم يخرج الى صلاة الفجر . وهكذا بلغ هياج النفوس أقصاه ، وكانت هذه بوادر تنذر بوقوع حرب داخلية .

مروان والخلافة

فى هذه الظروف وصل عبيد الله بن زياد الى الشام من العراق ، هاربا — كما قدمنا — قد أخرج من ملكه ودياره ، فكان وجوده بدمشق أحد العوامل الحاسمة فى الموقف . فقد قابل « مروان بن الحكم » وتناقش معه عن الحال فوجد مروان يخامره اليأس ، وهو لا يرى أملا فى رأب الصدع وزوال الخلاف . ولم يكن مروان — حتى هذا الوقت — يفكر فى أنه يمكن أن ينهض ليرشح نفسه ، لنيل منصب الخلافة ، أو اذا كان عرض له هذا الخاطر ، فانه ما كان يراه مشروعا قابلا للتحقيق . ذلك لأن مروان عاش طول حياته بعيدا عن الشام — فى الحجاز ، ولم ينتقل مع أسرته الى دمشق الا منذ بضعة أشهر ، وقد أشرف على الخامسة والستين . فكان يعد كأنه غريب عن أهل البلاد ، ليست له بهم صلات قوية ، وليست لهم به ألفة . ولذلك لم يذكر أحد اسمه كأحد المرشحين للبيعة ، ولم يقم أحد بالدعوة اليه . والدلائل

تدل على أنه لم يكن يرضى بخالد لأنه ليس الا كأحـد أحفاده ، ولم يكن راضيا عن آل أبى سفيان فى قرارة نفسه ، وبخاصة يزيد . لهذا لم يكن عجيبا أنه أخذت تراوده فكرة أن يتوجه الى ابن الزبير --- وكانت بين أسرتيهما صلة قديمة بالمدينة -- ليبايعه ويأخذ منه أمانا لأسرته وبنى أمية .

فوصل عبيد الله بن زياد --- وهو فى هـذه الحال ، فلما وقف ابن زياد منه فى هذه المقابلة على رأيه وما يجول بخاطره ، اذا به يعرب عن دهشته ويعلن استنكاره لهـذه الفكرة ، التي جالت بخاطر مروان ، وقال له فيما قال : « قد استحييت لك مما تريد أن تصنعه ، أنت كبير قريش وسيدها تمضى الى أبى خبيب (يعنى ابن الزبير) فتبايعه ؟ ! . أنشدك الله أن تفعل ، فأنت أولى بها منه » . وفى رواية ثانية أنه قال له : « أنت سيد بنى عبد مناف » . فقال له مروان : « فما الرأى ؟ » . قال أن تنهض وتدعو الى نفسك ، وأنا أكفيك قريشا ومواليها فلا يخالفك منهم أحد . وكان بنو أمية وعمرو بن سعيد بن العاص حاضرين ، فقال عمرو : « صدق عبيـد الله ، أنت شيخ قريش وسيدها ، وأنت أحق الناس بالقيام بهذا الأمر » . فوقع هذا الكلام من نفس مروان الموقع الطيب ، وصادف -- على الفور -- منه موضع القبول ،

كأنه كان ينتظر أحدا أن يفوه به فى أى وقت ، وتحدثه به نفسه فى العقل الباطن . وكأنما طرح — فجأة — كل ما كان يفكر فيه جملة واتجه الى شىء جديد ، فقال : « ما فات شىء بعد » . ثم قام ومعه بنو أمية ومن تبعه فسار ، وهو يقول « ما فات شىء بعد » . وحينئذ وضح الطريق ، وظهرت فكرة جديدة فى الموقف . وكانت — كما أن الحوادث ستثبت بعد قليل — هى الفكرة الحاسمة .

نهض مروان اذن للعمل . وتكفل عنه فى الدعوة اليه ونشر الفكرة « عبيد الله بن زياد » وعمرو بن سعيد ، وكثير من بنى أمية وغيرهم . وقد كانت هذه الفكرة حلا عمليا وسطا يمكن أن يوفق به بين الآراء بعد التقارب ، وكان فيها الجواب — بصفة خاصة — لما كان يتمناه أهل الأردن ويرضونه . فان « حسانا » حينما توجه الى أهل الأردن ليدعوهم الى بيعة ابن أخته : خالد بن يزيد ، قالوا له : « اننا نوافقك على آرائك : انا نشهد مثلك أن ابن الزبير ناكث ، وأن الذين قتلوا يوم الحرة ليسوا ناجين ، وأن يزيد كان على حق ، وأن الذين قتلوا منا هم الناجون . نحن اذن على رأى واحد ، ونحن لا نريد أن يخرج هذا الأمر عن بنى أمية . وانا نبايعك على أن نقاتل معك من خالفك وأطاع

ابن الزبير . ولكن بشرط أن تجنبنا هذين الغلامين ، فانا نكره ذلك (يعنون ابني يزيد بن معاوية : عبد الله وخالدا) — فانا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي ! » — يعنون أن الناس في الحجاز والعراق أتوا بشيخ كبير ، وهو عبد الله ابن الزبير ، وهم يراد منهم أن يأتوا بصبي ، وهو خالد أو عبد الله : ابنا يزيد . اذن ففكرة ترشيح مروان وتنصيبه للخلافة — وهو شيخ مكافيء لابن الزبير ، وفي نفس الوقت من بني أمية — لا بد أن تلاقي منهم أحسن القبول ، ويجدوا فيها الجواب لما يتمنونه . وهذا هو الذي حدث بالفعل . فاننا سنرى أنهم كانوا أكبر المؤيدين لمروان ، وأول من بايعه . ومن الأردن نبتت دولة آل مروان .

مؤتمر تاريخي

ونشط ابن زياد في الدعوة لمروان ، وناصب هو وبنو أمية جميعا ومؤيدوهم — سواء منهم من تبعوا رأيه ومن بقوا على ولائهم لخالد — ناصبوا « الضحاك بن قيس » العداء ، وضيقوا عليه الخناق ، حتى فشا الانقسام بين الأجناد في دمشق . ولما حدثت المصادمات — كما ذكرنا من قبل — واعتدي على الضحاك نفسه وتحديت سلطته ،

أحس بالحرج وشعر بخطر مركزه فبدا عليه التردد أو مال الى المساومة ، فاتصل ببنى أمية ودعاهم الى الاجتماع عنده . فحضروا اليه من الغد ، فتكلم اليهم معتذرا ، وذكر حسن صنيعهم له ، وقال : انه ليس يريد شيئا يكرهونه . وبعد أن تفاوضوا عرض اقتراح فوافقوا عليه جميعا - وكان اقتراحا بارعا — وذلك أنهم قرروا أن يعقد اجتماع عام ، أو مؤتمر ، يحضره جميع الأطراف ويتبادلون الآراء ، ليتفقوا على اختيار رجل من بنى أمية يولونه الخلافة . واختاروا أن يكون مكان الاجتماع « الجابية » — وهى موقع بين الأردن ودمشق . فيكتب بنو أمية والضحاك الى حسان ومن معه من أهل الأردن أن يوافوهم هناك ، ويسير الضحاك ومن معه من أهل دمشق فيلتقوا بهم فى ذاك المكان . فكتب كل طرف الى الآخر فعلا ، وخرج الناس بأعلامهم ، وبدأ الاستعداد لعقد هذا الاجتماع أو المؤتمر .

فأما حسان وأهل الأردن وبنو أمية فساروا الى الاجتماع بدون تردد . وأما الضحاك بن قيس وأتباعه فتوقفوا فى الطريق ، ثم عدلوا عن حضور المؤتمر . والسبب — الذى قيل لتعليل ذلك — هو أن بعض أصحاب الضحاك ، ممن كانوا أجابوه الى بيعة ابن الزبير لاموه بشدة على تغيير

رأيه ، وأنكروا تحوله لبنى أمية ، وأثاروا فيه روح العصبية ثانية . فانثنى الى رأيهم ، وعاد الى موقفه الأول . أو ربما كانت هذه المسألة كلها حيلة أو مناورة ، ليتخلص الضحاك من الحصار الذى كان حوله فى دمشق ، ويتمكن من الخروج للدفاع أو لتعبئة قواته . وقد سار الضحاك الى « مرج راهط » ، خارج دمشق ، وأقام معسكره فيه . وعلى كل ، فان المؤتمر تم انعقاده — فعلا — فى « الجابية » حضره أهل الأردن وفلسطين وأنصار بنى أمية من دمشق وغيرها ، وبنو أمية ، وفى مقدمتهم مروان بن الحكم ، وابناه : عبد الملك وعبد العزيز ، ثم حسان بن مالك وأكثر قواد الجيش . واستمر انعقاد المؤتمر أربعين يوما ، وكان حسان يصلى بالناس فيه ، أى أنه كان امام المؤتمر أو بمثابة رئيس له .

* * *

كان « مؤتمر الجابية » مؤتمرا تاريخيا . ويمكن أن يوصف — بلغة السياسة الحديثة — بأنه كان مؤتمرا « دستوريا » . فقد حضره ممثلو الرأى العام فى الأمة ، ليتشاوروا بحرية ليصلوا الى قرار ينهون به الأزمة القائمة ويحسمون الخلاف ، ويحفظون كيان الأمة ويصونون

مستقبلها وتمت الدعوة اليه بالرضا من عناصر الأمة ، لا من قِبَل حكومة ولا باكراه من سلطة رسمية ، فهو مؤتمر ديمقراطى شعبى .

وقد لبث الحاضرون يتناقشون مدة طويلة . ويدل ما ورد من بعض المناقشات فيه على أن وجهات النظر كانت تتبادل فيه بحرية . فمن ذلك ما جرى بين مالك بن هبيرة السكونى والحصين بن نمير السكونى — وهما قائدان بارزان ، ينتميان الى عشيرة واحدة . فقد كان الأول يهوى هوى بنى يزيد ، ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، فقال للآخر : « هلم فلنبايع لهذا الغلام فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ، فانه يحملنا على رقاب العرب غدا — يعنى : خالد ابن يزيد . فقال الحصين : « لا لعمر الله . لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبى » . فقال له مالك : « والله لئن استخلفت مروان ، وآل مروان ، ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك ، وظل شجرة تستظل بها . ان مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة فان بايعتموه كنتم عبيدا لهم » . فقال الحصين : « مروان شيخ قريش ، والطالب بدم الخليفة المظلوم ، وهو يدبرنا ويسوسنا ، ولا يحتاج الى أن ندبره ونسوسه ، وغيره يحتاج الى أن يدبر ويساس » . ثم روى له رؤيا رآها ، وهى أنه

رأى فى المنام قنديلا معلقا فى السماء وأن من يتناوله يلو الخلافة ، فلم ينله أحد الا مروان . وقال : « والله لنستخلفنه » .

ومناقشة أخرى ، جرت بين حسان بن مالك ورجل آخر هو ابن عضاه الأشعرى . فقد قال لحسان : « أراك تريد هذ الأمر لخالد بن يزيد وهو حدث السن ! . فقال له حسان : « نعم انه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة » . فأتى ابن عضاه خالدا فى جماعة من نظرائه فوجده نائما متصبحا ، فقال : « يا قوم أنجعل نحورنا أغراضا للأسنة والسهوم بهذا الغلام وهو نائم فى هذه الساعة ، وانما صاحب هذا الأمر المجد المشمر الحازم المتيقظ ؟ ! » . ثم أتى مروان بن الحكم ، فألفاه فى فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه والرمح مركوز بفنائه ، وفرسه مربوط الى جانب فسطاطه ، والمصحف بين يديه — وهو يقرأ القرآن . فقال ابن عضاه « يا قوم ، هذا صاحبنا الذى يصلح له الأمر ، وهو ابن عم عثمان أمير المؤمنين ، وشيخ قريش وسيدها » . فرجعوا الى حسان فأخبروه خبر ذلك ، وأعلموه أنهم مجمعون على مروان لأنه كبير قريش وشيخها . وحينئذ قال حسان : « رأيى لرأيكم تبع ، انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير ، وتخرج من آل هذا البيت » .

ويظهر أنهم فى هذا الاجتماع عرضوا أسماء المرشحين وبحثوا فى أمر كل منهم . وممن ذكر اسمه : عبد الله بن عمر . ويدل على ذلك الخطبة التى ألقاها فى المؤتمر روح بن زنباع الجذامى — وكان أمير فلسطين خلفا لحسان — فقد قام روح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، انكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدمه فى الاسلام — وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف . وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون اليه من أمره ، فهو — والله — كما يذكرون بأنه ابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين ، وهو — بعد — كما تذكرون ، فى قدمه وفضله . ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين : يزيد وابنه معاوية ، وسفك الدماء وشق عصا المسلمين . وليس صاحب أمر أمة محمد — صلى الله عليه — المنافق . وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب هذا الصدع ، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل . وانا نرى للناس

أن يبايعوا الكبير ، ويستشبوا الصغير — يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية .

وهـذا هو الرأى الذى أخـذ به أخيرا بعد المداولة والمشاورة ، فاتجه رأى الناس الى البيعة لمروان ، ثم من بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص . وقال أهل الأردن لمروان — وكانوا هم أكبر المؤيدين له منـذ البداية — : أنت شيخ كبير وابن يزيد غلام وابن الزبير كهل ، وانما يقرع الحديد بعضه ببعض ، فارم بنحرك فى نحره . ابسط يدك نبايعك . فبسط يده فكانوا أول من بايعوه . وعـدل حسان نهائيا عن رأيه نزولا على ارادة الأكثرية ، واقتنع باختيارهم . فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر مروان فقال : هو كبير قريش وسنها ، وابن عم الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه قبل الناس أجمعين . فبايعوه — رحمكم الله — فهو أولى بميراث عثمان ، وأحق بالأمر من الناكث ابن الزبير ، الذى خلع الخـلافة وجاهر الله بالمعصية . فسارعوا الى بيعته .

وهكذا أجمع المؤتمر على رأى واحد واتفقت الكلمة . وفى يوم الأربعـاء ، لثلاث خلون من ذى القعـدة عام ٦٤ هـ — قام الناس جميعا فبايعوا لمروان بن الحـكم

على أنه خليفة المسلمين ، وتفاهموا على أن يكون الأمر من بعده لخالد ثم لعمرو بن سعيد . والتفت بنو أمية حول مروان ، وقالوا : الحمد لله الذى لم يخرجها منا . وخرج الناس يدعون لمروان وأسرع عبيد الله بن زياد فأخذ البيعة على أهل دمشق لمروان . وأطبق الناس على البيعة له . وهكذا تمت البيعة لمروان بن الحكم بالخلافة . ومن ثم قامت دولة آل مروان .

* * *

وقد تبين من هذه الأقوال — التى ذكرت — أن الأسباب التى دعت الناس الى انتخاب مروان هى : أنه شيخ قريش ، رجل كبير السن محنك ذو رأى وشجاعة ، له تاريخ فى الاسلام ، وهو من بنى أمية ، وابن عم الخليفة عثمان ووارثه ، وكان فى طليعة من دافع عنه وكان أول من طالب بدمه ، وهو كفء يصلح للقيادة فى الحرب والسياسة ، وهو معادل لابن الزبير يستطيعون أن يصطفوا تحت لوائه ، ويسيروا معه — فى ثقة — لمواجهة الخصوم . لكن كان أيضا من بين الأسباب أن أهل الشام رفضوا أن يبايعوا لابن الزبير لأنه رجل بعيد عنهم ، كغريب مقامه فى الحجاز . فاذا بايعوه ، كان معنى ذلك أنهم رضوا بانتقال الدولة والملك من الشام

الى الحجاز : الى قوم غيرهم . وقد كانت الدولة مقرها بينهم ، منذ أمد طويل . وليس هذا استنتاجا ، ولكن سجلته الأخبار منذ القدم . فقد روى التاريخ أن ابن الزبير لما استخلف الضحاك الفهرى على الشام ، كره أهله ذلك : « واجتمع رجال بنى أمية وناس من أشراف أهل الشام ووجوههم ، منهم روح بن زنباع وغيره ، فقال بعضهم لبعض : ان الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا الى الحجاز ، لا نرضى بذلك . هل لكم أن تأخذوا رجلا منا ، فينظر فى هذا الأمر ؟ » . فأخذوا يبحثون ، حتى انتهى الرأى الى اختيار مروان بن الحكم . وفى هذا معنى قومى له أهميته التى لا تخفى ، اذ كان انتقال السلطان من دمشق معناه خسارة جسيمة للشام .

موقعة حاسمة

قامت دولة آل مروان — اذن — فى أواخر عام ٦٤ هـ ، واستقبلت أول عام لها فى فاتحة عام ٦٥ هـ . وقد بدأ تاريخها — من الوجهة القانونية — منذ عقدت البيعة لمروان فى المؤتمر وما بعده . ولكن — من الوجهة الواقعية ما كان يضمن لها البقاء والاستقرار الا اذا خاضت حربا مع المنشقين

الذين لا زالوا بالشام ، وكتب لها النصر . فان الضحاك — ومن تبعه — الذين دعوا لابن الزبير ، كانوا لا يزالون يجمعون قواتهم فى « مرج راهط » . ولما علموا بقرار المؤتمر أظهروا خلافهم ، وخلعوا بنى أمية وأعلنوا مبايعتهم لابن الزبير . وأرسل الضحاك الى النعمان بن بشير وزفر بن الحارث ، وناتل بن قيس — الذى ثار وأخرج روح بن زنباع من فلسطين — كتب الى هؤلاء جميعا أن يمدوه بالجنود ، فأمدوه . فكان أول واجب على مروان ودولته أن يواجهوا هذا الخصم ، ولابد أن يجمع هو أيضا قواته ويسير الى مرج راهط ، ويخوض الموقعة حتى يؤيد النصر الحربى — اذا انتصر — القرار القانونى ، الذى اتخذ فى المؤتمر .

عبأ كل طرف اذن قواته . ولا يمكن تحديد أعداد الجيوش بالدقة ، فقد ذكرت أرقام فيها مبالغة . ولكن الظاهر أن كل جيش كان لا يقل عن اثنى عشر ألفا . واجتمعت على الضحاك قيس بفروعها ، واجتمعت على مروان كلب وغسان والسكون ، وكندة وطيىء . وقاد مروان جيشه بنفسه ، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد . أما الضحاك ومن معه فكانوا

يقاتلون عن ابن الزبير ، الذى كان غائبا بعيدا فى مكة . وقبيل الموقعة ، استولى أحد قواد مروان من غسان على دمشق ، وغلب على الخزائن وبيت المال . وأمد مروان بالأمـوال والرجال والسلاح . فكان أول فتح على بنى أمية . والتحم الجيشان ، واقتتل الفريقان قتالا شديدا . وحدثت الموقعة فى المحرم عام ٦٥ هـ . واستمر القتال عشرين يوما . وكانت موقعة هائلة .

وأسفرت الموقعة عن قتل « الضحاك » ، وهزيمة جيشه ، وقتل من الجانبين أعداد كبيرة . ولكن قتلت قيس مقتلة عظيمة ، لم يصبهم مثلها ، وتفرق من بقى منهم . فتم النصر لمروان ، وثبتت دولته . وهذه الموقعة كانت موقعة تاريخية حاسمة ، فقد قررت مصير ابن الزبير فى الشام ومروان . وبالنصر الذى أحرزه مروان فيها ، خلصت له الشام كلها ، وأصبح هو الخليفة فيها بلا منازع . وانتهى أمر الزبير بالنسبة لها . واتصلت دولة بنى أمية . وإن كان الملك فيها انتقل من فرع الى فرع . ومن ذلك الوقت ، بدأت دولة مروان وآله الحقيقية .

وكانت ذيول المعركة أن النعمان بن بشير والى حمص — لما بلغه خبر الهزيمة خرج هاربا ليلا ، فتحير ليلته

كلها . ثم أدركه أهل حمص فقتلوه . ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين ، هرب فلحق بمدينة «قرقيسيا» وهى على الفرات شمال الجزيرة . وغلب على المدينة ، وتحصن بها . وكانت منيعة ذات أبراج ، واجتمعت اليه فيها قبائل قيس التى كانت مقيمة على الفرات ، فبقى متحصنا بها عدة سنين . وكان عقبة فى طريق جيوش الشام الى العراق . وسيكون له شأن مع عبد الملك — سنذكره فيما بعد . وقيل ان زفر حضر الموقعة ، ثم فر الى تلك المدينة . وقال فى ذلك قصيدته المشهورة ، التى جاء فيها :

أرينى ســلاحى لا أبا لك اننى
أرى الحرب لا تزداد الا تماديا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط
لحسان صــدعا بيننــا متنائيا

الخ ...

وهرب نائل بن قيس الجذامى من فلسطين ، فلحق بابن الزبير بمكة . وقيــل ان مروان — لمــا جىء اليه برأس الضحاك ساءه ذلك ، وقال : « الآن حين كبرت سنى ودق عظمى ، وصرت فى مثل ظمء الحمار (يعنى أن بقيت من أجله مدة قصيرة) أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض ! » .

خلافة مروان

صفت الشام لمروان ، واستقرت دولته بها . ولكن كان مكتوبا أنه لن يبقى بعد هذه الموقعة أكثر من ثمانية أشهر . وهذه لم تكن مدة كافية لانجاز ما أمامه من مهام ، أو لمنازلة خصمه ابن الزبير ، وتوحيد الدولة . لكنه بعد أن قضى فترة فى تنظيم شئون الدولة فى الداخل ، شرع فى العمل فى هذا السبيل .

وكان أهم ما حققه فى المدة الباقية من خلافته فتح مصر ، وانتزاعها من يد ابن الزبير ، فضمها الى الشام . وذلك أن بعض أهل مصر كانوا كتبوا الى ابن الزبير بالبيعة ، فأرسل اليهم عبد الرحمن بن عتبة الفهرى واليا ، ولكن أكثرية أهل مصر كانوا يحبون بنى أمية . فما ان ظهر مروان وبلغهم خبر نصره ، حتى كاتبوه سرا ودعوه الى القدوم الى مصر . فجهز مروان جيشا ، وأمر عليه ابنه عبد العزيز بن مروان وبعثه أمامه ، وسار مروان . فلم يجدوا مقاومة تذكر ، وانهزم القواد الذين أرسلهم ابن عتبة ، حتى نزل مروان عين شمس . وبعد قتال يسير سفر أناس بينهم بالصلح . فصالح ابن عتبة مروان على أن يخلى مصر ويلحق بمأمنه ، فلحق بابن الزبير .

وكان دخول مروان مصر فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وبقى بها شهرين الى هلال رجب من نفس العام . وعين ابنه عبد العزيز واليا عليها ، وأوصاه . ثم رجع الى الشام .

ولما أقبل راجعا يريد دمشق ، بلغه أن عبد الله بن الزبير قد بعث أخاه « مصعبا » نحو فلسطين ، حين بلغه خبر ناتل واقباله اليه هاربا . فوجه مروان اليه عمرو بن سعيد فى جيش قوى ، فلقيه عمرو قبل أن يدخل الشام ، فقاتله عمرو فهزم أصحابه ، فرجع مصعب ومن معه الى الحجاز . ورجع عمرو بن سعيد الى مروان ، فوافاه فى دمشق .

ولم يكن من اليسير الآن فتح العراق . لكن ابن زياد كان بينه وبين أهله ثأر . فقد أخرجوه وسلبوا سلطانه ، وألجأوه الى الهرب . ولم تكن الجهود التى بذلها ابن زياد من أجل انقاذ الدولة بالشام ، واعادة سلطان بنى أمية ، الا بهدف أن يتمكن من العودة الى العراق ، فيستعيد ملكه وسطوته ويأخذ بثأره . فيظهر أنه هو الذى حمل مروان على أن يسرع باعداد جيش كبير ، يضعه تحت قيادته ، ليتوجه به لاسترداد العراق . وقد تكون هذا الجيش فعلا ، وسار به ابن زياد . وكانت الخطـة أن يسـير أولا الى « قرقيسياء » بالجزيرة لاخضاع زفر بن الحارث ، ثم بعد

أن يفرغ من هذه المهمة يتجه جنوبا الى العراق لفتحه . لكن الذى حدث أن هذا الجيش قبل أن يصل الى قرقيسياء ، واجهه جيش قادم من العراق من متطوعين فدائيين ، لم يبعثهم أمير ، كانوا قادمين لمقاتلة ابن زياد بالذات . وهؤلاء هم « التوابون » وهم قوم من الشيعة . وسنقص أمرهم وأمر الحرب التى جرت فى فصل قادم ، نخصصه لثورات الشيعة التى ستمتد الى عهد عبد الملك .

ولم يغفل مروان أمر الحجاز ، بعدما رأى من الغارة التى شنها مصعب على فلسطين . فجهز أيضا قبيل وفاته جيشا أرسله الى الحجاز ، وذلك بقيادة « حبيش بن دلجة القينى » . وقد سار الجيش لغايته ، ولكن الحوادث التى تلت تمت فى عهد عبد الملك . فسنذكر أمره اذن فيما بعد ، لنعرف ماذا صار اليه أمره .

ولاية العهد

وكان أهم ما فعله مروان — من الوجهة الداخلية . وبرهن على حكمته وبعد نظره ، وأدى الى خير النتائج ، هو أنه عقد البيعة بالعهد من بعده — وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين ، وكأنما كان ملهما فى ذلك - عقد العهد لابنيه : عبد الملك ثم عبد العزيز .

ومع أنه فى ذلك ربما كان مخالفا ما كان متفاهما عليه فى مؤتمر الجابية ، من أن يكون العهد من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، الا أن هذه المخالفة كانت تقتضيها الحكمة السياسية ولصالح الدولة ، فان انتقال الأمر من بعده لابنيه هو ضمان الاستقرار ، ويكفل استمرار الدولة . وكان عبد الملك بلا شك أكفأ من كل من خالد وعمرو . وشعور الناس برجحان شخصية عبد الملك هو الذى جعل هــذا ممكنا .

فقد دعا مروان رؤساء القوم بعدما عاد الى الشام من رحلته فى مصر ، وأخبرهم بما كان عمرو يعلنه من أن الأمر سيكون له من بعد مروان ، وطلب اليهم أن يوافقوا على المبايعة بالعهد من بعده لابنيه . فأجابوه الى ذلك ولم يلق اعتراضا . وكان من أول الموافقين حسان بن مالك نفسه ، الذى كان من أشد المتحمسين لخالد . ذلك أن مروان كان مهد لهذا الأمر بحيلة سياسية ، وهى أنه بعد أن تم له النصر وآلت اليه الخلافة ، أشير عليه — ورحب بالفكرة — أن يتزوج أم خالد التى توفى عنها الخليفة السابق يزيد ، وقد كانت من نفس الأسرة الأموية ، فهى فاختة بنت أبى هاشم ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وكانت — كما روى —

سيدة جليلة وعاقلة . فبهذا الزواج حقق غرضين : الأول أنه ربط بين الأسرتين : تلك التى كان فيها الحكم ، والأسرة التى آل اليها الحكم ، وكان يرمى بذلك الى تثبيت مركزه وتوثيق العلاقات ، والغرض الثانى أنه أصبح بمثابة الأب لخالد ، فلم يعد يخشى شيئا من جانبه وصار من الممكن أن يؤثر عليه .

وهكذا كان من السهل على مروان أن ينفذ ما أراد . وعقد العهد من بعده لابنه عبد الملك ، ثم ابنه الآخر . لكن عمرو بن سعيد حمل الضغن فى نفسه لما حدث ، ولا سيما أنه اعتبر أنه ساعد مروان فى تأسيس ملكه ، فسيسرها اذن فى نفسه . وستكون لهذه عاقبة خطيرة ، ويكون لعمرو شأن مع عبد الملك سنعرفه فيما بعد .

هل مات أم قتل

وفجأة ، فى مستهل رمضان من سنة ٦٥ هـ — توفى مروان بن الحكم .

هل كان موته طبيعيا ؟ — «حتف أنفه» ، كما يقولون أم مات باصابة بالطاعون ؟ أم قتل اغتيالا ، حيث سقته زوجته — التى تحدثنا عنها — « أم خالد » — لبنا دست فيه

السم ؟ . أو خنقته هى — أو جواريها — بأن وضعت على وجهه وسادة فى أثناء نومه ؟ . كل هذا لا أهمية له . المهم أن مروان توفى فى ذلك اليوم ، وليس فى الموت غرابة ، فالموت مكتوب على كل حى .

ومع ذلك ، فليس هناك مانع أن نقف برهة — حيث وعدنا بذلك من قبل — لننظر فى هذه المسألة . فأول ما يلاحظ أن الروايات متضاربة . فالرواية الأولى أنه مات موتا طبيعيا . والرواية الثانية أنه مات باصابته بالطاعون . والثالثة أن زوجته سقته لبنا وضعت فيه السم . والرابعة أن زوجته هى التى خنقته ، والخامسة أنها أمرت جواريها ففعلن ذلك . فلسنا ندرى اذن أى هذه الروايات نصدق ؟ . لكن تناقض الروايات دليل ظاهر على أن الحقيقة غير معروفة . ثم اذا عرّضنا هذه الروايات على حكم العقل ، فاننا نجد أن الروايات التى تزعم أن زوجته هى التى اغتالته مباشرة — أو بالواسطة — غير مقبولة ، أو معقولة .

فهذه الزوجة سيدة شريفة عربية من بيت عبد شمس ، ولم يعرف عن نساء العرب — فضلا عن أن يكن من قريش — الا شرف النفس ونبل السجية ، والاخلاص والوفاء للزوج — ولا سيما وهذا قريبها من نفس أسرتها ،

ورجل هو عظيم قومه له مكانته ، وكان فى منصب الخلافة . ثم هى كانت زوجة خليفة سابق ، وهو يزيد . وأم خليفة سابق ، وهو معاوية بن يزيد . ثم صارت أيضا زوجة خليفة آخر ، وهو مروان . فيستبعد كل البعد أن تقدم على مثل هذا العمل . ولنسأل : وكم مرة سمعنا عن نساء من العرب ، أو أزواج خلفاء ، أنهن أقدمن على مثل هذا العمل ، الذى يتنافى مع شهامة النفس العربية . ثم اننا لم نر أى أثر لهذا الاغتيال — اذا كانت الجريمة وقعت . فلم يحدث فى الأسرة أى خلاف ، ولم نسمع عن المطالبة بالدم أو الانتقام — على عادة العرب . بل على العكس ، نرى خالدا كالأخ الصغير أو الابن لعبد الملك ، وظل مطيعا وفيا له طوال خلافته ، وزوجه عبد الملك بنته وتزوج عبد الملك أيضا بنت نفس السيدة الجليلة المذكورة ، حيث تزوج « عاتكة » بنتها — وهى بنت يزيد الخليفة ، وأخت خالد . وكانت أثيرة عنده محبوبة محترمة طوال عمرها ، وهى أم ابنه « يزيد » .

والسبب الذى قيل انه هو الذى دفع السيدة المذكورة الى القتل — وهو أن ابنها أخبرها بأن زوجها مروان ذكرها بكلمة نابية — لا يكفى ، على الاطلاق ، أن يكون سببا للدفع الى ارتكاب جريمة القتل . وكذلك لا يكفى أن يكون

تحويل ولاية العهد عن ابنها الى عبد الملك سببا هو الآخر لاقتراف هذه الجريمة . فخالد كان بمثابة الأخ الصغير أو الابن لعبد الملك . وهم جميعا بيت واحد . وهى تعلم — وخالد يعلم — أن الناس أعرضوا عن خالد ، لصغر سنه وقلة تجربته ، واختاروا مروان . فذهب أمله فى الخلافة منذ ذلك الوقت ، ويظهر أنه لم يكن يهتم بها كثيرا . ورضيت أمه أن تكون زوجة لمروان بعد أن نال الخلافة ، وذلك لأنها أرادت أن يكون الفرعان بيتا واحدا ، ويظل الشرف متصلا . ولما عهد مروان لابنه عبد الملك كان هذا شيئا طبيعيا ، وتم بموافقة الناس ، وخالد نفسه الذى ظل من أقرب الناس لعبد الملك . على أن مسألة السياسة لا تهم الزوجات كثيرا ، ولا تبلغ أن تكون ذات بال لدرجة أنها تحمل على القتل : قتل الزوج والقريب ، وعماد الأسرة وقمة شرفها .

فخلاصة الحكم فى المسألة أنها ليست الا تهمة كاذبة ، فرية ، أو خرافة ، أو كما قلنا من قبل : « ليست الا أسطورة اخترعتها مخيلات عجائز القوم ، ثم رددتها الألسن حبا فى الثرثرة أو لتنال من سمعة هذه الأسرة الرفيعة المكانة ، حسدا لما وصلت اليه من مجد » . على كل ، فان مروان قد أدركته منيته فى ذلك اليوم ، فى التاريخ الذى ذكرناه . وحينئذ ترك لابنه كل شىء — خلف لعبد الملك تركة مثقلة .

حقا لقد أسس مروان الدولة . ولكن هـذه الدولة لم تكمل من عمرها عاما واحدا . كانت لا تزال بحاجة أن تثبت دعائمها . وهى لا تشمل الا الشام ومصر ، وهـذه الأخيرة لم تضم الا منذ شهرين . ثم فوق كل شىء ترك مروان لابنه خصمه القـوى وهو ابن الزبير . كان عـلى عبد الملك أن يتحمل أعباء النضال لمنازلة هذا الخصم العنيد ، وأن ينتظر ليلتحم معه فى الموقعة الفاصلة . كان على عبد الملك — اذا أراد أن يوحد الدولة — أن يعد نفسه وجيوشه لخوض غمرات القتال ، فيهاجم العراق والحجاز ، والجزيرة ، وما وراء هذه من بلاد العرب والفرس . وكان فى العراق خاصة أحزاب وطوائف ، من شيعة وخوارج وزبيريين ، وغير ذلك . فهل كان عبد الملك كفؤا لهذه المهام ؟

الحق أنه كان كفؤا لحمل أعبائها وكان جديرا بأن يحمل أمانة هذا المنصب فى هذه الظروف ، وكأنما أهلته الأقدار ليكون القائد الذى ينقذ الأمة فى هذه الساعات الحرجة ، والزعيم الذى يعمل لتوحيد الأمة والدولة ، وينجح فى ذلك . وربما كان أكفأ من أبيه . بل هذه هى الحقيقة كما تظهر من المقارنة . وصدق عبد الله بن عمر اذ قال : « ولد الناس ابنا . وولد مروان أبا ! » .

وكل هذه الأمور ستتجلى لنا حينما ندرس شخصية عبد الملك وأعماله ، فى الفصول التالية . فالآن علينا أن نتعرف هذه الشخصية بأن ندرس سيرتها منذ البداية ، بل ندرس الأسرة التى تنتمى اليها ، ومكانتها من الأمة وموقفها من الاسلام . فالآن الى دراسة سيرة عبد الملك وأسرته .

الفصل الثالث

عبد الملك وأسرته (١)

من هذا الخليفة الجديد ، الذى جلس على عرش الخلافة فى دمشق ، فى ذلك التاريخ الذى ذكرناه (١ رمضان ٦٥هـ) ، واليـه آلت هـذه المسئوليات الضخمة ، وأصبح هو القائد الذى تتطلع اليه الأنظار ، ويرجى أن يقـود الأمة الى بر النجاة ، وينقذها من أخطار الفرقة والانقسام ؟

من هو عبد الملك ؟

فأما نسبه — وهو الذى منه يعرف أسماء آبائه .. فانه هو :

عبد الملك بن مروان ، بن الحكم ، بن أبى العاص ، ابن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف .

فهو أموى ، لأنه من نسل أمية بن عبد شمس . وفى هذا ، يلتقى مع معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد : الخليفتين قبله ، ومع سائر بنى أمية . غير أن أمية كان له — من بين

أولاده الكثيرين — ولدان ، هما اللذان نالا الشهرة فى التاريخ ، وهما : حرب ، وأبو العاص : ابنا أمية .

فمعاوية من فرع حرب ، لأنه هو معاوية بن أبى سفيان ابن حرب بن أمية . ومروان وابنه من فرع أبى العاص ، لأن عبد الملك هو ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية . وفى أبى العاص هذا ، يلتقى عبد الملك وأبوه مروان بالخليفة عثمان — رضى الله عنه . فعثمان — رضى الله عنه — هو ابن عفان ، بن أبى العاص بن أمية . فالحكم اذن أخو عفان وعم عثمان ، ومروان هو ابن عم لعثمان . فمروان أقرب الى عثمان من معاوية . وعثمان يعتبر رأس أسرتهم .

أبو العـــــاص

وقد كان حرب أكبر من أخيه أبى العاص ، وكانت له الرئاسة فى الجاهلية ، ثم انتقلت الى ابنه أبى سفيان ، فالاسم والشهرة كانتا فى الجاهلية فى هذا الفرع . ولكن عثمان هو الذى أسس مجد بنى أبى العاص ، فنال هذا الفرع نباهة الذكر والشرف فى الاسلام . ثم بعد أن ظهر معاوية وانتقلت اليه زعامة الأسرة ، عادت الرياسة ثانية الى مروان وابنه وأولاده : أى الى فرع أبى العاص . فأبو العاص هو جد

جميع الخلفاء والملوك الأمويين من مروان فما بعده ، سواء في الدولة الأموية في المشرق ، أو في الدولة الأموية بعد في الأندلس في المغرب . وفي هذا قال الشاعر (أعشى بني شيبان) وهو يمدح عبد الملك :

عرفت قريش كلها لبني أبي العاص الامارة
لأبرها ، وأحقها عند المشورة بالاشارة
المانعين لما ولوا والنافعين ذوي الضراوة
وهم أحقهم بها عند الحلاوة والمرارة

وقال عبد الله بن الحجاج التغلبي يمدح عبد الملك أيضا :

يا بن أبي العاص ، ويا خير فتى
أنت سداد الدين ان دين وهى
أنت الذي لا يجعل الأمر سدى
حبيب قريش عنكم حوب الرحى
ان أبا العاص — وفي ذاك اعتصى
أوصى بنيه فوعوا عنه الوصى
أن يسعروا الحرب، ويأبوا ما أبى
الطاعنين في النحور والكلى
شزرا ، ووصلا للسيوف بالخطى
الى القتال ، فحووا ما قد حوى

وبهذا يشير الشاعر الى موقف بسالة وثبات لأبى العاص فى حرب الفجار ، وهى الحرب المشهورة التى نشبت فى الجاهلية : بين قريش وكنانة من جهة ، وهوازن وقيس من جهة أخرى ، وسنشير اليها فى مناسبة آتية . فعن هـذه الحرب وردت الأنباء بأن الظفر كان لقيس فى أول النهـار على قريش فانهزم منها كثير ، ولكن حرب ابن أمية وبنى عبد مناف ثبتوا ، وتبعهم سائر قبائل قريش ، وكما قال المؤرخون : « وعقل حرب نفسه ، وقيّد سفيان وأبو العاص نفسيهما ، وقالوا : لن يبرح رجل منا من مكانه حتى نموت أو نظفر . فيومئذ سموا : العنابس ، والعنبس : الأسد » . واقتتل الناس قتالا شديدا . فحينئذ دارت الدائرة على قيس، وعاد الظفر منذ منتصف النهار لقريش ، فأحرزوا نصرا كبيرا . وهذه هى الحرب التى شهدها النبى عليه الصلاة والسلام فى بدء شبابه قبل البعثة ، وكان مع أعمامه ، وقال فيها الحديث : « كنت أنبل على أعمامى » : أى أناولهم النبال : أى السهام التى يرميها أعداؤهم . فهذا موقف كان لأبى العاص فى هذه الحرب ، مع بنى عبد المطلب وسائر بنى عبد مناف . وقد أبلوا فيها جميعا بلاء حسنا .

بين الهاشميين والأمويين

وفى عبد مناف يجتمع عبد الملك بن مروان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب . فعبد مناف هو أبو الهاشميين والأمويين جميعا . لأن هاشما هو ابن عبد منافه ، وأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف . فأمية هو ابن أخى هاشم ، وهاشم عمه . فمن هـذا يعرف ما بين الفرعين الكبيرين أو البطنين — كما هو التعبير اللغوى الدقيق من وثيق القربى ، فهما أبناء عمومة . وكانت هذه القربى جامعة بينهما ، ملحوظة ومراعاة فى الجاهلية ، فيما عدا أنه كانت توجد أحيانا منافسة بينهما . فالذى كان حاصلا بينهما هو منافسة فى سبيل الشرف ، كما توجد عادة بين فروع أسرة كبيرة ، لم تبلغ مبلغ العداء ولم تصل الى الحرب . وقد كتب كثيرا عن الخصومة بين البطنين وبولغ فيها ، حتى صور ما بينهما بحالة عداء مستحكم ، مقرون بعواطف الحقد والبغض والمرارة . وليس هذا صحيحا ، ولا يتفق مع واقع التاريخ ، وانما هو قراءة للتاريخ الماضى فى ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترتيب الزمنى ، وهو من الأخطاء المعروفة فى تصوير التاريخ . ويدل على خطأ هذه الصورة أن حرب

ابن أمية كان صديقا لعبد المطلب بن هاشم : كان ملازما له فى مجلسه وكان نديمه ، حتى حدثت بينهما جفوة صغيرة بسبب طارىء خارجى ، كتلك التى تحدث عادة بين الأصدقاء والأقارب . أما الصداقة بين أبى سفيان بن حرب والعباس ابن عبد المطلب فمشهورة ، استمرت فى الجاهلية والاسلام. وكان العباس هو الواسطة فى انقاذ حياة أبى سفيان واقناعه بالاسلام ، كما تثبت ذلك القصة التى ذكرها « ابن هشام » فى سيرته .

عبد مناف : الأصل

وتبين هذه القصة أن القرابة والصداقة ، والاجتماع فى أصل عبد مناف ، هى التى دعت العباس — عميد الهاشميين — أن يشعر بالعطف والرثاء لأبى سفيان — عميد الأمويين — فيسعى لانقاذ حياته ، ويأخذه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلب منه الأمان له . ثم يقنعه بالاسلام ، حتى اذا جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صباح اليوم التالى يسلم أبو سفيان بعد مناقشة بسيطة ، ويشهد شهادة الحق. وحينئذ يقول العباس لرسول الله : ان أبا سفيان

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، فيقول الرسول : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ! » .

فأين اذن هـذه العداوة المستحكمة بين بنى هاشم وبنى أمية ؟ . ثم ان بنى هاشم وبنى أمية وقفوا جميعا جنبا الى جنب فى حرب الفجار — التى أشرنا اليها وقاتلوا أعداءهم ، وقف بنو عبد المطلب بن هاشم الى جانب أبناء أمية بن عبد شمس ، حتى نالوا الظفر .

لكن الاسلام أتى بظروف وأحوال جديدة ، افترق فيها الفرعان من أجل العقيدة . ثم التأما ، ثم فرقت بينهما عوامل السياسة ، كما تفرق دائمـا وفى كل عصر ، بين الأحـزاب والأسر . لـكن الفـرعين لم ينسـيا أبدا .. بالرغم من الاختلاف — التقاء أصلهما فى عبد مناف . وكان الشعور بذلك عاملا حاسما فى كثير من المواقف السياسية .

وكان معاوية وهو خليفة يراعى دائما الصداقة التى كانت بين أبيه أبى سفيان والعباس : والد عبد الله بن عباس واخوته فكان يكرمهم ويجلهم ويجيب مطالبهم ، ولا يقبل وشاية فيهم . وكان يقول فى مجالسه : رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صفيين دون الناس . وأجابه ابن عباس — وكان يوما

حاضرا — فقـــال : رحم الله أبانا وأباك ، كانا صـفيين متقارضين : لم يكن لأبى من مال الا ما فضل أباك ، وكان أبوك كذلك لأبى » .

وفى أثناء الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، كان شعور عبد الله بن العباس بأنه وعبد الملك يجتمعان فى عبد مناف ، واذن فعبد الملك أقرب اليه من ابن الزبير — الذى كان ينتمى الى أسد بن عبد العزى — واذن فعبد الملك أولى بتأييده ومناصرته — كان هـذا الشعور من العوامل القوية التى جعلت ابن عباس يمتنع عن مبايعة ابن الزبـير ، لأنه بذلك يخرج الخـلافة من بنى عبد مناف الى بنى أسد بن عبد العزى . ولما اشتد عليه ابن الزبير واضطره الى أن يخرج الى الطائف من مكة ، أرسل ابن عباس ابنه « عليا » — وهو على بن عبد الله بن العباس — الى عبد الملك بالشام ، وقال اذ ذاك : « لأن يربنى بنـــو عمى أحب الىّ من أن يربنى رجـل من بنى أسد » — قال المؤرخ معلقا : « يعنى ببنى عمه : بنى أمية ، لأنهم جميعهم من ولد عبد مناف ، ويعنى برجل من بنى أسد : ابن الزبير ، فانه من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى » .

أما العداوة التى حصلت وسارت لها جذور ، فهى تلك التى وقعت بين على بن أبى طالب وبيته وبين بيت آل أبى سفيان . وذلك للاختلاف فى العقيدة ، والحروب التى وقعت فى صدر الاسلام ، وقتل من قتل فيها . ثم للاختلاف السياسى الذى حدث بين على ومعاوية بالذات حول الخلافة والولاية ، ثم بين ابنيهما . والخلاف السياسى نفسه سيفرق بين الهاشميين أنفسهم . سيفرق بين آل على بن أبى طالب وآل عبد الله بن العباس — وذلك فى عهد العباسيين وقيام دولتهم — وهما أقرب الناس بعضهم الى بعض ، فهم أهل بيت واحد جميعا من عبد المطلب بن هاشم . وهذا شأن السياسة .

* * *

أما مروان وابنه عبد الملك وأسرتهم فلم يشتركوا فى هذا الخلاف ، أو العداء الذى حصل بين آل على وآل أبى سفيان . فان مروان حين خرج الى البصرة عقب مقتل عثمان ، انما خرج ليطلب بدم عثمان — ابن عمه وعميد بيتهم — من أهل العراق . ثم بعد أن انتهت موقعة الجمل طلب الأمان من على ، فأعطاه له . وحينئذ بايع مروان على بن

أبى طالب بالخلافة وعاد الى المدينة فعاش فيها ، شبه معتزل السياسة . ولم يشترك فى الحرب التى وقعت بين على ومعاوية فى صفين ، ولم يخرج الى معاوية لمبايعته . وهذه حقيقة تلفت النظر . وحين صار واليا على المدينة — فى عهد معاوية — كانت العلاقة طيبة بينه وبين آل على ، حتى كان الحسن والحسين يصليان خلفه .

ولم تكن لمروان ولا لعبد الملك علاقة بمقتل الحسين ، فهما كانا بالمدينة ، وهذا الحادث حدث بالقرب من الكوفة ، وكانا فى ذلك الوقت معزولين عن الامارة والولاية بالمدينة ، فقد عزل مروان فى آخر عهد معاوية ، ولم يوله يزيد ولاية المدينة ولا غيرها . بل الأخبار التى وردت تبين أنهم استنكروا قتل الحسين ، وأشفقوا من نتائجه . وسنزيد هذا الأمر توضيحا فيما بعد . غير أن مروان ، وأولاده الذين تولوا بعده ، ورثوا جانبا من سوء العلاقة أو العداوة التى كانت موجودة بين آل على وأتباعهم وبين آل أبى سفيان ، لأن دولتهم كانت استمرارا للدولة السابقة ، وكانت الشام هى نفس مقرهم . فلذلك سيقف الشيعة منهم موقفا معاديا ، وتنشب بينهم الحروب — كما سيتضح فى فصل قادم .

عربي قرشي

بيّنا نسب عبد الملك بن مروان ، فهو من بني عبد مناف ومن بني أمية ، فهو قرشي من صفوة قريش ، لأن بني عبد مناف بن قصي هم صفوة قريش ، فقصي كان زعيم قريش وهو الذي أسس مجدهم وأقام دولتهم ، وهو اذن أيضا — أي عبد الملك — من أشرف معادن العرب ، لأن قريشا ، بلا جدال ، هي أشرف العرب ، وهم يقرون لها بالمجد ويعترفون لها بالزعامة ولا يقبلون الطاعة الا لها . فعبد الملك اذن — أو الخليفة الذي تولى الخلافة في دمشق ، في التاريخ الذي ذكرناه — عربي من صميم العرب وصفوتهم ومن أشرف أصولهم . اذ هو قرشي من أوسط قريش نسبا ، ينتمي الى قصي وعبد مناف وأمية وعبد شمس . واذن فهو — في شخصيته وصفاته ومواهبه وأعماله — يمثل نموذج العربي الأصيل ، حين يصير خليفة أو ملكا ، أو رجل سياسة ودولة .

وهو — من جهة نسب أمه — عربي قرشي ، أيضا . فأمه هي : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، ابن أمية . فنسبه من جهة أبيه وأمه معا ، ينتهي الى أبي العاص بن أمية . وكان يضرب بأمه عائشة المثل في الخصال الحميدة ، والصفات

الكريمة ، واليها يشير عبد الله بن قيس الرقيات فى قوله ، وهو يمدح عبد الملك :

أنت ابن عائشة التى	فضلت أروم نسائها
لم تلتفت للداتهـــا	ومضت على غلوائها
ولدت أغر مباركا	كالشمس وسط سمائها

الحـــــكم

هذا أبو العاص . وابنه (الحكَم) وهو أبو مروان ، وجد عبد الملك .

وكان الحكم من أشراف قريش ، الذين ناصبوا الاسلام العداء فى أول ظهوره . وكان معادلا لأبى سفيان . وتأخر اسلامه مثله ، فلم يسلم الا عند فتح مكة . فهو من مشيخة قريش ، الذين أسلموا يوم الفتح . ويومئذ أمر الرسول بابعاده الى الطائف . ولا يعرف السبب الذى من أجله أمر الرسول بابعاده على وجه التحديد ، فاختلف فيه . والاختلاف حول حقيقة السبب يدل على عدم معرفته . والذى يرجح فى ذلك أن رسول الله (ص) كان يحكم ببعض عقوبات على النفر الذين وقفوا موقف عداء للاسلام فى أول الأمر ، حتى يثبت صدق اسلامهم ، وصفاء سريرتهم . والأظهر أن الرسول عفا عنه ورده بعد قليل الى مكة ، كما يثبت ذلك ما جاء

فى خطاب لعثمان ، اذ قال : « وقالوا أنى رددت الحكم ، وقد سيره رسـول الله صلى الله عليـه وسلم . والحـكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرسول الله سيره ، ورسول الله رده . أكذلك هو ؟ » — فقال الناس : اللهم نعم . ويمكننا أن نستنتج أن عثمان — وهو ابن أخيه — شفع له .

وقد بقى الحكم مع أسرته فى بلده مكة ، حتى جاءت خلافة عثمان ، فحينئذ استدعاه عثمان ، وأحضره وأسرته الى المدينة . لأن عثمان كان معروفا بعطفه على ذوى قرباه ، وحبه لصلة الرحم . وكان يريد أن يجمع شـمل الأسرة ليشتركوا فى الأعمال العامة ، وليجدوا المجال ليكون لهم شأن فى الاسلام ، كما كان لهم فى الجاهلية . ولم يسمع عن الحكم خبر منذ اسلامه أو يؤخذ عليه ما ينقد ، فيظهر أنه قضى بقية حياته فى هدوء . فلم يزل منذئذ مع أسرته بالمدينة ، حتى توفى فى خلافة عثمان وصلى عليه عثمان . واذا أردنا أن نعرف صفة للحكم فقد وصفه عبد الله بن الزبير ، فى حديث له فيما بعد — مع شدة عداوته لآل مروان — فقد قال : « لا تسبوا الحكم . فقد كان الحكم رجلا وديعا » . فهذه احدى الصفات التى تلقى ضوءا على شخصيته .

مروان

على أنه اذا كان الحكم قد اختلفت حياته بين الجاهلية والاسلام ، فان ابنه « مروان » قد ولد بعد ظهور الاسلام : ولد حوالى العام الذى حدثت فيه الهجرة — قبله أو بعده بقليل — وكان بمكة مولده . فحين أسلم أبوه عام الفتح ، كانت سنه نحو الثامنة . فأسلم وعاش حياته فى الاسلام منذ ذلك الوقت ، فنشأ اذن من صغره نشأة اسلامية . ولا بد أنه رأى رسول الله ، وشهد جيش المسلمين يوم الفتح ، وكان لهذا أثره العميق فى نفسه وهو صغير ، ثم قضى مع أبيه فترة فى الطائف ثم عاد الى مكة . وكانت مكة قد أصبحت حصنا للاسلام ، وتحولت قريش كلها الى الدفاع عنه ، ثم توالت الفتوح ووقائع النصر فى عهدى أبى بكر وعمر ، فعاش مروان صدر شبابه وهو يرى دولة الاسلام فى أوج مجدها وقوتها ، وقد استولت على دول كسرى وقيصر . ويظهر أنه كان يزور المدينة ، لأنه رويت أنباء عن وجوده بها فى عهد عمر ، كما أنه روى بعض الحديث عن عمر .

وحين استدعاه ابن عمه عثمان للحضور الى المدينة مع أبيه وأسرته ، فانتقلوا اليها من مكة ليقيموا بها ، كانت سنه

— أى مروان — اذ ذاك فى نحو الخامسة والعشرين . لأن خلافة عثمان بدأت من عام ٢٤ هـ . وكان عثمان بالنسبة له — من حيث السن — بمثابة الأب ، كما كان له كالمربى والأستاذ . ولابد أن مروان كان ينظر الى عثمان على أنه مثله الأعلى ، فهو عميد أسرتهم الذى أكسب الأسرة شرفها فى الاسلام ، ولمكانة عثمان فى الاسلام وعلمه وتقواه ، ولتبوئه منصب الخلافة . فلابد أن مروان تتلمذ عليه ، أو نقول انه دخل فى مدرسة عثمان . وقد أتاح له وجوده بالمدينة أن يحصل على بغيته من العلم والتفقه فى الدين ، لأنه كان على مقربة من الصحابة والتابعين — ولا سيما زيد ابن ثابت الذى كان مستشار عثمان ورئيس ديوانه . كما أن وجوده بالمدينة أعطاه أيضا الفرصة ليطلع على شـئون الدولة ، ويفهم أحداث السياسة . وقد قربه عثمان وأنعم عليه هو وآله ، حيث كان معروفا عن عثمان عطفه عـلى ذوى قرباه وحبه لصلة الرحم ، وضمه لحاشيته فعينه أحد كتابه . ثم ما زال يرقى حتى صار بمثابة أمين سر دولته ورئيس ديوان رسائله .

ومنذ قدوم مروان الى المدينة فى عام ٢٤ هـ بقى بها وأسرته ، فلم يبرحها الا لرحلات موقوتة — وذلك حتى

سنة ٦٤ هـ : أى قضى فيها أربعين سنة من حياته ، فيعتبر اذن من أهل المدينة والحجاز . ثم أجبر فى ذاك العام الأخير على مغادرتها الى الشام — كما قدمنا من قبل ، وكما سنشير اليه بعد .

والأخبار التى وردت عن مروان تقول عنه : « انه كان من رجال قريش ، وكان من أقرأ الناس للقرآن » . وكان يحيى الليل بالصلاة . وتحدث مروان فقال : « لقد رأيتنى عند عمر فى فتية من قريش ، كلهم يقرب دونى . فما زال ايثارى الحق حتى كان يبعثنى فى مهم أمره » . وكان مروان يقول : « ما أخللت بالقرآن قط » . وقد أشرنا فيما تقدم الى أنه كان من المؤهلات التى رجحت كفة مروان ، وحملت الناس على انتخابه للخلافة ، أنهم جاءوه ليلا فوجدوه فى فسطاطه ساهرا والى جانبه مصباح ، والمصحف بين يديه وهو يقرأ القرآن » ! ولا بد أن هذا كله كان من آثار اقتدائه بعثمان — أستاذه — وعمر — رضى الله عنهما ، وغيرهما من الصحابة والتابعين .

* * *

وكان أهم حادث شهده مروان ، وهو لا يزال فى فتوته — حادث الفتنة أو الثورة على عثمان ، التى انتهت الى

حصاره فى داره ثم اغتياله ، وذلك فى أواخر عام ٣٥ هـ .
وقد كان بعض أسباب هذه الثورة يتعلق بمروان نفسه .
وكثير من التهم التى سيقت ليست ثابتة أو جوهرية . ويظهر أن مروان — وهو فى عنفوان شبابه — كان يقابل الناس بالشدة ، ويصادمهم ، فيزيد من ثائرة غضبهم . وخلاصة حكم التاريخ فى مقتل عثمان هو ما قاله على بن الحسين ، اذ قال : « والله ما قتل عثمان على وجه الحق ! » . وقد لخص ابن خلدون حادث الفتنة ، فقال : « ثم تجمع قوم من الغوغاء ، وجاءوا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان ، وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله .. وعزل لهم (أى عثمان) عامل مصر . فانصرفوا قليلا ، ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس ، يزعمون أنهم لقوه فى يد حامله الى عامل مصر بأن يقتلهم . وحلف عثمان على ذلك . فقالوا : مكنا من مروان ، فانه كاتبك . فحلف مروان . فقال عثمان : ليس فى الحكم أكثر من هذا . فحاصروه بداره ، ثم بيتوه على حين غفلة من الناس ، وقتلوه ! . وانفتح باب الفتنة » .

وقد دافع مروان دفاعا مجيدا عن عثمان ، فى يوم وقعة الدار عند محاصرته ، وقاتل قتالا شديدا ، ليصد المهاجمين الذين اقتحموا الدار . وقد خرج يومئذ لابسا درعه شاهرا

سيفه ، وهو ينادى الى المبارزة ويتمثل بهذا الشعر :

قد علمت ذات القرون الميل
والكف والأنامـــل الطفول
انى أروع أول الرعيـــل
بغارة مثـــل قطا الشـــلّيل

وما زال يقاتل ببسالة ، حتى أتى رجل فضربه من خلفه بالسيف على رقبته ، فخر صريعا مغشيا عليه ، وأراد آخرون أن يجهـــزوا عليه ، فحالت بينهم وبينه مربيته التى كانت أرضعته — وكانت دارها قريبة من المعركة — وقالت لهم : ان كنتم تريدون قتله فقد قتل ، وما تصنعون بأن تمثلوا بجثة ميت ؟ فتركوه . ثم حملته الى داخل الدار ، لتداويه حتى يبرأ . ونجح المدافعون فى ذلك اليوم فى اجلاء المهاجمين عن الدار ، ولكنهم بعد ذلك تسوروا الدار من دار ملاصقة ، واقترفوا جريمتهم !

وهذه المعركة أظهرت مروان فى دور الفروسية ، وبرهنت على شجاعته وقوة شكيمته ونبل وفائه .

* * *

ولما تولى معاوية الخلافة عينه واليا على المدينة ، وذلك فى سنة ٤٢ هـ . فلبث واليا حتى سنة ٤٨ هـ .

ويظهر أن مروان كان ناجحا فى ولايته موفقا فى حكمه ، لأننا لم نسمع عن حدوث فتنة فى عهده ، وعرفت عنه بعض الاصلاحات التى نفذها فى أثناء ولايته : فحرص على سلامة العملة ، وعاقب من يغشها بالزيف أو التقطيع . وضبط الموازين والمكاييل ، حتى لا يقع غبن فى البيع أو الشراء . ومن ذلك أنه توصل الى تحديد مقدار الصاع الشرعى ، بأن جمع الصيعان فعاير بينها حتى أخذ أعدلها ، فأمر أن يكال به . فقيل صاع مروان ، وهو نفسه صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أسلوبه فى الحكم أسلوبا شوريا ، فقد « كان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ، ويعمل بما يجمعون له عليه » . وهذه السنة الحسنة هى التى اتبعها حفيده الصالح عمر بن عبد العزيز ، حين جاء أيضا ليحكم المدينة فى أواخر القرن مقام جده .

العلاقة مع آل البيت

ولم يعينه يزيد فى ولاية ما طوال عهده . فحين حدثت مأساة الحسين كان مروان وعبد الملك بعيدين خارج الحكم والولاية ، وهما مقيمان بالمدينة . فلم تكن لهما آية علاقة

بهذه المأساة . وانما كان المسئول عنها عبيد الله بن زياد فى العراق ، ويزيد فى الشام . وكان والى المدينة اذ ذاك عمرو ابن سعيد بن العاص ، وهو الذى تولى اعلان الخبر لأهل المدينة . وكانت علاقة مروان وعبد الملك بعلى بن الحسين علاقة طيبة ، كانوا أصدقاء . فعندما أخرج أهل المدينـة بنى أمية ، قبيل موقعة الحرة ، أتى مروان على بن الحسين فكلمه ، وقال : يا أبا الحسن ان لى رحما . فأذن لى أن يكون حرمى مع حرمك . فرحب علىّ ، وآوى اليه ثقل مروان وحرمه — وكانت هى عائشة بنت عثمان بن عفان ، أم أبان بن مروان — فخرج على بن الحسين بحرمه وحرم مروان ، حتى آواهم بينبع ، وقيل الطائف . فشكرها له مروان . ولذلك فانه بعد انتهاء موقعة الحرة ، وانتصار جيش بنى أمية ، جاء مروان وعبد الملك ومعهما على بن الحسين ، يمشى الى مسلم بن عقبة القائد ، ليطلبا له الأمان منه . وكان مسلم فى نفس الوقت مأمورا من يزيد بأن يحسن معاملة على ، فأمّنه مسلم وأكرمه .

ولما ثار أهل المدينة ثورتهم هذه التى انتهت الى موقعة الحرة ، كانوا حاصروا بنى أمية جميعا ، وعددهم نحو ألف ، وعلى رأسهم مروان — حاصروهم فى دار مروان . ثم رأوا

أن يخرجوهم ، فأخرجوهم على أن يتوجهوا الى الشام ، بعد أن أخذوا عليهم شروطا . ولكن مروان وعبد الملك قابلا مسلم بن عقبة فى الطريق ، قادما بجيشه للدفاع عنهم ومقاتلة الثائرين بالمدينة . فعاد مروان معه . وهنا قصة حدثت بين القائد مسلم وبين عبد الملك ، سنذكرها بعد قليل . كانت هذه الموقعة فى أواخر سنة ٦٣ هـ . وبعد أن تم النصر ، استأنف مروان وأسرته حياتهم بالمدينة . ولكن مدة بقائهم لم تطل، فبعد شهرين ونصف شهر توفى يزيد ، وجاءهم الخبر بوفاته واضطراب الأمر بالشام ، ثم أعلن ابن الزبير الدعوة الى نفسه بالحجاز ، وأرسل الى نائبه أو واليه على المدينة يأمره باخراج بنى أمية من المدينة والحجاز ، الى الشام .

الهجرة إلى الشام

ففى هذا الوقت لم يجد مروان بدا من الهجرة ، فهاجر وأسرته نهائيا من المدينة الى الشام . وكان ذلك فى شهر ربيع الثانى ، من عام ٦٤ هـ . ويحدث الراوى عن هذه الهجرة التاريخية ، فيقول : « لم يزل مروان بالمدينة ، حتى كتب ابن الزبير — بعد موت يزيد وشخوص حصين بن نمير — أى رجوعه الى الشام ، الى ابن مطيع (نائبه فى المدينة) فى

تسيير بنى أمية ، فسيره وسيرهم . فورد الشام ومعـاوية ابن يزيد قد بويع . وكان مروان لما سيروا ، اكترى أبعرة (جمالا) ركبها وبنوه ، وأمر أن يحث به وبهم ، فقـال راجزه :

حرّم مروان عليهن النـوم

الا قليـلا ، وتلاهن القـوم

حتى يقلن أو يبتن بالدوْم

والدوم على مسيرة ليلتين من المدينة . وكان عبد الملك ابن مروان عليلا ، فقال للرسول الذى وكل بازعاجهم : قل لأبى خبيب (أى ابن الزبير) يصنع الله . وفى ذلك يقول الشـاعر أبو قطيفة ... وهو عمرو بن الوليـد بن عقبة الأموى -- وكان ممن سيروا الى الشام :

بكى أحُـدٌ لمـا تحمـل أهـله

فكيف بذى وجد من القوم آلف ! » .

خرج مروان وعبد الملك وآل بينهما فى رحلتهم هـذه مهاجرين ، وهم يظنون أنهم ذاهبون الى منفى : الى مغترب وعزلة . وكان مروان بالذات وقد بلغ من السن عتيا يفكر أنه ذاهب ليقضى الفترة الباقية من عمـره فى هدوء ، وما دروا حينئـذ -- كمـا كانت ستبين لهم الأيام -- أنهم ذاهبون ليخوضـوا معتركا سياسيا ، لم يشهدوه من قبـل . وأنهم

ذاهبون ليعطيهم أهل الشام الدولة والخلافة والملك . وأنهم ذاهبون ليسجلوا صفحات فى تاريخ العرب والاسلام ، ولتصنعوا تاريخا جديدا ! . فبعد ستة أشهر فقط من قدومهم ، بويع مروان بالخلافة ، وأجلس على عرش دمشق فى المكان الذى كان يجلس عليه معاوية الخليفة الكبير ، وابنه الخليفة الآخر . وقام مروان فى المدة الباقية له — وهى أقل من عام — بأعمال مجيدة ، ذكرناها فى الفصول السابقة : فانتصر فى موقعة حاسمة ، وفتح مصر ، وبعث جيوشا الى العراق والحجاز ، وضمن انتقال العرش لأولاده ، فعقد البيعة لهم . فكل شىء كان ممهدا لتولية عبد الملك . لقد كان آخر عام فى حياة مروان أهم عام فى حياته ، على الاطلاق .

* * *

ومن سيرة مروان هذه التى ذكرناها تتبين الصفات التى تميز شخصيته . فقد رأينا أنه نشأ نشأة اسلامية منذ صغره ، وكان أول ما شاهده مجد الدولة الاسلامية وسيادتها ، وتأثر بعمر فى صدر شبابه ، ثم تتلمذ على عثمان فى رجولته ، فنشأ تقيا قائما بواجباته ، عاملا بتعاليم القرآن وهو محب لتلاوته . كذلك تجلت شجاعته فى المواقف التى تحتاجها : كما فى مواقف الدفاع عن عثمان ، وقتال يوم الجمل ، وفى الموقعة

الأخيرة الكبيرة فى مرج راهط ، حيث قاد المعركة بنفسه وكان وسط الميدان يحرض القوم على القتال ويدفعهم الى التقدم . ولكنه فيما عدا أمثال هذه المواقف ، كانت طبيعته تميل الى المسالمة : كما رأينا من مصالحته لعلى ، وعدم بدئه أهل المدينة بالقتال يوم حاصروه ، وفى أثناء ولايته على المدينة . وكان مستقل الرأى فلم يندفع وراء العصبية — مثل سائر بنى أمية — فى العداء لآل علىّ ، بل كانت علاقته بهم طيبة .

ومن ناحية أخرى ، عرف مروان بالفصاحة والتأدب بالثقافة العربية : كما ظهر ذلك فى تمثله بالأشعار البليغة فى المواقف المناسبة ، وفى بعض العبارات التى أثرت عنه .

وأما من ناحية الادارة والسياسة ، فكان ناجحا فى ولايته على المدينة ، ونفذ بعض الاصلاحات . وكفى أنه اتبع أسلوبا شوريا أو ديمقراطيا ، فكان يجمع الصحابة ويستشيرهم ثم يعمل بما يتفقون عليه كما ذكرنا من قبل . وهذه خير سياسة . وقد جاء فى وصيته التى أوصى بها ابنه عبد العزيز بن مروان ، حينما ولاه ولاية مصر ما يأتى :

« يا بنىّ ، عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك . واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم . وأوقع الى كل

رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عونا لك على غيره ، وينقاد قومه اليك . وقد جعلت معك أخاك « بشرا » مؤنسا ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا . وما عليك يا بنى أن تكون أميرا بأقصى الأرض ؟ ! أليس ذلك أحسن من اغلاقك بابك وخمولك فى منزلك ؟ ! » .

كما أوصاه أيضا بتقوى الله فى السر والعلانية ، وبالبر بالفقراء ، وتنفيذ وعده اذا وعده ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد . وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمـور دولته . فتلهج الألسن بالدعاء له ، ويأمن الفتن والقلاقل .

فهذه الوصايا تشهد له بسمو حكمته ومعرفته بأصول السياسة . ويظهر أن عبد العـزيز اتبع نصائح أبيه اذ كان أميرا ناجحا على مصر لمدة عشرين سنة .

ومع أن خصوم مروان وبيتـه — وهم كثير فى عصره وما بعده — وبخاصـة الشيعة وأنصـار بنى العبـاس — وضعوا أحاديث وأخبارا مكذوبة ، ترمى الى الطعن فى مروان وأبيه وذريته — فان أحاديث مروان وعبـد الملك رويت فى كتب الحديث الصحيحة . وعد مروان فى الطبقة الأولى من التابعين ، وعبد الملك فى الطبقة الثانية ، واستشهد أئمة الاجتهاد بأعماله . وشهد لهما المؤرخون بالعدالة .

الفصل الرابع

عبد الملك وأسرته (٢)

اننا فى سيرة مروان هذه قد تتبعنا الى حد كبير سيرة عبد الملك . فان سيرة عبد الملك تشترك مع سيرة أبيه فى أربعين سنة وعام . وذلك منذ قدوم مروان وأسرته الى المدينة للاقامة فى عام ٢٤ هـ ، فى أول خلافة عثمان .

فانه فى تلك السنة التاريخية فى حياة الأسرة ، السنة التى بدأ فيها يلمع نجم الأسرة ، وكانت فاتحة الخير والمجد لهم — ولد « عبد الملك » لأبيه مروان ، كأنما كان قدومه بشير خير وسعد . فنحن نرجح أن مولده كان فى ذلك العام : ٢٤ هـ .

فقد رويت ثلاثة تقديرات لعمر عبد الملك ، ومنها نستنتج ثلاثة تقديرات لتاريخ مولده : فقد قيل انه عاش ستين سنة ، أو اثنتين وستين ، أو ثلاثا وستين . وثابت أن وفاته حدثت فى عام ٨٦ هـ - - ولا خلاف على ذلك — فهذا أمر واضح

مشهور . فاذن على التقدير الأول يكون تاريخ ميلاده سنة ٢٦ هـ ، وعلى الثانى عام ٢٤ هـ ، وعلى الثالث ٢٣ هـ . وهى — على العمـوم — تقديرات متقاربة . وأنا أرجح التاريخ الوسط . أولا ، لأنه متفق عليه أن مولده كان بالمدينة ، واذن فيستبعد التاريخ الأخير ، لأنه كان قبـل الانتقال الى المدينة . وثانيا لأن هذا التقدير : ٢٤ هـ هو الذى يتفق — أكثر من الآخرين — مع سير الأحداث فى حياته ، ولقرائن وأدلة أخرى لا داعى لتفصيلها هنا .

فى المدينـــــة

ولد عبد الملك اذن بالمدينة فى عام ٢٤ هـ ، فى شـــهر رمضان بالتحديد — كما ذكر هو فيما بعد . وكان هذا العام هو أول عام فى خلافة عثمان ، التى بدأت فى المحرم من ذاك العـــام .

وكان عبد الملك — وهو أول من سمى بهذا الاسم فى الاسلام — هو أول فرد من الأسرة يولد فى بيئة اسلامية كاملة ، من بيت شمله كله الاسلام ، من أب مسلم وأقارب مسلمين ، لم يدرك لحظة من الجاهلية . فكانت نشأته اذن منذ لحظة مولده نشأة اسلامية محضة . وقد ذكر هو عن

نفسه أنه « جمع » القرآن : أى حفظه كله . وكان ذلك فى رمضان أيضا — الشهر الذى لاحظ أنه لعب دورا فى حياته — وان كان لم يحدد العام ، فلابد أن ذلك كان فى سن مبكرة . كما أننا نوقن أنه لابد أن تلقى الثقافة العربية التى كان يتلقاها أمثاله من أبناء البيوتات الكريمة وأبناء قريش خاصة ، وظل يواصل التزود منها فى سنى عمره ، اذ يدل على ذلك ما بلغه من مستوى عال متفرد فى البلاغة ومعرفة الآداب العربية،كما يظهر فى خطبه ورسائله وأحاديثه، أما تربيته الدينية والخلقية فانه يعتبر أنه نشأ فى بيت عثمان الذى كان بمثابة عمه ، وكان عميد أسرتهم ، وأستاذ أبيه ، فكان عثمان أمامه هو المثل الأعلى الذى يحتذيه ، وكفى به مثالا نموذجيا فى التقوى والورع والحياء والعمل بأحكام الدين . كما كان أبوه قدوته أيضا اذ كان مروان من رجال الاسلام : من الصف الأول من التابعين . وقد رأينا كيف أنه كان يترسم خطى عمر وعثمان ، ويحيى الليل بالصلاة ، ويعمل بفضائل القرآن ، ويكثر من تلاوته . لذا لا غرو أن نسمع من شهادات معاصرى عبد الملك بن مروان والمؤرخين فيما بعد — وكلها مجمعة على ذلك — أن عبد الملك كان أيضا مثالا ممتازا فى العبادة والنسك ، طوال حياته فى المدينة ، كما سنذكر جانبا من هذه الأقوال بعد قليل .

ولما كبر عبد الملك وبدأ يدرك ما حوله كان أول ما أدركه — ولابد أنه كان له أثر عميق فى نفسه — أن عمه — ونعنى به عثمان — كان هو الخليفة الذى يحكم الدولة الاسلامية العظيمة كلها : « أمير المؤمنين » — كما يلقبه الناس ، وأن أباه « مروان » من كبار رجال الدولة وأقرب الناس للخليفة وهو أمين سره ورئيس ديوانه ، وأن بعض أقاربه يتولى ولايات خطيرة . وقد قربهم الخليفة وجمع حوله شمل الأسرة وشملهم بعطفه ورعايته ، فلا بد أن هذا كله كان يبعث فى نفسه شعور الزهو والفخر ، ويجعله يحس بالثقة فى نفسه والتفاؤل بمستقبله .

كما كان أول ما أدركه أيضا — وقد ازداد وعيه — أن رأى الدولة الاسلامية فى أوج المجد والقوة ، أعظم الدول جميعا بلا استثناء ، ويسمع الأنباء المدوية عن انتصاراتها الباهرة فى مختلف الميادين : فى شمال افريقية وفى بلاد فارس وفى أرمينية ، وفى البحر فى موقعة ذات الصوارى ، وغير ذلك من الأحداث التى وقعت فى خلافة عثمان ، فيكون أثر ذلك فى نفسه أن تجعله يؤمن بتفوق العرب والاسلام . ولما كان يعرف أن الاسلام هو الذى أوجد ذلك كله ، هو الذى خلق

الدولة وصنع هذه القوة وأقام النظام والخلافة ، فان ذلك كان يزيد ايمانه بالاسلام ويجعله يعتقد أن الاحتفاظ بالاسلام هو أساس كل شيء ، ويقوى اعتقاده فى الله ، اذ هو يشعر أن هذا كله وجد بسبب أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .

ولابد - وهو الفتى العربى الذكى - أنه كان يفكر ويطيل التأمل فى تاريخ الاسلام منذ ظهوره — وكان لا يزال حديث العهد - ويسأل أباه وعمه ومن حوله عن أحداثه وعن سيرة النبى العربى «محمد» - وهو قريب له يجمعه به أصل عبد مناف - الذى اختاره الله لاعلان هذه الرسالة والذى كانت جهوده لها الفضل فى اقامة الدولة ومعرفة الدين ، وبعث أمة العرب ، وبدء هذا التاريخ الرائع المجيد — يسأل ، فيجيبونه بما يثير دهشته ويزيد من اعجابه . وكان يتردد على المسجد بالمدينة للصلاة ، فيرى على مقربة منه قبر الرسول « محمد » ، وبجواره قبر أبى بكر وعمر ، فيجعل هذه الفكرة حاضرة لديه دائما ، ويجدد مشاعره بهذه المعانى كل يوم .

حادث عثمان وأثره

لكن الحادث الذى هز نفسه من أعماقهـا ، بل زلزل وجدانه ، وأثر فيه أكثر من سواه — كان هو حادث مقتل الخليفة « عثمان » ، بما تقدمه وما قارنه ولحقه من أحداث . فان مقتل عثمان كان بمثابة صدمة له ، جعلته يراجع فكرته عن الناس والدنيا ، وتركت آثارا فى نفسه لا تمحى . فانه اذا كان مصرع خليفة فاجعة بالنسبة للدولة والأمة ، فان مقتل الخليفة عثمان بالذات — بالنسبة له ولأسرته — كان فاجعة شخصية ، ومصيبة نزلت بأسرته وبيته . فقـد كان عثمان أباهم وعمهم وعميد أسرتهم ، وكان العدوان الذى وقع عدوانا على كيان الأسرة ، وشرفها ومركزها .

شهد عبد الملك هذا الحادث — الذى وقع فى آخر عام ٣٥ هـ — وكان فوق العاشرة من عمره ، بل كان جاوز الحادية عشرة ، فكان عنده اذن من قوة الادراك ما يجعله يفهم ما يدور حوله من أمور ، ويعرف أسبابها وما يترتب عليها . ولابد أنه ظل منذ هذا الوقت يستوضح خفاياها ، ويزداد تفهما لحقائقها . ومن هذا الحادث ، وما أثر فى وجدانه وما استنتج منه ، استنبط الدرس الذى آمن به ، ورسخ

فى ذهنه ورسب فى أعماق نفسه . كان هذا الدرس أو العبرة أنه اعتقد أن سبب هذا الذى حدث كله : سبب هذه الفاجعة أو الكارثة ، انما هو اللين الذى أخذ به عثمان ، سياسة اللين أو الضعف أمام المهاجمين والثائرين . فلو كان عثمان أخذ هؤلاء المشاغبين المعتدين بالقوة والحزم ، لقمعهم وصرعهم ، وقضى على الفتنة فى مهدها ، ولما تطورت الأمور الى هذا الحد ، الذى أدى الى مصرعه . اذن فالشدة والحزم هما عماد السياسة ، وهما اللذان يحفظان الدولة . ولذلك فاننا سنرى هذا الدرس هو الذى سيكون القاعدة التى يبنى عليها عبد الملك سياسته ، حينما تشاء الأقدار أن تئول اليه مسئولية الخلافة ، ويجلس فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه سلفه وعمه : الخليفة عثمان .

ولو كان عبد الملك لم يترك لنا أقوالا تبين رأيه ، لكان استنتاجنا هذا من ذاته موافقا للحقيقة . ولكن أثرت عن عبد الملك أقوال عبر فيها عن رأيه بوضوح ، وذلك فى حديث تاريخى جرى بينه وبين أحد معاصريه . فقد حدث أنه بينما كان عبد الملك فى الحج بمكة — وذلك بعدما تولى الخلافة — وهو جالس فى الحرم ، أن جرى حديث بينه وبين رجل من الأنصار ، اسمه ثعلبة بن مالك القرظى . ففى أثناء

هذا الحديث قال الرجل — وذلك بمناسبة خلاف حول حكم من أحكام العبادة — : « ليست سنة أحب الىّ من سنة عمر » — كأنه يلمح أنها تختلف عن سنة عثمان . فحينئذ قال عبد الملك ، رادا عليه : « رحم الله عمر . فعثمان كان أعلم بعمر . لو كان عمر فعل هذا لاتبعه عثمان ، وما كان أحد أتبع لعمر من عثمان . وما خالف عثمان عمر فى شىء من سيرته الا باللين . فان عثمان لان لهم حتى ركب . ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا ! »

ثم استمر يقول ليبرر سياسة الشدة ، التى يتبعها فى أثناء خلافته وفى عصره : « وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم ، يا ثعلبة ؟ ! . انى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس . ان ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة ، أغير على الناس فى بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن . فلا بد للوالى أن يسير فى كل زمان بما يصلحه ! » . وفى خطبة لعبد الملك أيضا ، حول هذا الوقت وهو فى الخلافة ، أشار الى الخليفة عثمان — وهو يتحدث عن نفسه ، فقال : « أيها الناس : لست بالخليفة المستضعف ! » — يعنى عثمان . فهكذا آمن

عبد الملك بأن سياسة الضعف أو اللين تؤدى الى الاطاحة بالدولة ، أو تعرضها للأخطار — على حين أن سياسة القوة والحزم تحفظ كيانها ، وتصون بقاءها . وكان هـذا هو الدرس الذى استخلصه من مقتل عثمان .

* * *

وشهد عبد الملك بعد مقتل عثمان اضطراب الأمور ، وبيعة على ، واختلاف الصحابة ، وخروج أبيه وبنى أمية الى مكة ، ثم الى البصرة حيث حدثت « موقعة الجمل » ، التى قاتل فيها أبوه وأصيب بجراح ، ثم عودة أبيه الى المدينة بعدما صالح عليا وبايعه . فقضت الأسرة منذئذ نحو خمس سنوات هادئة ، بعيدة عن التقلبات . وكانت خطة حكيمة من مروان أنه لم يشترك فى النزاع الذى دار بين على ومعاوية ، ولم يحضر صفين . وكفى نفسه وعائلته بذلك شرور الحرب والسياسة . وهكذا حتى عام ٤١ هـ .

فى عهد معاوية

ففى ذلك العام بدأ عهد جديد . وهذا هو العام الذى أسماه المؤرخون : عام الجماعة . وذلك لأن الفتنة فيه انتهت ، واستقر أمر الخلافة لمعاوية . فبدأ منذ ذلك الحين عهده .

وكان معنى ذلك أن أمويا آخر ، من نفس الأسرة ، وهو قريب لعثمان ومروان وعبد الملك ، قد جلس أيضا على عرش الخلافة ، فكان ذلك بشيرا بأن يعود حظ الأسرة ، وتشهد عهدا ثانيا من الرخاء والسيادة . لكن صلة معاوية بمروان وعبد الملك كانت أبعد درجة من صلة عثمان بهم ، لأن هذا من فرع وذاك من فرع — كما بيناه سابقا ، كما أن معاوية كان يخشى شيئا من المنافسة من جانب مروان . فاكتفى بأن عين مروان واليا على المدينة ، ثم على الحجاز . وكان فى هذا ارضاء كاف له . وذلك فى عام ٤٢ هـ .

وفى ذلك العام استؤنفت الفتوح ، واستعدت الدولة لغزو الروم . فجهزت سرية من المدينة تتوجه الى الشام ، لتشترك فى غزو الروم بالبحر . وعين عبد الملك رئيسا لهذه السريه — وكان فى بدء شبابه ، وعمره نحو الثامنة عشرة . فتوجه عبد الملك الى مقصده ، وركب البحر مساهما فى الحملة . وكانت هذه أول تجربة له فى الجهاد ، وتحدث عنها مرة فى أخريات أيامه ، فقال : انها من أرجى الأعمال التى يرجوها عند الله .

ولبث أبوه واليا على المدينة حتى سنة ٤٨ . وحدث أنه فى سنة ٤٥ هـ أدركت المنية زيد بن ثابت الصحابى الجليل

وكان رئيس ديوان المدينة اذ ذاك — فكتب مروان الى معاوية يستأذنه فى تعيين عبد الملك رئيسا لهذا الديوان . فأجاب معاوية بالموافقة ، وعين عبد الملك رئيسا للديوان ، فى مكان زيد الصحابى الجليل . وكانت هذه ثقة بعبد الملك واعترافا بجدارته . فظل على رئاسة هذا الديوان الى آخر مدة بقائه بالمدينة .

وهناك ما يدل على أن عبد الملك زار الشام ودمشق فى عهد خلافة معاوية ، غير مرة . ففى أثناء هذه الزيارات شاهد دولة معاوية وشواهد عظمتها ، وحضر بعض مجالس الخليفة وتعرف الى شخصيته ، ورأى العاصمة التاريخية التى أصبحت معقلا للعروبة والاسلام ، وما فيها من مظاهر الحضارة والعمران ، ورأى الجيوش تجهز لغزو بلاد الروم أو للفتوح فى المغرب أو فى المشرق ، والأساطيل تعبأ لفتح القسطنطينية ، أو الاستيلاء على بعض جزر البحر الأبيض ، وكانت سبقت له تجربة الاشتراك معها . وهكذا اكتسب كل هذه التجارب ، واختزن ما التقط من دروس فى عقله الباطن ، فكانت له ذخيرة قدر له أن ينتفع بها ، حينما شاءت ارادة الله أن تئول اليه هذه الدولة ، ويجلس هو فى نفس مكان معاوية الخليفة الكبير .

عبد الملك وموقعة الحرة

ولما جاء بعد معاوية ابنه يزيد ، وحدثت هذه الأحداث المؤسفة التى بيناها من قبل ، والتى هزت شعور المسلمين فى جميع أنحاء الدولة ، كان عبد الملك لا يزال مقيما بالمدينة . ولم يشترك فى أى من الأسباب التى أدت الى هذه الحوادث . ولكن أصابه وأسرته منها الضرر ، حين ثار أهل المدينة وحصروا بنى أمية فى دار مروان ، وأخرجوا من المدينة ليعودوا مع الجيش القادم ، وحدثت موقعة الحرة (آخر سنة ٦٣ هـ) . وتفيد بعض الأقوال التى أثرت عن عبد الملك أنه لم يكن راضيا عن سياسة يزيد وأفعاله ، فقد وصفه فى خطبة له — بعد أن تولى الخلافة — فقال عنه : انه « الخليفة المأفون » — والأفن هو ضعف الرأى وخطله . وحقا كاد يزيد أن يضيع الدولة ، التى بذل أبوه كل الجهود فى بناء صرحها .

تذكر الأخبار هنا اسم عبد الملك فى أثناء الحديث عن موقعة الحرة .

وخلاصة هذه القصة — كما ذكرتها بعض الروايات — أن أهل المدينة بعد أن حاصروا بنى أمية وهددوهم ، عادوا

فرأوا أن يكفوا عنهم وأخرجوهم من المدينة ، بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق : أن لا يظاهروا عليهم عدوا ولا يدلوه على عورة ، ولا يبغوهم غائلة . فأخرجوا من المدينة ، وساروا حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادى القرى قادما من الشام بجيشه . فدعا بعمرو بن عثمان أول الناس ، فقال له : خبرنى ما وراءك ، وأشر على . فقال لا أستطيع . قد أخذ علينا العهود والمواثيق ، أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا ، فانتهره وقال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ! . فخرج وأخبر أصحابه ، فقال مروان لابنه عبد الملك : أدخل قبلى لعله يجتزىء بك عنى . فدخل عبد الملك . فقال : هات ما عندك . فقال : « نعم . أرى أن تسير بمن معك ، فاذا انتهيت الى ذى نخلة نزلت ، فاستظل الناس فى ظله فأكلوا من ثمره . فاذا أصبحت من الغد ، مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة ، مشرقا . ثم تستقبل القوم ، فاذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس ، طلعت وراء ظهور أصحابك فلا تؤذيهم ، وتقع فى وجوههم فيؤذيهم حرها ، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالا ترونه أنتم من سلاحهم ، ما داموا مغربين . ثم قاتلهم ،

واستعن بالله عليهم » . فقال له مسلم : لله أبوك ، أى امرىء ولد ! .

ثم ان مروان دخل عليه فقال له : ايه . فقال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ؟ . قال : بلى ، وأى رجل عبد الملك ! — قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به . فقال مروان: اذا لقيت عبد الملك فقد لقيتنى .

ثم ارتحل مسلم ، وصار ينفذ ما أمر به عبد الملك . فكان سببا فى احرازه النصر فى الموقعة .

* * *

هذه هى القصة . ومفادها أن عبد الملك هو الذى وضع خطة الحرب لهذه الموقعة ، ونفذها « مسلم » قائد الجيش : الشيخ الكبير المريض .

فان صحت هذه القصة ، فانما تشهد لعبد الملك بما كان يتمتع به من مواهب الذكاء وسداد الرأى والخبرة حتى بالحرب ، وعلى تقدير أبيه والناس له ، حتى ان القائد الكبير يصغى لقوله وينفذ رأيه . كما أن عبد الملك لو كان فعل ذلك لم يكن ليلام ، لأنه وأهله وقومه معتدى عليهم ، اذ أن أهل المدينة حاصروهم وكادوا أن يقتلوهم ، وأخرجوهم من وطنهم وديارهم . فكان عليه أن يساعد الجيش الذى

جاء لمناصرتهم ، ومقاتلة الذين اعتدوا عليهم ، واعادتهم الى وطنهم .

ولكن هناك ملاحظات لابد من ابدائها . فهذه الرواية عن مصدر معين . ولكن هناك رواية أخرى للواقدى لم يذكر فيها هذه القصة ، وقال ان عبد الملك كان مجدورا : أى مريضا فى هذا الوقت وفى أثناء الرحلة . وكل ما ذكره أن مروان وعبد الملك لقيا مسلم بن عقبة فى الطريق فرجعا معه ، لكن عبد الملك تخلف فى مكان على بعد اثنى عشر ميلا من المدينة يسمى بذى خشب ، وذلك لمرضـه ، فلم يرجع مع أبيه الى المدينة لحضور الموقعة ، ولكنه كان متلهفا عـلى سماع خبر نتيجتها ، فأرسل رسولا لذلك ، فلما جاءه خبر نصر أهل الشام فرح بذلك كثيرا وشكر الله . فهل اذا كان مريضا بهذا المرض يدخل على مسلم ويحادثه الحديث السابق ؟ ثم هل خرج القائد الكبير من الشام على رأس جيش يبلغ عدده اثنى عشر ألف مقاتل ، دون أن يضع خطة يعرف بها كيف يقاتل أهل المدينة ، فيضطر الى أخذ الخطة من الطريق ؟ . وماذا كانت خبرة عبد الملك اذ ذاك بأساليب الحرب ، وهو لم يشهد من قبل موقعة كبيرة ، وكان جل اهتمامه فى هـذا الدور موجها الى مسائل الفقـه والدين

أو الكتابة والادارة ، أكثر من غـيرها ؟ . ثم كيف يجيز عبد الملك لنفسه — وهو الذى عرف بشدة تقواه وورعه فى هـذا الوقت — أن يخالف العهـود والمواثيق اذا كان أعطاها ؟ !

على كل حال — ومع ذلك . فان القصة لا تبدو أنها مستحيلة . ويمكن تصديقها وقبولها ما دامت جاءت عن طريق رواة غير متهمين ، ورويت نصوص الأقوال بصورة ترجح صدقها . وهى — كمـا قلنـا — تشهد لعبد الملك بسداد الرأى وقوة العقل ونفاذ الملاحظة ، ولكن على شرط أن تستبعد فكرة أنه كان حاضرا عند أخذ المواثيق ، وأنه أعطى عهودا على نفسه، بل يغلب أنه كان غائبا لمرضه . وحتى على فرض أنه ومن معه أعطوا عهودا ، فقد كانوا محاصرين وأعلنت عليهم الحرب ، وكانوا مجبرين على كل ما فاهوا به ، وهم يتعهدون لأعدائهم ضد مصلحتهم . فهل اذا لم يفوا بها يوجه اليهم اللوم ؟ على أننا مع ذلك نستبعد الفـكرة من أساسها ، لأنها لا تتفق مع ما عرف عن عبد الملك فى هذا الدور من حياته ، وأجمعت عليه الأخبار : من الورع والتقوى والانصراف الى العبادة والتفقه فى مسائل الدين ، حتى عد ناسك بنى أمية وعالمها — كما سنشرحه الآن .

سيرة عبد الملك فى المدينة

قضى عبد الملك أربعين عاما متوالية من حياته بالمدينة منـذ ولد فيها (٢٤ — ٦٤ هـ) فلم يبرحها الا لزيارات موقوتة . فهو مدنى اذن ، وينبغى أن يعتبر من أهل المدينة .

وكانت المدينة لا تزال عامرة بعدد غير قليل من الصحابة وعدد أكثر من التابعين ، فكانت لا تزال المركز الأول للثقافة الاسلامية ، والمصدر الأول للتأثير الروحى . واذا كانت قد فقدت كثيرا من أهميتها السياسية بعد انتقال العاصمة الى دمشق ، فانها مع ذلك لم تفقد أهميتها وقيادتها العلمية والروحية ، بل ان ذلك كان أدعى لأن تتفرغ لدراسة العلم وأداء رسالة الدين . فكانت الفرصة ميسرة اذن أمام عبد الملك — وقد أهله ذكاؤه واستعداده ونشأته لذلك — أن ينهل من هذا المورد السائغ الغزير . وقد أفاد عبد الملك من هذه الفرصة الماثلة خير افادة ، ونهل من هـذا المورد العذب ما شاء له جده أن ينهل ، وأكب على تحصيل العلم باجتهاد حتى نال من العلم بغيته ، وحتى وصل الى مستوى شهد له فيه بالتفرد والنبوغ ، وعد من رجال المدينة المعدودين .

وقد تأثر عبد الملك فى نفس الوقت بالجو الروحى الذى عاش فيه فى المدينة ، ولا سيما فى بيئته الخاصة : حيث كان يرى عثمان مثله الأعلى ، ثم أباه مروان ، ثم زيد بن ثابت الذى كان مستشار عثمان ، والذى قال عبد الملك عنه فيما بعد : « نعم المشير كان للاسلام » - - تأثر بهذا الجو ، حتى صار أيضا نموذجا فريدا من حيث العمل بأحكام الدين والتزام فضائله ، والعكوف على العبادة ، وشهد له أيضا بالنبوغ فى ميدان الخلق الكريم ، والاجتهاد فى العبادة .

واذا كانت أكثر الأقوال التى سنذكرها تشهد له بالتفوق فى هاتين الناحيتين : ناحية العلم الدينى والأخلاق الفاضلة ، فاننا نرى أيضا أنه حصل عى أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية ، كما تدل على ذلك خطبه فيما بعد ورسائله ، وقوته على نقد الشعر ، ومناقشاته فى مجالسه الأدبية مع العلماء والشعراء التى حفلت بها كتب الأدب والتاريخ . وقد جاءت بعض الأقوال شاهدة بذلك أيضا .

* * *

قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى عن رجاله من أهل المدينة قالوا :

قد حفظ عبد الملك عن عثمان ، وسمع من أبى هريرة ،

وأبى سعيد الخدرى ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهم من أصحاب رسول الله . وكان عابدا ناسكا قبل الخلافة .

وقال الذهبى --- مؤيدا هذا القول وزائدا عليه — : سمع عبد الملك من عثمان وأبى هريرة وأبى سعيد وأم سلمة وابن عمر ومعاوية .

وروى عنه (أى عن عبد الملك) عروة ، ورجاء بن حيوة ، والزهرى ، ويونس بن ميسرة ، واسماعيل بن عبيـد الله ، وطائفة .

وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقـه ولا أنسك ، ولا أقرأ لكتاب الله ، من عبد الملك بن مروان .

وقال مالك : سمعت يحيى بن سعيد يقول : من صلى فى المسجد ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه . كانوا اذا صلى الامام الظهر قاموا فصلوا الى العصر .

وروى البلاذرى وصاحب الفخرى أن عبد الملك كان يقال له : حمامة المسجد ، لعبادته ومداومته تلاوة القرآن .

وقال أبو الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك ابن مروان .

وقال الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزما ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا .

وسطر ابن خلدون حكمه على عبد الملك فقال :

« وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة . وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفعله ، وعدول ابن عباس وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز » .

وفى موضع آخر قال : « فقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك » .

وقال أيضا عن أبيه :

« وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين . وعدالتهم معروفة » .

ولما كانت هذه صفات عبد الملك فانه نال اعجاب من رأوه حتى فى حداثته ، وتنبأ له البعض بما يكون من مستقبله وأنه سيصل الى مراتب السيادة .

حدث سعيد بن العاص فقال : كنت عند معاوية وعنده عبد الملك ، فلما قام أتبعه بصره ، ثم قال : لله در هذا الفتى ، ما أعظم مروءته !

وهذا الحديث روى فى رواية أخرى بصورة أكمل : فقد روى محمد بن اسماعيل المدنى قال : جلس معاوية بن أبى سفيان ذات يوم ومعه سعيد بن العاص ، فمر بهما

وقال الشعبى : ما ذاكرت أحدا الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك بن مروان . فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه ، ولا شعرا الا وزادنى فيه . (والشعبى هو عالم العراق).

وقال هو أيضا :

« وفدت على عبد الملك فما أخذت فى حديث أرى أنه لم يسمعه الا سبقنى اليه . وربما غلطت فى الشىء وقد علمه فيتغافل عنى تكرما » .

وجاء أناس الى عبد الله بن عمر يشكون بعض ولاتهم — وعبد الملك يصلى الى سارية بالمسجد — فأشار ابن عمر اليه وقال : « لو وليهم عبد الملك هذا ما رضوا به » — يضرب به المثل فى الفضل والصلاح .

وقال الأصمعى : أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل : الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية .

وكان عبد الملك بن مروان يخطب ، فسمعه رجل أعرابى من البادية ، فسأله رجل من قريش : كيف ما تسمع ؟ فقال : لو كان كلام يؤتدم به لكان هذا .

وكان عبد الملك يوصى بنيه أن يحفظوا لغة العرب ، وقال :

انه لا يلى العرب الا من يحسن كلامهم .

عبد الملك بن مروان . فقال معاوية : ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته ! فقال سعيد بن العاص : يا أمير المؤمنين : ان هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالا ثلاثا : أخذ بحسن الحديث اذا حدّث ، وحسن الاستماع اذا حُدِّث ، وحسن البشر اذا لقى ، وخفة المئونة اذا خولف . وترك من القول ما يعتذر منه ، وترك مخالطة اللئام من الناس ، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته » .

وروى المدائنى أن عثمان — رضى الله عنه — رأى عبد الملك فضمه اليه ، وقال : رأيتنى أخذت برنسى فوضعته على رأسه . وقد ولده أبو العاص مرتين . ولئن خرجت منى اليه ما ذاك كبير .

وقالت أم الدرداء لعبد الملك : ما زلت أتخيل هذا الأمر فيك منذ رأيتك ! قال : وكيف ذاك ؟ قالت : ما رأيت أعلم منك محدثا ، ولا أحسن منك مستمعا .

ودخل عبد الملك وهو شاب على أبى هريرة — رضى الله عنه — فقال أبو هريرة : هذا يملك العرب .

* * *

فهذا هو « عبد الملك بن مروان » .

وقد بقى فى « المدينة » حتى بلغ أربعين سنة . ثم

اضطر هو وأسرته الى الهجرة الى الشام فى ربيع الآخر عام ٦٤ هـ عند حدوث الفتنة ، واضطراب الأمر بالشام ، وظهور عبد الله بن الزبير بمكة والحجاز ، وأمره باخراج بنى أمية من المدينة — كما سبق أن شرحنا كل ذلك . فوصل عبد الملك الى « دمشق » فى التاريخ المذكور ، رجلا ناضجا كامل الثقافة كثير التجارب ، ولم يكن يدرى ماذا يكون مصيره ومصير أسرته فى هذا المغترب . ولكن الله وحده كان يعلم أنه ، بعد ستة أشهر فقط ، سينعقد « مؤتمر الجابية » — الذى ذكرنا أمره فيما مضى — ويقرر بالاجماع انتخاب « مروان » أباه خليفة على المسلمين ، وتقوم بذلك دولة « آل مروان » بدمشق ، ويكون عبد الملك العضد الأيمن والوزير لأبيه فى أثناء خلافته ، فيعينه نائبا عنه فى دار الخلافة ، حينما خرج لفتح مصر ، ثم يعقد البيعة بالعهد له عند عودته ، فلا يلقى الا قبولا وموافقة من الناس وذوى الحل والعقد ، ثم يعينه أميرا على فلسطين ، ولو أنه لم يبق فى ذلك الا مدة قصيرة .

ثم لا تكاد تمضى عشرة أشهر فقط على قرار مؤتمر الجابية حتى يختار الله أباه الى جواره ، ويصبح عبد الملك فيجد نفسه خليفة الاسلام والمسلمين ، وصاحب الدولة فى

دمشق — وذلك بعد سنة فقط وبضعة أشهر من قيامه من المدينـة منفيـا ، يواجـه الصحـراء الفسيحـة ويواجه المجهول !

بنو أمية والإسلام

بقيت هنا مسألة لا بد أن نناقشها .

وهى أنه ، بعد أن تبينت لنا هذه الحقائق ، وتتبعنا سيرة هاتين الشخصيتين — وكل منهما صار بدوره خليفة فى الدولة الأموية — يتضح الفرق اذن جليا بين الحقيقة التاريخية لهذه الدولة وفكرة كثير من الناس عنها . فكثير من الناس يسيىء تقدير الدولة الأموية ، ويحمل عليها وينظر الى خلفائها ورجالها كأنهم لم يكونوا كثيرى الاهتمام بالدين وأن غاياتهم كانت دنيوية أو نفعية أو نحو ذلك ، وبذلك يغمط هذه الدولة حقها ، ويقلل من الدور الذى أدته لخدمة الدين والأمة الاسلامية .

لكنا قـد رأينا — كمـا أوضحت لنا الأدلة والأقوال التاريخية — أن سيرة مروان ، وهو مؤسس الفرع الأكبر من الدولة الأموية ، وسيرة ابنه عبد الملك .. تثبتان عكس ذلك . فقد ثبت أنهما كانا من التابعين ، وكان كل منهما مثالا

فى الفضل والصلاح ، فالأول وهو مروان كان يقتدى بعمر وعثمان ، « ولم يخل قط بأحكام القرآن » . والثانى وهو عبد الملك وصل الى أن صار نموذجا يحتذى فى الصلاح والتقوى وطلب العلم ، وبلغ من المكانة أن عد بين كبار فقهاء المدينة ، وقرن اسمه بأسماء سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، وغيرهما من أفذاذ علماء الصدر الأول .

وكذلك نشأ أولادهما الذين حكموا الدولة بعدهما نشأة فاضلة ، واتبعوا نفس النهج ، فكانوا من خيرة الخلفاء ، وحدثت فى عهودهم الفتوحات العظيمة . وهم : الوليد ابن عبد الملك ، وسليمان وهشام أخواه . ثم نجيبة بيت مروان ، وقمتهم فى التقوى والورع ، وهو عمر بن عبد العزيز ابن مروان . وحتى آخر خلفائهم وهو مروان بن محمد كان من أكفأ من تولوا حكم الدولة الاسلامية ، وكان قائدا قديرا ، ولكنه جاء فى ظروف غير مواتية . فلا نستثنى اذن الا يزيد الثانى وابنه الوليد ، وهما لم يحكما الدولة أكثر من خمسة أعوام ونصف عام ، من مجموع المدة التى حكم فيها بيت « آل مروان » ، وقدرها سبعة وستون عاما .

بل اذا رجعنا الى الفرع الأول ونعنى به معاوية بن ابى سفيان مؤسس الدولة الأموية كلها وابنه يزيد — فاننا

اذا نحينا سيرة يزيد جانبا — فماذا نجد من سيرة معاوية ؟ نجد أن معاوية كان من أجلاء الصحابة ، واختاره النبى عليه الصلاة والسلام ليكون من كتابه ، وروى عن الرسول مائة وثلاثة وستين حديثا ، وروى عنه من الصحابة ابن عباس وابن عمر والنعمان بن بشير ، وغيرهم . وشهد مع الرسول موقعة حنين . ولم يثبت عليه بعد أن أسلم الا ما يدل على حسن اسلامه ورعايته لأداء واجباته وتدينه . بيد أن الذى دعا فريقا من الناس أن يقفوا منه موقفا عدائيا هى مسألة خلافه مع على — رضى الله عنه — والشأن الكبير الذى جرى بينهما فى أثناء الفتنة . ولكن هذه كانت مسألة سياسية . وكان الموقف شديد التعقيد يحتوى على عوامل كثيرة . ولا يحتمل المقام أن نشرح هنا هذا الموضوع ، فنكتفى بايراد رأى ابن خلدون ، فقد قال : « وغاية الخلاف الذى بين الصحابة والتابعين أنه اختلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية ، وهذا حكمه » . ثم بعد أن بحث وجوه الخلاف وأدواره ، لخص حكمه الشامل ، فقال : « واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين » . فهذا هو حكم المؤرخ المنصف الذى لا تؤثر عليه العاطفة .

ونقطة أخرى تحتاج أيضا أن تجلى الحقيقة عنها . وهى

أن كثيرا من الناس حين ينظرون الى رجال الدولة الأموية يغلب أن يكون حكمهم متأثرا بفكرة أن بنى أمية دخلوا الاسلام متأخرين . لكن هذه النظرة غير اسلامية ، كما أنها لا تلم بكل الحقائق . فينبغى أن نذكر أولا أنه دخل فى الاسلام منذ بدء ظهوره عدد من بنى أميـــة . وفى كل دين وعقيدة لابد من سابقين ومتأخرين . وحين ظهر الاسلام كان فى كل أسرة من هؤلاء وهؤلاء ، حتى فى أسرة بنى هاشم . والأمثلة على وجود النوعين فى كل الأسر كثيرة ، لا داعى لايرادها .

وانما الذى يجب أن يقرر أن النظرة الاسلامية الى هذا الأمر أن نحكم بأنه متى دخل المرء فى الاسلام فقد أنهى الاسلام ما قبله ومحاه . فهذه هى النظرة التى علمنا اياها الرسول عليه السلام نفسه ، وهذا هو حكمه المعصوم الحق . فانه لما جاء « عمرو بن العاص » — وكان قبل من زعماء قريش — لما جاء يسلم قبيل فتح مكة ، وقال : « يا رسول الله انى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى » — قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : «يا عمرو ، بايع . فان الاسلام يجُبّ ما قبله » : أى يقطعه ويمحوه . ولذا لم يجد الرسول أى بأس فى أن يعينه — عقب اسلامه — أميرا

على جند المسلمين بأرض الشام ، وكان تحت امرته عدد من المهاجرين. ثم أسلم أيضا فى السنة السابعة خالد بن الوليد فأصبح بعد قليل سيف الله وسيف الاسلام . ثم أسلم أبو سفيان بن حرب حين جاء فى رفقة العباس بن عبد المطلب ، وأسلم ابنه معاوية . وأسلم أيضا الحكم بن أبى العاص أبو مروان . كما أسلم عند فتح مكة أكثر زعماء قريش . ثم دخل الناس فى دين الله أفواجا . وهكذا كان شأن الاسلام فى أول دعوته ، فهو دين جديد . ولا ينتظر أن يدخل الناس فى دين جديد دفعة واحدة .

ولم يبد الرسول — عليه الصلاة والسلام — حين أقبل هؤلاء على الاسلام الا أنه كان فرحا باسلامهم ، بل كان يقابلهم فاتحا ذراعيه معانقا لهم . فهو كان نبيا ، رسالته أن يدعو الناس الى الاسلام والهدى ، فلا يفرحه مثل نجاح دعوته وانتشارها . وكان — صلى الله عليه — فوق نزعات البشر من الحقد أو الرغبة فى الانتقام ، حتى بلغ من عفوه أن عفا عن « وحشى » قاتل عمه حمزه — حينما أسلم — وكان حمزة أحب الناس اليه ، ولم يحزن الرسول لموت أحد كما حزن عليه ! . ولما أسلم أبو سفيان أراد الرسول أن يكرمه ، فأمر أن ينادى فى الناس — كما أشرنا اليه من

قبل — أن « من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن » . وحسن اسلامه . فعقب ذلك خرج مع الرسول هو وابنه معاوية ، فشهدا مع الرسول وقعة « حنين » . ثم اختاره الرسول سفيرا الى ثقيف . كما اختار الرسول معاوية ليكون أحد كتابه ، فحظى بصحبة الرسول ، وتعلم منه كل ما قوى ايمانه وازداد هدى . وعندما فتحت مكة ولى الرسول عليها أحد أفراد بنى أمية وهو « عتـــاب بن أسيد بن أمية » — وكان ممن أسلموا يوم الفتح . فبقى فى ولايته بقية حياة الرسول ، ثم طوال عهد الخليفة أبى بكر .

ولما تولى الخلافة أبو بكر ، وفد اليه بنو أمية فى لهفة ليشتركوا مع اخوانهم فى الجهاد ليعوضوا ما فاتهم من نصر الاسلام واعلاء شأنه . فوجههم أبو بكر لحرب الروم فى الشام ، وعين يزيد بن أبى سفيان قائدا ، فاشتركوا فى موقعة « اليرموك » حتى حقق الله النصر للمسلمين . وبعد الفتح عين عمر « يزيدا » واليا على دمشق ، ثم عقب موته عين أخاه معاوية بدلا منه . كما ولاه أيضا على الأردن ، حيث عزل شرحبيل بن حسنة أحـــد كبار القواد ، فحين ذهب شرحبيل مغضبا الى عمر ، يقول : « أعن سخطة عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ » ، قال له عمر : « لا . انك لكما أحب .

ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل ! » . وقاد معاوية جنده فى فتح مدن سواحل الشام . ومعاوية هو مؤسس البحرية الاسلامية فى عهد عثمان ، واستولى على قبرص ، وأوغل فاتحا فى بلاد الروم حتى وصل الى « عمورية » . ولبث واليا على الشام نحو عشرين عاما ، وهو يدير ولايته بكفاية ، ومدافعا بقوة عن دولة الاسلام ضد الروم .

وهكذا صار معاوية من كبار رجال الاسلام ، وكتب بنو أمية هذه الصفحات فى تاريخ الجهاد . أما مروان فلم تتح له سنه أن يشترك فى هذه الحروب ، ولكنه لما بلغ دور الشباب توجه فى عهد الخليفة عثمان للجهاد فى بعض الفتوح . وكان هو بعد ذلك العضد الأيمن للخليفة فى ادارة شئون الدولة الاسلامية . ووجده ابنه عبد الملك فى هذا المنصب الهام حين نشأ ، فأخذ يساعده فى بعض الأعمال . فكانت هذه هى المكانة التى وصل اليها بنو أمية فى الاسلام ، حين حدثت الفتنة وقتل الخليفة عثمان ، وظهر الخلاف الذى أحاطت به ظروف قاسية ، فانقسمت الأمة ونشبت الحرب الأهلية — كما يحدث فى تواريخ كثير من الأمم . وأخيرا انتهى الموقف بأن بقى معاوية وتنازل له الحسن بن على ، فآلت اليه الخلافة . والتأمت كلمة الأمة فى عام الجماعة عام ٤١ هـ ،

وعادت الى الدولة وحدتها وقوتها . ومن ثم بدأ تاريخ الدولة الأموية .

وبعد كل ، من ذا كان معاوية ومروان وبنو أمية ؟ ألم يكونوا الا أبناء عمومة لعلى والحسن وبنى هاشم . وقد شرحنا في الفصل السابق ما كان بين الهاشميين والأمويين من علاقة ، وأنهم جميعا يلتقى نسبهم في عبد مناف ، فهم أبناء عبد مناف . وقد بينا -- فيما تقدم -- ما كان من صداقة بين حرب وعبد المطلب ، وبين أبى سفيان والعباس . واذا رجعنا الى التاريخ القديم ، فان الزعامة كانت أولا في الجاهلية على قريش لهاشم بن عبد مناف ، ثم انتقلت السيادة الى ابنه عبد المطلب ، وبقيت كذلك طوال حياته لكن بعد أن توفى . . وكان أولاده لا يزالون صغارا -- آلت الرياسة الى حرب بن أمية ، فنجد حرب بن أمية في حرب الفجار . التى أشرنا اليها . . هو قائد قريش ، ثم خلفه ابنه أبو سفيان . ثم جاء الاسلام ، وشرف الله بنى هاشم بالنبوة . . وهى الشرف الذى ما فوقه شرف . فكان مما منع بنى أمية من المبادرة الى قبول الاسلام الغيرة والأنفة والكبرياء ، وأيضا الخوف على مصالحهم .

ثم ظهرت دولة الاسلام ، وأراد الله لهم الخير ، فهداهم

الى الدخول فى دينه . فأسلموا ، وفرح الرسول باسلامهم . فحسن اسلامهم ، وأخلصوا فى الجهاد فى سبيله : أسلم فرع حرب ، وأسلم أيضا فرع أخيه أبى العاص . ومات أبو سفيان مسلما . وكذلك الحكم . وصـــار معاوية صحابيا ، ونشأ مروان تابعيا . وكان مولد عبد الملك ونشأته كلها اسلامية . وجاهدوا فى الاســلام : فى ميادين الحرب ، أو السياسة ، أو العلم ، أو العبادة ، حتى أدركوا السابقين ، وحققوا لهم مجدا فى الاسلام . فانتقلوا من شرف فى الجاهلية الى شرف فى الاسلام .

* * *

فهذه هى سيرة بنى أمية باجمال . ولما انتهت اليهم الدولة بذلوا كل الجهد لاعلاء شأنها ، وفى الدفاع عن الاســـلام وأهله ، وسهروا على حفظ وحدة الأمة — التى هى الأساس لبقائها وتقدمها — وكان هذا أمرا شاقا عسيرا لا يقدر عليه الا نوابغ الساسة والأقوياء من القـــادة . فأظهروا كفاية فى ذلك ، ونجحوا فى الجملة اذا استثنينا العدد القليل الذين استثنيناهم . وواصل خلفاء بنى أمية الفتوحات كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ، ورفعوا أعلام الاسلام فى كل الجهات ، حتى كادوا أن يستولوا على القسطنطينية . وبدأت

فى عهدهم النهضة العلمية والأدبية ، التى أزهرت وآتت ثمارها فى العصر العباسى بعدهم . ووضعوا القواعد لنظام الدولة التى ورثها من جاء بعدهم ، فأمكن اذن استمرار الدولة .

فهذا هو موقف الدولة الأموية من الاسلام . فهى جزء لا يتجزأ من تاريخه ، وتاريخها استمرار لمجد الاسلام . وهو فى الجملة مفخرة للاسلام . وهناك من استثنيناهم . وهناك طبعا للباقين أخطاؤهم ومآخذهم ، وهل كانوا معصومين ؟ .

أما مكانهم من العروبة : فكلهم من صميم العـــرب ، من صفوتهم ، وأرفع أنسابهم . فهم من قريش ، وذؤابة قريش عبد مناف . وهم أبناء عمومة بنى هاشم . فهم يمثلون مقدرة العرب وعبقريتهم : فى السياسة ، والدين والحرب ، والادارة والثقافة -- كما سيمثلهم أيضا بنو العباس من بنى هاشم . فالدولة الأموية جزء مجيد من تاريخ الاسلام والعرب معا . ونذكر قول الشاعر قيس بن الرقيات المعاصر لهم :

ما نقمـــوا من بنى أمية الا أنهم يحلمون ان غضـــبوا
وأنهم سادة الملوك ، فما تصـ ـلح الا عليهـــم العـــرب

وحيث كان « عبد الملك » من أحسن خلفائهم وأقواهم ، وكان له فضل كبير فى انقاذ الأمة من موقف خطير مضطرب

اذ تمكن من اعادة وحدتها وتشييد دولتها — فقد كان جديرا أن تدرس حياته . وقد تتبعنا سيرته وسيرة أسرته حتى تولى الخلافة . والآن نتابع هذه السيرة ، بعد أن آلت اليه مسئوليات الدولة ، لنرى كيف واجه المصاعب وتغلب عليها ، وكيف نجح فى قيادة السفينة حتى أوصلها الى شاطىء الأمـان .

الفصل الخامس

ثورة الشيعة بالعراق

ألم تكن دولة « آل مروان » تتألف — كما ذكرنا ذلك من قبل — عندما تولى « عبد الملك » الخلافة فى رمضان عام ٦٥ هـ ، الا من الشام ومصر فقط . أما بقية الوحدة الاسلامية العربية الشاملة التى كانت تكون دولة كبرى من قبل ، فكانت موزعة بين طوائف أو أحزاب مختلفة ، كل منها يكون دولة أو ما يشبهها . وقد أوضحنا فى الفصول الأولى من الكتاب الخطوط الرئيسية لهذه الصورة . ويلزم أن نعيد الآن الى الذاكرة هيئة هذا التقسيم :

فكانت هناك دولة ابن الزبير التى أقامها فى الحجاز ومركزها مكة — وذلك منذ وفاة يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . وكان العراق : البصرة والكوفة ، يدين له بالولاء ، وان كان ولاء ظاهريا لم يتخذ جذورا عميقة ، وكانت خراسان تعترف له بالولاء أيضا ، ولكنها كانت شبه

مستقلة تحت حكم متغلب عليها ، اسمه عبد الله بن خازم السلمى ، من قيس . وولى ابن الزبير عماله على المدينة والبصرة والكوفة والموصل ، وغيرها . وبدت دولته أخطر منافس للدولة الأموية بالشام .

غير أن هذه الدولة أصيبت أولا بضربة نافذة ، حينما هزم الضحاك بن قيس فى موقعة « مرج راهط » وقتل ومن معه — وكان يدعو الى ابن الزبير فى دمشق ويريد أن يحول الشام اليه — فقضى اذن على هذا الأمل.ثم تلتها ضربة أخرى ، حين خرج مروان ففتح مصر وضمها الى الشام . وأخذت دولة آل الزبير تناوش دولة الشام ، فوجه عبد الله أخاه « مصعبا » على رأس جيش ليغزو فلسطين ، فى آخر خلافة مروان ، فرده جيش من الشام على رأسه عمرو بن سعيد بن العاص ، فعاد أدراجه الى الحجاز . وعلى الفور ، أعد مروان جيشا قويا أمر عليه أحد قواده العرب واسمه « حبيش بن دلجة القينى » ووجهه الى الحجاز . فسار هذا الجيش الى مقصده فى أول خلافة عبد الملك ، فى رمضان سنة ٦٥ هـ . وسنرى ماذا سيكون من مصير هذا الجيش ، حينما يصل الى المدينة — فيما بعد . وهكذا بدأ عبد الملك عهده ، والحرب دائرة بينه وبين دولة ابن الزبير : بين الشام والحجاز .

وكانت هناك دولة ذات بأس للخوارج فى « الأهواز » — وهى اقليم من فارس الى الجنوب من البصرة — وهؤلاء هم الخوارج « الأزارقة » ، الذين تبعوا مذهب نافع بن الأزرق الحنفى — وكان زعيمهم وقائدهم — ولكنه قتل فى جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ ، فى قتال بينه وبين أهل البصرة . فولى الخوارج عليهم قائدا آخر ، اسمه « عبيد الله ابن بشير بن الماحوز » . لكن الخوارج كانوا يهددون العراق وابن الزبير ، ولم يكونوا يهددون عبد الملك مباشرة ، غير أنه سيضطر الى الالتقاء بهم ومواجهة قوتهم حينما يتمكن بعد بضع سنين من ضم العراق ، فتكون مسألتهم احدى المشاكل الكبرى فى دولته .

وفى شرق جزيرة العرب ، أو الخليج العربى ، تكونت دولة ثانية لخوارج على مذهب آخر . كان زعيمهم أولا يسمى : « أبا طالوت » ، ثم بايعوا لنجدة بن عطية الحنفى ، وهو الذى لبث عدة سنين ، واتسعت الدولة فى أيامه حتى شملت اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت ، وحتى اليمن . وسيكون عبد الملك مضطرا أيضا — فى المستقبل — لمحاربة هذه الدولة ، بعد أن يكون هو حاكم العراق — ويكون زعيم الخوارج عندئذ هو « أبو فديك » ، الذى سيخلف « نجدة » .

ثم كانت هناك دولة الشيعة فى العراق ، وهى لم تكن دولة بكامل الصورة ، ولكنها كانت قوة منظمة كبيرة يخشى بأسها ، أو حزبا له زعماؤه وقواده وجيشه ، وقد أمكن أن يكون دولة بالفعل ، فيما بعد ، ولو لوقت قصير . وكان مركز حركة الشيعة فى « الكوفة » ، التى استولوا فيها — عمليا — على الأمور ، وكانت لها فروع فى « البصرة » و « المدائن » وغيرهما . وكان على رأس هذه الحركة عدد من أبطال العرب وأشرافهم .

وقد نضيف الى هذه الصورة أيضا ، لتكمل أجزاؤها ، دولة صغيرة ، ولكن كان لها شأنها ولها أثرها . وهى دولة « زفر بن الحارث الكلابى » التى أوجدها فى مدينة « قرقيسياء » فى شمال الفرات على حدود الجزيرة . وكانت مدينة حصينة ذات قلعة وأبراج ، فأتى زفر بن الحارث واستولى عليها . وزفر هذا هو الذى كان أمير « قنسرين » فى شمال الشام ، وكان يؤيد الضحاك بن قيس وابن الزبير ، لأنه من قيس ، ثم فر بعد موقعة « مرج راهط » فأتى هذه المدينة وتحصن بها . وقد بقيت هذه القوة شوكة فى جنب دولة الشام ، وكانت عقبة لا يستهان بها فى طريق جيوش الشام الى العراق . وما زال زفر متمنعا وراء حصنه هذا

بجيشه من قيس ، فلم يمكن عبد الملك أن يتغلب عليه الا بعد عدة سنوات ، وكان ذلك بأن استنزله عن طريق الصلح . ولم يستطع عبد الملك أن يتوجه بقوته الكاملة الى العراق فى المستقبل ، لينازل خصمه الرئيسى وهو مصعب بن الزبير أخو عبد الله ، الا بعد أن زالت هذه العقبة من طريقه ، وكان ذلك بعد سبع سنوات من تحصن « زفر » بتلك المدينة .

هبوب العاصفة على دولة الشام

كان هذا هو الوضع السياسى ، وهذا توزيع القوى داخل الدولة العربية الاسلامية ، فى أول عهد دولة « آل مروان » ، وعندما حمل عبد الملك مسئوليات الخلافة . فمن أى جهة كان سينبعث الخطر ، أو من أى أفق كانت ستهب العاصفة على هذه الدولة التى تكونت حديثا فى الشام ؟ . ان الذى كان يتوقع أن يجيىء الخطر من ناحية دولة آل الزبير فى الحجاز أو فى العراق ، لأنها كانت الدولة الأكبر : الأوسع حدودا ، والأكثر عددا ، أو من الخوارج لو أمكن أن يوحدوا جهودهم مع ابن الزبير . لكن الخطر لم يأت من قبل هاته القوى . وانما هبت العاصفة الشديدة التى هزت الدولة فى أول عهدها من قبل الشيعة ، الذين

لم يكونوا دولة بعد : من مركزهم بالعراق . وبدأ هبوب العاصفة فى عهد مروان ، ثم استمر فى خلافة عبد الملك . ذلك لأن الشيعة كانوا أكثر الجماعات حماسا ، وكانوا أشد شعورا بالمرارة ، بل بالحنق على دولة بنى أمية ، اذ كانت عدوهم الأول ، وهى التى كان لها معهم تاريخ طويل منذ الخلاف بين على ومعاوية ، ثم ارتكبت تلك الجريمة التى لا تغتفر ، وهى قتل « الحسين » .

وقد أشرنا من قبل الى أن مقتل الحسين كان فاجعة ، أدمت قلوب المسلمين وهزت مشاعرهم فى كل الأنحاء ، وكان أثرها أعمق وأشد — بوجه أخص — فى نفوس الشيعة . فهم كانوا أنصار أبيه ، وكانوا يعقدون على الحسين آمالهم ليقيم دولتهم ، وبه ينتصرون على خصومهم . والى جانب شعورهم بالحزن كان هناك شعور بألم ممض من وخز الضمير وأسف وحسرة ، لأنهم تخاذلوا عن الحسين ولم يهبوا لنصرته ، بعد أن دعوه واستخرجوه من موطنه ، فكأنهم كانوا السبب فى قتله وفى كل ما حدث .

مقتل الحسين : من المسئول ؟

وحادث مقتل الحسين معروف . ويتلخص فى أن أهل الكوفة — بعد أن تولى يزيد بن معاوية الخلافة فى

سنة ٦٠ هـ . - بعثوا رسائل عديدة الى الحسين ، يدعونه الى القدوم اليهم ، ويستحثونه الى الاسراع فى ذلك ، حيث أخبروه أنهم مهدوا كل شيء لمبايعته ، وعند قدومه يهبون للاستيلاء على الكوفة . ولما كان الحسين قد امتنع عن مبايعة يزيد ، وتوجه الى مكة معتزلا ، وكان يعتقد أن يزيد غير كفء لتولى منصب خلافة المسلمين ، وليس له الحق فى ذلك ، اذ أن أهل البيت هم الأحق بخلافة الرسول ورعاية الأمة بعده - لما كان الأمر كذلك ، وجاءته هذه الدعوات - فقد رأى أن هذا هو نداء الواجب ، ويتعين عليه أن ينهض لتلبيته .

فعزم على التوجه الى الكوفة . ثم خرج الى الكوفة مع أهل بيته وعدد قليل من أنصاره . وفى الطريق - ولما سار غير بعيد من الكوفة - جاءته الأخبار بأن الأمور تغيرت فيها . فقد عين واليا عليها « عبيد الله بن زياد » ، وقدم اليها من البصرة ، واستطاع أن يقبض على مسلم بن عقيل : ابن عم الحسين ، الذى كان أرسله ليمهد له الأمر ، وقتله . وأعد جيشا وأرسله ليقاتل الحسين أو يأسره .

ولما تيقن الحسين من خذلان أهل العراق له ، عرض على قائد الجيش القادم وابن زياد عروضا ثلاثة ، كل منها

كان يقدم حلا عادلا منصفا للموقف، : فاما أن يتركوه يرجع الى مكة وبذلك تنتهى الأزمة ، واما أن يدعوه يذهب الى يزيد — وهو ابن عمه — فيضع يده فى يده ويفاوضه ، واما أن يترك يتوجه الى أحد ثغور المسلمين ليشترك معهم فى الجهاد . وكل حل من هذه كان عادلا ومعقولا . ولكن ابن زياد رفضها جميعا . وأصر على أن يسلم الحسين نفسه وينزل على حكمه ، أو يقاتلوه .

فهذا كان منتهى الجبرية والطغيان . وهو الغشم بعينه والخرق وسوء السياسة وعدم النظر للعواقب . فحتى اذا قال قائل : ان الحسين كان خارجا على الدولة ، وأن الدولة كان لها الحق أن تدافع عن نفسها — وهى وجهة نظر ترد عليها اعتراضات قوية كثيرة ، منها أن هناك حق الثورة على الدول الظالمة أو غير الشرعية — حتى اذا قيل ذلك ، فلم يكن هناك مبرر على الاطلاق ، أو داع من وجهة نظر الدولة نفسها ، لمقاتلة الحسين — وقد عرض عليهم أن يتخلى عن الأمر ويعود من حيث قدم ، أو يذهب الى وجه آخر — لكنه الطغيان والجهل . وكيف كان يعقل أو يتصور أن الحسين : ابن الامام على وابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام — ينزل على حكم ابن زياد ، وهو ابن مرجانة — كما

كان أهل البصرة يدعونه — وأبوه زياد بن سمية ، على ماهو معروف ؟ ! وأليس الحسين هو سبط « محمد » الرسول الذى أسس الدولة كلها ، التى أصبح لابن زياد وأبيه فيها شأن وصاروا يرتعون فيها ويمرحون ؟ !

ثم من كانوا يريدون أن يقاتلوا ؟ لم يكن مع الحسين الا سبعون أو ثمانون رجلا يدافعون عنه ، ومعه أهل بيته من نساء وأطفال صغار مما يدل على نيته السلمية ، على حين أن الجيش الذى يواجهه والذى أرسله ابن زياد بلغ خمسة آلاف ! فأى معركة غير متكافئة ! وأى معركة يظهر فيها الجبن والخسة والنذالة — وذلك من جانب جموع ابن زياد الكثيرة — مثل هذه المعركة !

لقد أظهر الحسين عليه السلام بطولة وشجاعة قلما سجل مثلها التاريخ . رفض أن يستسلم ، وقاتل ، على أن نتيجة المعركة كانت معروفة ، وأظهر استعداده للشهادة فى سبيل عقيدته ، واحتقاره لأمر الدنيا . وقتل — رحمه الله — شهيدا كريما يعجب به معاصروه ويثنى عليه الأجيال . وظل قدوة ومثالا عاليا لمن يجاهد فى سبيل ما يعتقد أنه الحق ومن يتحدى الظالمين وقوتهم . وقد استشهد به فيما بعد

مصعب بن الزبير حين ظل يقاتل فى عدد قليل رافضا الاستسلام ، فقال :

وان الألى بالطف من آل هاشم

تأسوا ، فسنوا للكرام التأسيا

والطف هو الموضع الذى قتل فيه الحسين ، قرب كربلاء . كذلك ضرب الذين دافعوا عن الحسين وقاتلوا معه أعلى المثل : فى الشجاعة والنبل والوفاء وقوة الايمان — فعليهم رحمة الله . فهذه المعركة أو الملحمة التى خلدت بطولة الحسين وأنصاره فى التاريخ ، كانت فى الواقع أشبه بمذبحة أو مجزرة — نظرا لتفوق جنود ابن زياد فى العدد والعدة ، فوق كل نسبة معقولة . وقد تجلت فيها من جانب أولئك الجنود — وآمريهم — روح الوحشية والغلظة ، والاستهتار بسفك الدم .

فالمسئولية الأولى والاثم الأكبر فى هذه المذبحة تقع على عاتق ابن زياد ، لأنه مدبر هذا الأمر كله وهو الذى رفض عروض الحسين . والتاريخ يستنكر كل ما فعله ، ويذمه أشد الذم ، ويدمغه بالبغى والطغيان . ويشترك معه فى المسئولية قائد جيشه الذى قبل أن يقوم بهذه المهمة الدنيئة ، وهو عمر بن سعد بن أبى وقاص . وبئس الخلف للسلف أو الابن

لأبيه . ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم فى غير ما رحمة ، وكان لهم مندوحة أن ينأوا عن ذلك ، أو ينضموا الى جانب الحسين ، كما فعل الحر بن يزيد التميمى القائد الأول الذى أرسله ابن زياد ، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه قد اعتدوا وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة ، فتحول الى معسكر الحسين، وقاتل معه حتى قتل شهيدا — رحمه الله وكان على رأس الجنود المذكورين الذين باءوا بالاثم من يدعى : « شمر بن ذى الجوشن » و « سنان بن أنس النخعى »وغيرهما من جفاة الأعراب القساة ، غلاظ الأكباد.

أما مسئولية يزيد فما هى وما قدرها ؟ . لو ثبت أنه كان أصدر أمره بقتل الحسين أو برفض العروض التى قدمها ، لكان هو المسئول الأول قبل أى شخص ، لأنه هو رئيس الدولة ، والخليفة . ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والمراجع التاريخية لا تذكر ما يدل على ذلك . بل الذى تذكره أنه حين علم بوقوع الحادث عبر عن عدم رضاه ثم تعددت تصريحاته باستنكار ما حدث ، ولوم ابن زياد على ما فعل .

فقد روى الطبرى وابن الأثير أنه لما جاء رسول ابن زياد الى يزيد يبشره بالخبر — رويا حينئذ ما يلى : « فدمعت عينا يزيد ، وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين . لعن الله ابن سمية ! أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله الحسين » — قالا : « ولم يصله » أى الرسول الذى جاء بالخبر — « بشىء » ! . وهذا التصريح يعبر عن حقيقة شعور يزيد . وكل تصريحاته أيدت ذلك . وقد أحسن استقبال بيت الحسين ، فلما رآهم قال : « قبح الله ابن مرجانة ! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا » . ولما أدخل النساء دار يزيد « لم تبق من آل معاوية وآل يزيد امرأة الا استقبلتهن تبكى وتنوح على الحسين . فأقاموا عليه المناحة ثلاثا . وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى الا دعا على بن الحسين اليه » . ثم أمر بأن يوصـــل أهل البيت بكل اكرام الى المدينة ،وظل يكرمهم ويبرهم بعد ذلك.

نعم ، فهذه الأقوال والأفعال تدل على أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين ، ولم يعلم بكل ما حدث الا بعد وقوعه . والمعقول أن ابن زياد فعل كل ذلك عن تصرفه وبرأيه ، لأن الأمور جرت فى بضعة أيام ، ولم يكن هنالك وقت لبعث الرسل الى الشام وعودتهم ، للاستشارة . والمتبع أن الوالى فى العراق أو الأقاليم النائية كان مفوضا ، وكان يتصرف مستقلا لبعد المسافة . فكان ابن زياد بالكوفة ويزيد فى دمشق . والذى يستنتج أن ابن زياد أراد أن يبرهن ليزيد

على شديد طاعته ، ويقدم له الدليل على تفانيه فى خدمته ، وبراعته فى حسم الموقف . ولكن خاب فأله ! فما كان يظن أنه فى الحقيقة انما يقضى على يزيد بهذا ، ويهدم دولته .

على أن كل هذا لا يبرىء يزيد من المسئولية . فما جدوى الندم وانلهار الأسف بعد حدوث الكارثة ؟ انه كان يجب على يزيد أن يصدر تعليمات واضحة الى نائبه ابن زياد ويحذره من أن يقدم فى تصرفه الى حد قتل الحسين . كان يجب أن يكون بعيد النظر ويتوقع هذا ويقدر العواقب ، لكنه لم يفعل وترك الأمور تسير الى أن انتهت بهذه الفاجعة . فهو يتحمل المسئولية على كل حال مع ابن زياد — باعتباره — أى الأول — هو رئيس الدولة المسئول عن كل شىء وعما يقع من نوابه . ولكنها ليست مسئولية الاشتراك فى الفعل أو الايعاز به ، ولكن مسئولية ضعف الرأى وقصر النظر وسوء السياسة . وهذا هوالذى عناه عبد الملك بن مروان ، حين تحدث — فى وقت بعد هذا — ووصف يزيد بأنه « الخليفة المأفون » . والأفن هو ضعف الرأى وخطله . ولا يظن بيزيد غير هذا فانه كان بينه وبين الحسين رحم ، وكان أبوه معاوية قد أوصاه عند موته ، فقال له : « وأما الحسين بن على فان له رحما ماسة وحقا عظيما ،

وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه . فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه » .

وقد أخذ يزيد يتبين سوء عواقب ما حدث . فروى أنه كان يقول ، وهو يذكر الحادث آسفا : « وما كان علىّ لو احتملت الأذى،وأنزلته معى فى دارى وحكّمته فيما يريد، وان كان علىّ فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى . . حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته . لعن الله ابن مرجانة . فانه أخرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل ، فلم يفعل . فأبى ذلك ورده عليه وقتله . فبغضنى بقتله الى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ! فبغضنى البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسينا . مالى ولابن مرجانة ! لعنه الله ! » . وغضب عليه : أى على ابن زياد .

فهذا هو ملخص الحكم فى القضية ، وهو أن المسئول الأول — المسئولية الحقيقية المباشرة — هو « عبيد الله بن زياد بن أبيه » الذى كان والى العراق فى ذلك الوقت . ولكن فعله حمل الدولة كلها مسئولية ما حدث ، وقطع ما بينها وبين

الناس من صلة ، وزرع لها فى قلوب الناس العداوة والبغضاء وأثار حــزنا لاعجا وثورة ملتهبة ، وحنقا على الدولة فى قلوب الشيعة خاصة .

الثـــــورة الأولى

« حركة التوابين »

فصلنا القول عن هذه المأساة لأنها ظلت الحقيقة الكبرى التى تسيطر على الموقف السياسى فى العراق ، لعدة سنوات بعد ذلك . وكان لها صداها الداوى فى الحجاز أيضا ، وسائر أنحاء العالم الاسلامى . لكن أثرها الأكبر والمباشر كان عند الشيعة .

وقد بينا من قبل أنه ... فوق شعورهم بالحزن العميق لقتل امامهم ومن معه من آل بيت على ـــ كان هناك شعور بالحسرة والندم ، لأنهم تخاذلوا وقعدوا عن نصرة الحسين ، بعدما دعوه اليهم وأخرجوه ، فكأنهم أسلموه الى أعدائه ، وكانوا السبب فى قتله . فشعروا بفداحة خطيئتهم ، ورأوا أنه لا يكفر عن سيئتهم ولا يحقق توبتهم الا أن يهبوا للطلب بدم الحسين والأخذ بثأره ، حتى يقتلوا من قتله أو يقتلوا هم فى سبيل ذلك . فاجتمع الشيعة ونظموا صفوفهم . وكان

شعارهم الذى يتنادون به : « يالثارات الحسين ! » .
فهؤلاء هم « التوابون » — كما عرفهم التاريخ — وهذه هى حركتهم . وقد انتخبوا لهم زعيما وقائدا يحاربون تحت لوائه سيدا جليلا من أبطال العرب كان من أنصار على ، هو « سليمان بن صرد الخزاعى » ، كما كان بجانبه بطل آخر من أشراف مضر هو « المسيب بن نجبة الفزارى » وآخرون من أمثالهما .

كان بعض هؤلاء الشيعة يرون أن الواجب أن يستولوا أولا على « الكوفة » ، ويأخذوا بثأر الحسين من قاتليه فى المصر نفسه . لكن سليمان لم يكن يرى هذا الرأى ، وأخبرهم بأن هذا انما يؤدى الى حرب أهلية ، فيجدون أنفسهم يحاربون أهليهم واخوانهم . وانما عدوهم الأول هو الذى قرر الحرب ، وعبأ الجيش وأرسله لقتال الحسين — وهو عبد الله بن زياد — ثم دولة بنى أمية بالشام ، التى كان ابن زياد يمثلها . فاذن يجب أن يوجهوا حربهم الى هؤلاء . وكان من نص كلام سليمان أن قال لهم : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم . ان الذى قتل صاحبكم وعبأ الجنود اليه ، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم ، فأمضى فيه حكمى — هذا الفاسق ابن الفاسق : ابن مرجانة : عبيد الله.

ابن زياد . فسيروا الى عدوكم على اسم الله . فان يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم فى عافية ، فتنظرون الى كل من شرك فى دم الحسين فتقاتلونه . وان تستشهدوا فانما قاتلتم المحلين . وما عند الله خير للأبرار والصديقين » .
فوافقوه جميعا على هذا الرأى . واتفقوا على أن يسيروا بجيشهم لقتال ابن زياد ومن معه من أهل الشام .

* * *

كان عبيد الله بن زياد قد وصل الى الشام — كما أوضحنا من قبل — واشترك فى المداولات السياسية ، وسعى جهده حتى قامت دولة بنى أمية ، ثانية، فى الشام . ولما كان أول آماله — أى ابن زياد — أو أعظم ما يهمه ، هو أن يتمكن من العودة الى العراق ليسترد ملكه ، فقد أعد هو ومروان جيشا كبيرا ليسير به لفتح العراق . وجه مروان هذا الجيش فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ . وعين عليه قائدا ابن زياد ، وأمره أن يسير أولا لاخضاع الجزيرة ، ثم بعد ذلك يتوجه جنوبا لفتح العراق . فسار الجيش ، ومعه نخبة أبطال أهل الشام وقوادهم . ورأى مروان — بعد أن انتهى من ذلك — أن يسير بجيش آخر أقل من الأول ، لأخذ مصر

حيث كاتبه أهلها . وترك وراءه فى دمشق ابنه عبد الملك ، نائبا عنه ليصرف شئون الخلافة .

بذا أصبحت الحرب مقررة بين أهل العراق وأهـــل الشـــام : بين قوة شعبية ليست دولة ، لا يخضعون لأمير أو خليفة ، ولكن ينادون باسم آل البيت عامة ، وبين دولة بنى أمية فى عهدها الجديد فى عهد مروان وعبد الملك . وهكذا — كما تحدثنا من قبل — كانت أول عاصفة هبت على دولة آل مروان ليست آتية من جهة آل الزبير ، أو من قبل الخـــوارج ، ولكن قادمة من جهة الشيعة . وستظل العاصفة فى هبوبها عامين آخرين .

* * *

هذه العاصفة أو الثورة كانت — كما شرحنا — بسبب مقتل الحسين . لكن مروان وابنه عبد الملك وآل بيتهما كانوا فى الحقيقة أبرياء من دم الحسين ، ولم تكن لهم أية علاقة بمسألته — كما أوضحنا ذلك قبلا — فقد كانوا بعيدين عنها ، معزولين عن الحكم مقيمين فى المدينة . وروى عنهم من الأقوال ما يدل على استنكارهم للحادث . وكانت علاقاتهم بعلى والحسن والحسين وعلى بن الحسين ودية وطيبة ، أو على الأقل محايدة . ولكن هكذا قدر لهم أن

يتحملوا ، من الوجهة السياسية ، تبعة النتائج التى ترتبت على الحادث . ذلك لأنهم ورثوا دولة بنى أمية فى عهدها السابق ، وورثوا معها أخطاءها ونتائج أعمالها . وكان مما ورثوا كراهية الناس للدولة ، بل حنقهم عليها — ولا سيما من الشيعة . فدولتهم كانت استمرارا للدولة الأموية ، ومقرها واحد ، وجيشها واحد بالشام . وكانت أقوى علاقة وأوضح مظهر يربط الدولة الجديدة بالدولة السابقة ، هو عبيد الله ابن زياد نفسه ، ووجوده فى دولة الشام وهو لا يزال من أكبر عمدها وأظهر أقطابها . فما دام موجودا ، فهو يثير الغضب ضد الدولة فى نفوس أهل العراق .

موقعة «عين الوردة»

وفى الموعد الذى حدده سليمان (وهو أول ربيع الثانى ٦٥ هـ) تجمع الشيعة وعسكروا بالنخيلة ظاهر الكوفة . ولما تهيأوا للسير ، قام فيهم سليمان خطيبا فقال لهم : « أيها الناس : من كان انما أخرجته ارادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه . ومن كان انما يريد الدنيا وحرثها ، فوالله ما نأتى فيئا نستفيئه ولا غنيمة نغنمها . وما معنا من ذهب ولا فضة ، وما هو الا سيوفنا فى عواتقنا ورماحنا فى أكفنا .. » .

فتنادى أصحابه من كل جانب : « انا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا . انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وفى اليوم الخامس من الشهر سـار سليمان بجيشه متوجها الى الجزيرة . وبدأوا أولا بالذهاب الى قبر الحسين ، فلما انتهوا اليه صاحوا صيحة واحدة وبكوا ، فما رئى يوم كان أكثر باكيا منه . وظلوا يقولون : « اللهم ارحم حسينا : الشهيد بن الشهيد ، المهدى بن المهدى . اللهم انا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم » . وأقاموا عنـده يوما وليلة ، ثم ودعوه واتجهوا الى غايتهم قاصدين الموصل والجزيرة . وساروا حتى أتوا «قرقيسياء » وهم على تعبئة . فلما علم بهم « زفر » خرج اليهم وأكرمهم ، وقدم اليهم كل ما يحتاجون اليه من مؤن . ثم أخبرهم بقدوم جيش الشام ، عليه عبيد الله بن زياد ، وفيه الحصين بن نمير وقواد الشام ، وقد جاءوا فى عدد كثير « مثل الشـوك والشجر » . وعرض عليهم أن ينضموا اليه ليقاتلوا معـا جيش الشام حينما يقدم عليهم . لكن سليمان أبى ذلك وخـرج بجيشه حتى انتهى الى موقع يقـال له : « عين الوردة » .

وفى ذلك المكان التقى الجيشان ، ودارت موقعة « عين الوردة » . وذلك فى الأسبوع الأخير من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وكان التوابون فدائيين — كما عرفنا — قد نذروا أنفسهم لله ، وخرجوا لا يرجون شيئا أفضل من الشهادة فى سبيل قضيتهم ، أو يأخذوا بثأر الحسين من قاتليه . وكانوا كلهم فرسانا أبطالا . فمع قلة عددهم وعدتهم ظلوا يقاتلون قتال الأبطال كأنهم فى ملحمة ، واستطاعوا أن يحققوا فى أول المعركة نصرا كبيرا .ولكن أهل الشام تكاثروا عليهم ، واستمر القتل فى الجانبين . واستمرت المعركة عدة أيام استشهد فيها « سليمان بن صرد » و « المسيب بن نجبة » ، وأكثر التوابين . وفى اليوم الأخير استطاع أحد قوادهم — وهو رفاعة بن شداد البجلى — أن ينسحب تحت ستار الظلام بمن بقى ، عائدا الى الكوفة .

انتصر جيش الشام ، ولكن بعد أن أثخن بالقتل والجراح ، وأصيب بخسارة عاقته عن التقدم لفتح العراق . لكن بقى ابن زياد حيا . ووردت أخبار الانتصار على « عبد الملك » فى دمشق — وكان نائب الخليفة ، وممثل الدولة التى كان جيشها يحارب — فقام يبشر الناس بالخبر وخطب خطبة سياسية ، ذكر فيها من قتل من زعماء الشيعة

ووصفهم بأنهم كانوا « دعاة فتنة ورءوس ضلالة » . وهذا طبيعى ، فهم كانوا خصومه السياسيين وكانوا يريدون هدم دولته .

والناظر الى أمر التوابين لا يملك الا أن يلاحظ أنه — مع الاعجاب ببطولتهم وفدائيتهم فى الآخر ، والنعى عليهم لتقاعدهم عن نصرة الحسين فى الأول — أنه من المستغرب أن يتركوا قتلة الحسين الحقيقيين — وهم أهل العراق — وراء ظهورهم فى الكوفة ، ويذهبوا لمقاتلة أهل الشام ، وهم أبرياء من دم الحسين — ما عدا رأس الضلال عبيد الله بن زياد — على أنه كان عندهم من قبل ، فلم يقتلوه. لكن وجهة النظر التى أخذوا بها أنهم اعتبروا الدولة نفسها هى المسئولة ، فيجب محاربتها .. وبخاصة ما دام فيها عبيد الله بن زياد .

الثورة الثانية

« حركة المختار »

ولما عاد رفاعة الى الكوفة بالفل الذى بقى معه من التوابين ، وصلته رسالة من زعيم شيعى آخر كان فى السجن اذ ذاك ، يقول فيها : « أما بعد ، فمرحبا بالعصبة الذين

عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى فعلهم حين قفلوا .
أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا رقى ربوة الا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا . ان « سليمان » قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء . ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون . انى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار . فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا .
أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، والى الطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، وجهاد المحلين .
والسلام » . فمن هو هذا الزعيم ؟

هذا هو « المختار بن أبى عبيد الثقفى » . وهو ابن أبى عبيد أحد قواد المسلمين فى عهد عمر فى فتح بلاد الفرس .
وكان المختار من زعماء الشيعة بالكوفة واشترك فى دعوة الحسين ، فقبض عليه ابن زياد وزج به فى السجن . ثم أطلق سراحه على أن يرحل من الكوفة ، فقدم الى مكة وبقى حتى اشترك مع عبد الله بن الزبير فى الدفاع عنها وقتال جيش الشام . وقد سجل بطولة فى هذه المعارك . وكان فى أثناء مقامه بمكة على اتصال بمحمد بن على (وهو المعروف بابن

الحنفية) — وكان هذا قد صار امام الشيعة بعد مقتل أخيه الحسين . وعزم المختار على أن يقوم بالدعوة الى محمد هذا وآل البيت ، ويخرج ليطالب بدم الحسين . وأراد أن يتحالف مع ابن الزبير ليستعين بقوته ونفوذه فى العراق ، ولكن ابن الزبير كان لا يريد أن يخدم قضية غيره .

فبعد موت يزيد وهرب ابن زياد ، عزم المختار على العودة الى الكوفة . وكان يسأل الناس عن أحوال أهل العراق ، فسأل أحد القادمين : كيف حالهم ؟ فقال له : « هم كغنم ضل راعيها » ! فقال المختار : « أنا الذى أحسن رعايتها وأبلغ نهايتها » . فقدم المختار الى الكوفة فى منتصف رمضان عام ٦٤ هـ . وخطب الناس فقال لهم : « ان المهدى ابن الوصى — محمد بن على — بعثنى اليكم أمينا ووزيرا ، ومنتخبا وأميرا . وأمرنى بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء » . فانضم اليه عدد كبير من الشيعة وهم الذين كانوا تخلفوا عن سليمان . وبعد أن خرج سليمان بجيشه فى وجهته التى ذكرناها الى الجزيرة فى خلال عام ٦٥ ، خلا الجو للمختار ففكر فى بدء اعلان الثورة بالكوفة . ولكن علم بأمره الوالى من قبل ابن الزبير ، فسجنه . وكان الناس يزورونه فى السجن فيقول لهم :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار والمهــامه والقفار ، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ومهند بتار ، فى جموع من الأنصار .. حتى اذا أقمت عمود الدين ورأبت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت اذا أتى ! » . ثم شفع فيه صهره عبد الله بن عمر فأفرج عنه .

بعد خروج المختار من السجن وعودة « التوابين » ، اجتمعت اليه كل الشيعة . وجد هو فى اعداد الجند والسلاح ليبدأ ثورته فى الكوفة . وكان أهم ما قوى مركزه أنه نجح فى ضم أحد الزعماء الى صفه وهو « ابراهيم بن الأشتر » — وهو رئيس عشيرة ذات عز وعدد، وبطل مغوار فى ميادين الوغى — وهو ابن مالك الأشتر الذى كان فى مقدمة أصحاب على . لكن ابراهيم لم يبايعه الا بعد أن سلم اليه المختــار كتابا على لسان محمد بن على يدعوه فيه الى اجابة المختار ، ويعده اذا نصر الدعوة بأن « تكون له أعنة الخيل وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهر عليه ، فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام » .

وأخيرا ، اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ويبدأ ثورتهم فى

ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول وذلك سنة ٦٦ هـ : (أى فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان) . ففى تلك الليلة خرجوا . وبعد موقعة عنيفة ذات تقلبات ومفاجآت وكان جنده ينادون بشعارهم : « يالثارات الحسين ! » - تم النصر للمختار على عامل ابن الزبير الذى نفى بعد ذلك ، واستولى المختار على الكوفة . فبذلك أقام دولة للشيعة . وكانت دولة جديدة ، تضم الى الدول الأخرى المتنازعة فى العالم العربى الاسلامى . ودعا المختار الناس الى البيعة ، فأقبلوا يبايعونه . وكانت صيغة البيعة : « نبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ! » . ولما كانت الكوفة عاصمة العراق فكان معنى ذلك أن المختار والشيعة قد استولوا على العراق - ما عدا البصرة - فأرسل عماله اذن على النواحى : على الموصل وأرمينية وأذربيجان والمدائن ، وجهات السواد ، أى : العراق .

مصرع قتلة الحسين

نجح المختار فى اقامة الدولة ، وبقى تحقيق غايته . وما غايته الا أن يأخذ بثأر الحسين وينتقم من قاتليه ، ويشفى

صدور شيعة آهل البيت . وكبير قاتلى الحسين وآله هو عبيد الله بن زياد . ثم يليه من نفذ أوامره واشترك فى قتل الحسين ، وهم كثير من أهل الكوفة . فما ان استقر له الأمر ، حتى شرع يعد الجيش ليرسله لمقاتلة ابن زياد وأهل الشام . وفى هذه الأثناء يتحين الفرصة أو الوقت المناسب ، لينقض على قتلة الحسين بالكوفة .

وكان عبد الملك ، وهو الخليفة فى دمشق — ومعه ابن زياد يشير عليه ويحرضه — قد عزما على فتح العراق فى ذلك الوقت .

فأرسل عبد الملك جيشا كبيرا تحت قيادة عبيد الله بن زياد ، لهذا الغرض . وكم كان ابن زياد يتوق ويتحرق شوقا للعودة الى العراق . كذلك كانت دولة الشام تعلق أهمية كبيرة على المعركة القادمة ، وتنظر اليها على أنها ستكون موقعة حاسمة . فوصل الجيش — وعلى رأسه ابن زياد — الى أرض الموصل . فتخلى له عامل المختار على الموصل عن المدينة ، وانسحب الى تكريت . فاحتل ابن زياد الموصل ، وأخذ يستعد للزحف جنوبا .

فلما بلغت الأنباء المختار ، انتدب أحد كبار قواده وهو يزيد بن أنس الأسدى — وانتخبوا ثلاثة آلاف من خيار

الفرسان ، وتوجه الجيش لمقاتلة ابن زياد . فلما وصل الخبر ابن زياد ،قال : لأبعثن الى كل ألف ألفين. فأرسل قائدين كبيرين من قواده ، مع كل منهمــا ثلاثة آلاف . ودارت الموقعة قرب الموصل ، فى يوم عرفه سنة ٦٦ هـ والأضحى بعده ، واشتد القتال . وانجلت المعركة عن قتل قائدى ابن زياد ، وانهزام أهل الشام ، وحوى جنود المختار من الشيعة عسكرهم ، وقتلوا فى أهل الشام قتلا ذريعا .

فبعد أن استقر الأمر للمختار فى العراق نادى مناديه : « من أغلق بابه فهو آمن ، الا من شرك فى دماء آل محمد صلى الله عليه وسلم » . وأحضر اليه بعض الأسرى ، فقال : انظروا من شهد منهم قتل الحسين فأعلمونى . فقتل كل من شهد قتل الحسين . وتجرد المختار لكل من شرك فى دم آل البيت ، وقال : « ما من ديننا ترك قتلة الحسين أحياء فى الدنيا آمنين . بئس ناصر محمد أنا اذن فى الدنيا . أنا اذن الكذاب — كما أسمونى . وانى أستعين بالله عليهم . فسموهم لى ثم اتبعوهم حتى تفنوهم . فانى لا يسوغ لى الطعام ولا الشراب حتى أطهر الأرض منهم » !

وهكذا أخذوا يتتبعون قتلة الحسين . وكان لكل منهم قصــة :

فأما عمرو بن الحجاج الزبيدى — وكان ممن شهد قتل الحسين — فركب راحلته وذهب فى طريق الصحراء ، فلم يسمع عنه خبر بعد ذلك .

وأما شمر بن ذى الجوشن — وكان أول من حمل على الحسين وحرض الناس عليه حتى قتل — فهرب . فأتبعه المختار غلاما له ، فاستدرجه شمر وقتله . فطارده رجال المختار بالخيول ، حتى أدركوه مختبئا فى قرية ، فقاتلهم فقتلوه . ثم رموا جثته للكلاب .

وبعث المختار فأحضر رجلين من قتلة الحسين كانا مختفيين فى القادسية - - هما مالك بن نسير البدى وعبد الله بن أسيد الجهنى — فلما رآهما قال : يا أعداء الله ورسوله ، أين الحسين بن على ؟ أدوا الىّ الحسين . قتلتم من أمرتم بالصلاة عليهم . فقالوا : رحمك الله بعثنا كارهين ، فامنن علينا واستبقنا . فقال لهم : هلا مننتم على الحسين : ابن بنت نبيكم ، فاستبقيتموه وسقيتموه . فأمر بهم فقتلوا . وجيىء بنفر غيرهم ، فلما رآهم قال : يا قتلة الصالحين ، وقتلة سيد شباب أهل الجنة ، قد أقاد الله منكم اليوم . لقد جاءكم الورس فى يوم نحس (وكانوا نهبوا من ورس كان مع الحسين) . وأمر بهم فأخرجوا الى السوق وضربت رقابهم .

وهكذا ظل المختار يتتبع قتلة الحسين حتى استأصل أكثرهم — وكان على رأس من قتل عمر بن سعد الذى كان قائد الجيش الذى أرسله ابن زياد لقتال الحسين - وبعد أن أتم مهمته كتب الى محمد بن على بمكة يهنئه ، ويقول له : « الحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم » . وكان المختار كأنما أرسله الله ليأخذ بثأر الحسين ، ومن قتل معه . وكان هو يشعر كأنه ملهم أن يفعل ذلك ، وتنبأ به . ومكنه الله من ذلك حتى نفذ غايته ، وجاءت الأحداث مصدقة لما تنبأ به .

لكن بقى رأس الاثم كله ، وهو كبير قاتلى الحسين — وهو عبيد الله بن زياد — فماذا سيكون شأنه ؟ . هذا ما سيتبين الآن .

معركة فاصلة ومصرع ابن زياد

ما كاد المختار يفرغ من أمر ثورة الكوفة ، حتى أرسل قائده ابراهيم بن الأشتر — ثانية — مع جيشه الى الشمال ، لملاقاة ابن زياد الذى وصل الى أرض الموصل ، ومقاتلته . فخرج ابراهيم بسبعة آلاف . وفى الطريق ضم اليه الجيش الذى كان مع يزيد الأسدى ، فأصبح جيشه حوالى عشرة

آلاف . وكان عدد جيش ابن زياد أكبر من ذلك بكثير . وأسرع ابراهيم السير ، وخلّف وراءه أرض العراق وأوغل فى أرض الموصل ، حتى بلغ نهر « الخازر » من فروع دجلة . وأقبل ابن زياد ، حتى نزل قريبا منهم على شاطىء هـذا النهر . ولم يضيع ابراهيم وقتا فى المطاولة ، فعزم على المبادرة الى الهجوم .

وفى يوم الموقعة ، عبأ ابراهيم جيشه منذ الفجر ، ووضع الأمراء فى مواضعهم ، ودعا بفرس له فركبه ، ثم مر على أصحاب الرايات كلها ، فكلما مر على راية وقف عليها ، ثم قال :

« يا أنصار الدين ، وشيعة الحق ، وشرطة الله . هذا عبيد الله بن مرجانة : قاتل الحسين بن على ، ابن فاطمة بنت رسول الله — الذى حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون اليه ، ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف الى رحله وأهله ، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة ، حتى قتله وقتل أهل بيته . فوالله ما عمل فرعون بنجباء بنى اسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا — قد جاءكم

الله به وجاءه بكم . فوالله انى لأرجو أن لا يكون الله جمع بينكم فى هذا الموطن وبينه الا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم . فقد علم الله أنكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم » . وهكذا سار فى الناس كلهم فى الميمنة والميسرة ، فرغبهم فى الجهاد وحرضهم على القتال . ثم رجع حتى نزل تحت رايته . وأمر الناس بالزحف .

فتقدم اليهم جيش ابن زياد ، وكان معه من كبار القواد الحصين بن نمير السكونى وقد جعله على ميمنته ، وعمير بن الحباب السلمى وقد جعله على ميسرته ، وشرحبيل بن ذى الكلاع الحميرى وقد جعله قائد الخيل . والتحم الجيشان . ودارت الموقعة بالقرب من نهر الخازر وهى من المواقع الهامة الحاسمة فى التاريخ . ففى بدء القتال انتصر الحصين ، وهزم ميسرة ابراهيم . فأخذ الراية أحد أبطال جيش العراق ، واستقبل المنهزمين وقال لهم : الىّ يا شرطة الله . فأقبل اليه أكثرهم . فقال : هذا أميركم — يعنى ابن الأشتر — يقاتل ابن زياد ارجعوا بنا اليه . فرجعوا . واذا ابراهيم كاشف رأسه ينادى : الىّ شرطة الله ، أنا ابن الأشتر . ان خير فراركم كراركم . ليس مسيئا من أعتب . فرجع اليه أصحابه . ثم حملت ميمنة ابراهيم على ميسرة

ابن زياد ، فلم تستطع التقدم . فحمل ابراهيم على القلب وقال اقصدوا هذا السواد الأعظم ، فوالله لئن هزمناه لا نجفل من ترون — يمنة ويسرة — انجفال طير ذعرت . فحملوا عليهم وحمى القتال ، وثار الرهج فلا تسمع الا وقع الحديد . وكان صوت الضرب به كصوت القصّارين . وكان ابراهيم يقول لصاحب رايته : تقدم وانغمس برايتك فيهم . فاذا تقدم شد ابراهيم بسيفه فلا يضرب رجلا الا صرعه . وكرد ابراهيم الرجال بين يديه كأنهم الحملان .

وهكذا اشتد القتال . فانهزم أصحاب ابن زياد واختلت صفوفهم وعمدوا الى الفرار . فتبعهم أصحاب ابراهيم بن الأشتر . فكان من غرق فى نهر الخازر ودجلة أكثر ممن قتلوا . واستولوا على معسكرهم وفيه من كل شيء . وهكذا تم النصر الكامل لجيش العراق : جيش الشيعة والمختار . وقيل انه كان من أسباب النصر أن عمير بن الحباب السلمى — صاحب ميسرة ابن زياد — انهزم بالناس ، على اتفاق بينه وبين ابن الأشـــتر — وذلك انتقـاما لقتلى قيس ، الذين قتلوا فى موقعة مرج راهط . ونادى : يالثارات قيس . وكان عمير قيسيا .

وعندما انجلت الموقعة وأخذوا يتفقدون القتلى ، قال

ابراهيم : يا قوم ، قتلت رجلا وجدت منه رائحة المسك ، شرّقت يداه وغرّبت رجلاه ، تحت راية منفردة على شاطىء نهر خازر . فبحثوا عنه فاذا هو عبيد الله بن زياد ، قتيلا . ضربه فقده بنصفين : فذهبت رجلاه فى المشرق ، ويداه فى المغرب . فأخذوا رأسه . وأحرقت جثته بالنار . ووجد أنه قتل فى هــذه الموقعة الحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذى الكلاع ، وغيرهم : من كبار قواد جيش الشام .

أقام ابراهيم بالموصل ، وبعث برأس عبيد الله بن زياد الى المختــار ، ومعــه رءوس قواده . فألقيت فى القصر . فرؤى أن جاءت حية دقيقة ، تخللت الرءوس ، حتى دخلت فى فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره ، ودخلت فى منخره وخرجت من فيه .. فعلت هذا مرارا . وبعث المختار برأس ابن زياد الى المهدى محمد بن الحنفية ، وعلى بن الحسين ، وسائر بنى هاشم . فلما رأى على بن الحسين — وكان بالمدينة — رأس عبيد الله هذا ترحم على الحسين ، وقال : سبحان الله . ما اغتر بالله الا من لم يعرف نقمته ! أُتى عبيد الله برأس الحســين وهو يتغدى ، وأتينا برأس عبيد الله بن زياد ونحن نتغدى ! . ولم يبق من بنى هاشم أحد الا قام بخطبة فى الثناء على المختار والدعاء له ، وجميل

القول فيه . وكان ابن عباس يقول : أصاب بثأرنا ، وأدرك وغنمنا ، وآثرنا ووصلنا . فكان يظهر الجميل فيه للناس .

وقد حدثت موقعة الخازر فى يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦٧ هـ ، فى يوم ذكرى مقتل الحسين . فقتل ابن زياد فى نفس اليوم . فسبحان المنتقم الجبار .

فالآن ، وقد حقق الشيعة هذا النصر الباهر ، وهزموا ابن زياد وقتلوه ، كما قتلوا أو شردوا كل من اشترك فى دم الحسين ، فقد أخذوا اذن بثأر آل البيت كاملا وثأرهم ، وبذلك يكونون قد أدركوا غايتهم وشفيت صدورهم ، وحان الوقت لكى تهدأ ثائرتهم . فمقتل ابن زياد وهزيمة جيشه يعد نهاية المأساة التى بدأت منذ حدث مقتل الحسين . وقد ظل العراق مضطربا طوال هذه المدة ، وكم جرت أحداث ووقعت حروب .

هزيمة أم نصر؟

أما هزيمة « يوم الخازر » من وجهة نظر بنى أمية وعبد الملك ، فقد كانت كارثة بالنسبة لهم ! لقد تبدد جيش الشام ومزق شذر مذر ، وقتل كثير من كبار قواده . فلابد أن الخبر حين وصل الى عبد الملك بالشام كان وقعه أليما

أشد الألم ، وشعر هو بالأسى أعمق الشعور . لكن الرواة أخبرونا أن عبد الملك كان يتمتع بصفة الجلد والصبر ، وكان من النوع الذى لا تزعزعه الشدائد . على أنه فى الحق لم يكن هو ولا أهل الشام يستحقون هذه الهزيمة ؛ اذ لم تكن لهم علاقة بمقتل الحسين الذى قتله أهل العراق . ولكن وجود ابن زياد بينهم وقائدا لجيشهم كان هو سبب هذه الكارثة التى حلت بهم . وكان من أهم نتائج موقعة الخـــازر أن عبد الملك عرف أنه لا يستطيع أن يستولى على العراق . لعهد غير قصير بعد ذلك . وفعلا تأخر فتح العراق خمس سنوات كاملة ، ولم يقم عبد الملك بمحاولته التالية الا بعد مضى هذه المدة ، وبعد أن تغيرت الأحوال ، واتخذ هو اجراءات جديدة .

ومن جهة أخرى : كان ينبغى لعبد الملك أن يحمد نتيجة المعركة التى قتل فيها ابن زياد . فقد كانت نقمة . لكنها فى الحقيقة تنطوى على نعمة . اذ أنه كان من صالحه وخيرا له أن يتخلص من ابن زياد — ذلك الرجل المكروه . ومن تاريخه البغيض . ولا شك أن عبد الملك ودولته بدآ عهدا جديدا بعد نهاية هذا الرجل . ولابد أن الناس بدآوا ينظرون اليه والى دولته نظرة جديدة ؛ خالية من شعور الضغن . لقد

كان ظل ابن زياد الأسود يغطى شخصية عبد الملك . فحيث زال هذا الظل ، أخذت الصورة تبدو وهى صورة الرجل العاقل الرشـــيد الحاكم القدير ، وعابد الأمس العارف بدين الله ، والبرىء من أوشـــاب العهد السابق . فكانت صورة لا تخلو من جاذبية . ويمكن أن تبعث الأمل لتحقيق وحدة الدولة المرجوة .

لكن هذه الوحدة ما كانت لتتم الا بعد أحداث ومعارك وأهوال . فلنتجه الآن لنشهد هذه المعارك .

الفصل السادس

صراع بين القوى

هل كان يمكن أن تعيش الدولة العربية الاسلامية وهى متفرقة منقسمة الأجزاء ، وموزعة بين قوى مختلفة ينازع بعضها بعضا ؟ . لقد خلقت هذه الدولة واحدة . وصنعت تاريخها وهى واحدة ، ورسالتها واحدة ، وعدوها واحد فاذن يجب أن تعود واحـــدة ، ولا يمكن أن تعيش على غير ذلك . لم يكن أحد فى ذلك العصر — وهو العصر الذى نشب فيه النزاع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير على الخلافة ، وحدث الخلاف بين الفرق المتباينة — لم يكن أحد يعتقد غير هذا ، أو يتصور أنه يمكن غير هذا .

بيد أنه ما كان أحد ليستطيع أن يتنبأ كيف أو متى تتم هذه الوحدة ، و على يد من سيكون تحققها . ان كل شيء كان يتوقف على نتيجة المعارك ، التى كانت تدور رحاها فى أنحاء الدولة . ولم يكن هناك سبيل الى الوحدة غير

النضال فى ميدان الحرب . فقد اختلفت وتباعدت المذاهب السياسية ، التى كان يظن أنها تتفرع عن الدين . وكانت الحرب تدور فى جبهات متعددة . فهناك الحرب أو الحروب بين الشام والحجاز ، وهناك الحرب بين الشام والعراق ، وهناك الحرب بين الحجاز والعراق ، وهناك الصراع فى داخل العراق نفسه بين أحزابه المتعارضة ، وهناك النضال بينه وبين قوى منه خرجت عليه وشنت عليه أعنف الهجمات ، وهكذا . فلكى تكون الصورة كاملة عن العصر وأحداثه السياسية ، ينبغى أن نلقى نظرة على كل من هذه الجبهات ، لنرى سير المعارك ، وكيف دار الصراع بين القوى المتباينة .

بين الشام والحجاز

فأما بين الشام والحجاز : فانه فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه الحرب بين الشام والعراق — التى بينا أمرها فى الفصل السابق ، وذكرنا أنه حدثت فيها موقعتان هامتان ، هما : موقعة عين الوردة (جمادى الأولى ٦٥ هـ) ، ثم موقعة نهر الخازر (أوائل المحرم سنة ٦٧ هـ) ، وقد انتصر جيش الشام فى الموقعة الأولى ، وان كان أصيب بخسارة

كبيرة ، لكنه دحر وتبدد فى الموقعة الثانية وقتل قائده عبيد الله ابن زياد — وكان هو المشرف على هذه الحملات كلها فى هذه المرحلة — نقول : فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الحروب تجرى — وكانت فى الأكثر حربا بين الدولة الأموية والشيعة من أهل العراق . فى نفس هذا الوقت ، كانت الحرب تدور رحاها أيضا بين الشام والحجاز ، وهى المعركة المباشرة بين عبد الملك ومنافسه على الخلافة ، وهو « عبد الله بن الزبير » : خصمه الرئيسى

* * *

وكان عبد الله بن الزبير هو الذى بدأ المناوشة . فقبيل تولية عبد الملك — وكان أميرا عـلى فلسطين فى ذلك الوقت — وجه ابن الزبير جيشا على رأسه أخوه « مصعب » — كما أشرنا الى ذلك من قبل . لغزو الشام من جهة فلسطين ، فخرج عبد الملك ومعه عمرو بن سعيد بجيشهما ، فصداه وقاتلاه قبل أن يدخل فلسطين ، فعاد أدراجه الى الحجاز .

وعلى الفور ، جهز مروان جيشا ... أو كان هو أعدد من قبل — عدده سبعة آلاف ، وولى قائدا عليه « حبيش ابن دلجة القينى » ، ووجهه الى الحجاز للاستيلاء عـلى

المدينة ثم مكة . لكن مروان توفى قبل أن يصل « حبيش » الى مقصده . فحصلت الحرب بينه وبين قوات ابن الزبير فى عهد عبد الملك ، فى أول خلافته .

وقعة عند المدينة

سار الجيش دون أن يلقى مقاومة ، حتى صار على مقربة من المدينة . وكان ابن الزبير — حين علم بقدومه — أرسل الى عامله على البصرة وهو « الحارث بن أبى ربيعة » يستنجده ، فوجه اليه جيشا نحو ثلاثة آلاف . وفى نفس الوقت ، أرسل جيشا من عنده ليشتبك مع العدو ، حتى تصل الجيوش الأخرى . لكن هذا الجيش هزم وبدد ، ودخل حبيش بن دلجة « المدينة » — وكان ذلك فى رمضان سنة ٦٥ هـ — فنزل دار مروان . وخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فذم أهل المدينة ، لأنهم — كما قال — خذلوا أمير المؤمنين عثمان ، وبالجملة أظهر الشدة نحوهم .

ثم بلغه خبر مقدم جيش البصرة ، وعلى رأسه « الحنتف ابن السجف التميمى » . فأشار على « حبيش » أصحابه أن لا ينتظره ليقاتله فى المدينة ، لأن أهلها سيثورون عليه

وأن الأولى أن يخرج ليقابله قبل أن يدخل المدينة . فخرج بأكثر جيشه ، والتقى الجيشان فى مكان اسمه « الرَّبَذَة » من ضواحى المدينة . فهذه الموقعة تسمى اذن : موقعة « الربذة » . وفى أول الموقعة ، كان النصر من نصيب الشاميين على أهل البصرة . لكن « الحنتف » كان قد أعد كمينا نحو ألف فارس ، فى منخفض من الأرض . ففى أثناء القتال فاجأوا أهل الشام ، فلم يشعر أولاء الا والقوم من ورائهم ، وقد أحيط بهم . فانهزم أصحاب حبيش فى كل وجه ، وقتل حبيش بن دلجة عند حوافر الخيل ، وتفرق أصحابه هاربين الى الشام . وفى رواية أن سبب قتل حبيش بن دلجة يوم « الربذة » أن يزيد بن سياه الأسوارى رماه بسهم ، فقتله . فلما دخل المنتصرون المدينة — وكان على يزيد هذا ثياب بيض — اسودت ثيابه ، من كثرة ما مسح الناس به وصبوا عليه من الطيب !

واستقبل أهل المدينة قائد جيش البصرة عند دخوله المدينة بالأسارى أكبر استقبال ، وفرحوا به ، وجعل قوم يقولون : ليس هو الحنتف ، انما هو الحتف . ذلك لأن أهل المدينة اعتبروا هذه الموقعة أخذا بثأرهم مما جرى لهم فى « موقعة الحرة » ، التى حدثت قبل نحو عامين .

ومما ذكره الرواة هنا أنه كان بين الهاربين العائدين الى الشام يوسف بن الحكم الثقفى : أبو الحجاج ، وابنه الحجاج — وكان هذا فى شبابه — فأردف يوسف ابنه خلفه على فرسه . وكان الحجاج — فيما بعد — يقول : ما أقبح الهزيمة ! لقد كنت ورجل آخر — يعنى أباه — فى جيش حبيش بن دلجة فانهزمنا ، فركضنا ثلاثين ميلا ، وانه ليخيل الينا أن رماح القوم فى أكتافنا !

* * *

وهكذا ، وصل خبر الهزيمة الى عبد الملك — وكان ذلك فى مطلع خلافته — فلابد أن شعر بغير قليل من الحزن . وكان هذا الحادث حريا أن يلقى فى نفسه شعورا من اليأس . لكن عبد الملك كان فى سن ناضجة ، وكان كبير الثقة فى نفسه ، وكما عُرف — بعد أن اختبرته الحوادث — كان ثبتا لا تزعزعه الشدائد .

وفى العام التالى ، أرسل عبد الملك جيشا آخر وجهته الحجاز أيضا . وجعل قيادته لابن عمه عبد الملك بن الحارث ابن الحكم ، فوصل هذا الجيش الى « وادى القرى » : فى شمال الحجاز . لكن لم تذكر الأخبار كم كان عدد هذا الجيش ، كما لم يرد أنه تقدم أكثر من ذلك . فالذى يظهر

أن عبد الملك لم يقصد من ارسال هذا الجيش أن يكون غزوا حقيقيا لقلب البلاد ، ولكنه كان أشبه بمناورة حربية ، بقصد الارهاب والتخويف واظهار القوة .

هذا فيما يتعلق بالحرب بين الشام والحجاز . وكما رأينا ، لم تؤد الى أية نتيجة . وفى نفس الوقت ، كان ابن زياد يقوم بحملاته من الشام ضد العراق . وكان يقابله الشيعة : التوابون أولا ، ثم المختار . وانتهت هذه المرحلة بقتل ابن زيادة وهزيمة جيشه ، فى أوائل سنة ٦٧ - كما فصلنا من قبل .

موقف عبد الملك

ولابد أن عبد الملك استنتج من هذه التجارب — وكانت فى الأكثر تجارب مرة — أنه لا يستطيع لوقت ما . والأحوال كما هى ، أن يفتح العراق أو الحجاز . فلا مناص من أن يكتفى بالدفاع عن نفسه وعن مملكته التى تحت حكمه ، والأمر مستقر له فيها — وهى الشام ، ومصر وما يتبعها من افريقية — ويعتمد فى هذه الأثناء على الوقت . لتمهيد الطريق وازالة العراقيل وتهيئة الوسائل ، وذلك بما يوجد فيه من أحداث وما يغير من الأحوال . ولابد أنه انصرف لتدعيم قواعد حكمه فى بلاده ، بتقويم مواردها المالية ،

وتنظيم شئونها الداخلية ، واعداد جيش قوى يستطيع به ان يجالد أعداءه ، وأن يعيد عليهم الكرة — حين يجىء الوقت المناسب — ضامنا النجاح والظفر هذه المرة .

والواقع أن عبد الملك ، لو عرف ، لتبين أن زوال ابن زياد من دولته كان بدء الخير والنصر له . فقد كان قتله افناء لماض بغيض ، كان دائما يلقى ظلا من الريب على عبد الملك ودولته ، ويثير فى نفوس الناس الكراهية له والنفور منه . أما الآن فقد انقطعت صلة عبد الملك بهذا الماضى البغيض . ولما ذاق الناس من خصومه ألوانا من الاساءة ، وقاسوا من عيوب وأخطاء المتغلبين عليهم ، وسئموا من كثرة الصراع والنزاع ، وبدأوا يبحثون عن الاستقرار — بدا لهم عبد الملك وكأنه ليس أقل من غيره ، بل ان الاستقرار والنظام فى حكمه . المتجلى فى دولته بالشام ومصر ، يدعو للاعتراف له — عند المقارنة بغيره — أنه يكون أفضل منهم . وهذا الميل الطيب نحو عبد الملك سينمو أيضا بمرور الوقت . وكان أهم ما يخدم عبد الملك من الانتظار أن أعداءه سيتركون يقاتل بعضهم بعضا ، ويضعف بعضهم بعضا ، ولا يكون الغالب منهم بأحسن حالا من المهزوم .

فهكذا ظل أعداؤه يتقاتلون : فكان حتما أن ينشب

الصراع بين دولة آل الزبير والمختار ، الذى أقام دولة على أنقاض دولتهم : فى الكوفة والعراق والجزيرة . وكان الصراع دائرا منذ بدء قيام دولة آل الزبير: بينهم وبين الخوارج الثائرين الذين أقاموا لهم دولة فى الأهواز وبلاد فارس . كما كان هناك نزاع فى داخل هذه الأقطار ، وفى مواضع أخرى . ثم جاءت المعركة الكبرى بين ابن الزبير والمختار ، حين عين ابن الزبير أخاه « مصعبا » واليا على البصرة . فجاء مصعب وهو ينوى أن يدخل فى موقعة فاصلة مع المختار والشيعة ، وساعدته الأحوال فى العراق على ذلك .

مصعب فى العراق

فى أوائل سنة ٦٧ ، عين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على العراق كله . فقدم مصعب من مكة فى جمع له الى البصرة ، حتى أناخ على باب المسجد . وكان متلثما ، فكشف اللثام عن وجهه فعرفه الناس ، وقالوا : مصعب بن الزبير : أمير ، أمير . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة

منهم : يذبح أبنـــاءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين » — وأشار بيده نحو الشام — « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمــة ونجعلهم الوارثين» — وأشار بيده نحو الحجاز — «ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » — وأشار بيده نحو الكوفة — ثم نزل .

بعد أن وصل مصعب ، حضر اليه أشراف الكوفة ، واجتمع الرأى على القيام بحملة مشتركة ، لمحاربة المختار والقضاء عليه وعلى مواليه . فسار مصعب بجيشه ومعه كبار القواد ، فالتقى الجيشان فى « المذار » فى جنــوب العراق . فحدثت موقعة شديدة صبر فيها الأبطال من الجانبين ثم انتهت بقتل قواد المختار وانهزام جيشه ، حيث أبيد رجالة الجيش جميعهم — وكان أكثرهم من الموالى — ولم ينج من ذلك الجيش الا طائفة من أصحاب الخيل . فخرج المختار وقاد المعركة بنفسه . ولكن أخيرا ، حاقت الهزيمة بجيش المختار ، وتفرق عنه أصحابه ، فذهب الى القصر فى الكوفة . وكان يخرج فى جماعات قليلة ، فيقاتل بكل شجاعة ، وهو مصمم على الموت ، ولا يقبل أن ينزل على حــكم أعدائه — حتى طال الحصار ومنعوا عنهم المادة والماء ! وأخيرا

حنط نفسه ، وخرج فى تسعة عشر رجلا ، وظل يضارب بسيفه حتى قتل . وذلك فى رمضان سنة ٦٧ . بذلك انتهى أمر المختار ودالت دولته : دولة الشيعة التى لم تعمر فى الكوفة أكثر من عام ونصف عام — ولكن بعد أن حققت غايتها ، وهى الانتقام من قتلة الحسين ، ورأسهم ابن زياد ، الذى قتل فى الخازر — كما بيناه فيما مضى .

* * *

لقد أدى المختار مهمته . وصدق اذ قال : حين قدم الى العراق أنه « اذا أدرك بثأر النبيين ، وشفى صدور المؤمنين ، لم يحفل بالموت اذا أتى » . فهو بعد أن شفى صدور الشيعة هم ، لم يحفل — حقا — بالموت . ومات كريما ، بطلا عا .

ويسىء بعض الناس تصوير شخصية المختار ، فيعرضه على أنه كان رجلا طموحا يسعى لتحقيق المجد لنفسه ، منتهزا فرص السياسة ، مستغلا دعوة الشيعة وغيرها ، ويصفه بعضهم بالكذاب . ولا غرو ، فالمختار كان له أعداء كثيرون فى حياته ؛ فهم يحملون عليه ويذمونه . ويتبع الناس فى ذكر سيرته ما قال أعداؤه فيه . لكن دراسة تاريخ المختار عماله — على النحو الذى فعلنا — تبين تماما صدق

عقيدته ، وقوة شخصيته ، وسلامة هدفه . فهو كان مخلصا لمبدئه الذى عاش ومات من أجله — وهو نصرة آل البيت والأخذ بثأرهم . وهو شخصية عربية مليئة بالحيوية ، تثير الاعجاب . وقد سئل عنه الحجاج مرة ، فقال : « لله دره ! . أىّ رجل — دينا ، ومسعر حرب ،ومقارع أعداء — كان » .

وروى أن ابن عباس ذكر عنده المختار ، فقال : صلى عليه الكرام الكاتبون . ولما قتل المختار ، قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس : ألم يبلغك قتل الكذاب ؟ قال : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد . قال : قد بلغنى قتل المختار . قال : كأنك أنكرت تسميته كذابا ، ومتوجع له . قال : ذاك رجل قتل قتلتنا ، وطلب ثأرنا ،وشفى غليل صدورنا . فما يكون جزاؤه منا الشتم والشماتة . وقال عروة بن الزبير لابن عباس : قد قتل الكذاب المختار ، وهذا رأسه . فقال ابن عباس : قد بقيت لكم عقبة كئود ، فان صعدتموها فأنتم أنتم ، والا فلا . (يعنى : عبد الملك بن مروان) .

وبعد قتل المختار ، ارتكب مصعب ابن الزبير أخطاء جسيمة ، كانت لها فيما بعد نتائج سياسية ضارة ، وأساءت الى سمعته . فقد أخذ الأسارى الذين وقعوا فى يده من جند المختار ، وكانوا قد طلبوا الأمان ونزلوا على حكمه ، وبعد أن

استعطفوه وكاد أن يرق لهم ، عاد فاستمع الى قول أشراف الكوفة ، الذين كانوا أعداءهم وكانوا يحملون الضغن على أصحاب المختار ، فأمر بقتل الأسارى .

ومن الأخطاء أنه دعا أم ثابت بنت سمرة زوجة المختار ، فسألها ماذا تقول فى زوجها ، فقالت : تقول فيه بقولك أنت . فأطلق سراحها . ثم دعا بعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارى — زوجته الأخرى — فسألها ، فقالت : رحمه الله ، كان عبدا لله صالحا . فأرسلها الى السجن . ثم كتب الى أخيه يقول : انها تزعم أن زوجها نبى . فكتب اليه بقتلها فقتلت . وفى ذلك قال الشاعر عمر بن أبى ربيعة :

ان من أعجب العجائب عندى
قتل بيضاء حـرة عطبول
قتلت هكذا على غير جـرم
ان لله درهـا من قتيـل
كتب القتـل والقتـال علينا
وعلى المحصـنات جر الذيول

فهذه الأخطاء تلقى ضوءا على شخصية « مصعب » ، الذى سيكون خصما لعبد الملك . وهى تدل على أنه شخص يفقد صفة السياسة ، ولا يحسن تقدير العواقب .

الخوارج : أو الثائرون المتطرفون

هذا هو الحزب الثالث فى العراق .

فالحزب الأول هو حزب آل الزبير ، والحزب الثانى هو الشيعة ، والحزب الثالث هو هؤلاء : الخوارج . وهو أشد الأحزاب عنفا ، وأكثرها تطرفا .

وقد ظل الخوارج حربا على اخوانهم أهل العـــراق ، وكانوا خطرا دائما يهـــدد دولة آل الزبير ، وسيكون أولى المشاكل لدى عبد الملك ، حين يستولى على العراق ويحل محل آل الزبير . فمن هم ؟ وكيف بدأوا ثورتهم ؟

بدأ الخوارج ثورتهم الأخيرة ضد الدولة الأموية فى أول عهد يزيد ، وذلك بسبب سياسة « ابن زياد » أيضا — الذى كان والى البصرة .

فقد اشتد عليهم ابن زياد ، وملأ بهم السجن ، وقتل كثيرا منهم صبرا . وكان ممن قتل « عروة بن أدية التميمى » من خيار رجالهم . فخـــرج على ابن زياد أخـــوه « أبو بلال » مرداس — وكان من أجل الناس قدرا بين الخوارج لعبادته واجتهاده . ولم يكن مع أبى بلال غير أربعين رجلا ، فأرسل اليهم ابن زياد جيشا عدته ألفان ، فهزم أبو بلال ذلك الجيش

فى موقع اسـمه (آسك) بالأهـواز . وفى ذلك قال شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

فجرد لهم ابن زياد جيشا آخر — عدده ثلاثة آلاف — عليه عباد بن الأخضر التميمى ، فقتل أبو بلال . وذلك سنة احدى وستين . غير أن أحد الخوارج ترصد لعباد هذا واغتاله فى أحد طرق البصرة .

فغلا ابن زياد فى اضطهادهم ، وأكثر قتلهم وكأنه أراد أن يستأصلهم . فما زال الخوارج فى هذه الحال — وهم اذا اجتمعوا تذاكروا فضيلة أبى بلال وجهاده — حتى رأوا أن ابن الزبير ثار بمكة ، وأن يزيدا قد أرسل اليه جيشا من الشام ، فأرادوا الخروج للجهاد معه ، فاجتمعوا وقال لهم رئيسهم « نافع بن الأزرق » : « ان الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف . فأخرجوا بنا الى هذا الذى ثار بمكة . فان كان على رأينا جاهدنا معه ، وان يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت . ثم نظرنا بعد ذلك فى أمورنا » . فساروا الى مكة — وذلك فى أوائل سنة ٦٤ — وقاتلوا مع

ابن الزبير ضد جيش الشام ، حتى جاء الخبر بنعى يزيد وانصرف ذلك الجيش عائدا الى بلاده . فحينئذ وقع الخلاف بينهم وبين ابن الزبير ، واشتبكوا معه فى مناظرات ، وتبين للفريقين تباينهما فى الرأى . فتبرأ أحدهما من الآخر وثارت النفوس .

وهكذا تفرق القوم ، وغادر الخوارج مكة (فى ربيع الآخر ٦٤ هـ) . فتوجه نافع بن الأزرق — ومعه أكثر الخوارج — الى البصرة . وتوجه فريق آخر — على رأسه أبو طالوت — الى اليمامة . وبعد مقدم الأولين الى البصرة بقليل ، حدثت الأحداث التى بيناها فيما مضى ، الى أن وثب الناس على ابن زياد ، واختفى . فقام الخوارج وكسروا أبواب السجون ، وأخرجوا اخوانهم ، وانتهزوا فرصة اشتغال الناس بالحرب بين الأزد وتميم ، بسبب مقتل مسعود سيد الأزد ، فاجتمعوا وخرجوا تحت قيادة زعيمهم : نافع بن الأزرق ، الى ناحية الأهواز — غير بعيد من البصرة . ولما كان الخوارج قد أعلنوا الجهاد ضد مخالفيهم ، واتبعوا مذهبا شاذا ، فقد خاف أهل البصرة على أنفسهم ، وانتهوا الى الصلح فيما بينهم ، وانتخبوا لهم أميرا هو : « عبد الله بن الحارث » — كما أشرنا اليه سابقا — وأخذوا يستعدون للدفاع عن أنفسهم وتجهيز جيش لمقاتلة الخوارج .

ما مذهب هؤلاء الخوارج اذن ، وماذا يريدون ؟

كان هؤلاء قوما متطرفين تغلب عليهم طبيعة البداوة ، تشددوا فى الدين وفهمـوه فهما حرفيا ، وأخـذوا الكتاب بظاهره . خرجوا على عثمان بسبب مسائل غير أساسية ، ثم خرجوا على على بعـد التحكيم ، واعتـدوا على المسلمين فاضطر علىّ الى محاربتهم . وكان أحـدهم الذى قتـله . وخرجوا على معـاوية والدولة كلها . كان عمـاد مذهبهم أن ارتكاب المعصية كفـر ، وكانوا يرون — من الناحيـة السياسية — أن الخلافة يجب أن تكون شورى ، ولا يلزم أن تكون فى قريش . ولما خرجوا فى ثورتهم الأخيرة فى عهد ابن زياد ، ظهر نافع بن الأزرق وغلا فى مذهبه غلوا خرج به عن كل حـد ، وتبعه كثير من الخوارج فهم الذين سـموا بـ « الأزارقة » . قال ابن الأزرق : ان دار مخالفيهم — أى بقية المسلمين — دار شرك ، فهم مشركون ككفار العرب ، فلا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف . فمعنى ذلك أن هؤلاء خرجوا على الجماعة كلها ، وأصبحوا خطرا يهدد المسلمين فى حياتهم وأموالهم ، هـذا على أنهـم كانوا يغالون فى أداء واجبات العبادة . وخالف بعض زعماء الخوارج ابن الأزرق — فى درجات من تخفيف مذهبه — وكونوا شيعا خاصة ، ومنهم

نجدة بن عطية الذى ذهب إلى اليمامة ، حيث خلع النـــاس هناك أبا طالوت وولوه عليهم مكانه ، فكون دولة أخرى .

خرج نافع بن الأزرق وأتباعه الى جهة الأهواز ، وأقاموا بها وكثر جمعهم وقويت شوكتهم ، ثم أقبلوا حتى دنوا من جسر البصرة ، ففزع أهل البصرة واجتمعوا الى « الأحنف بن قيس » فدعا الناس الى الجهاد ، وحدثت عدة مواقع .

* * *

وأخيرا رأى « الأحنف بن قيس » أن خــير من يتولى حرب الخوارج هو « المهلب بن أبى صفرة الأزدى » ، لما علم فيه من الشجاعة والرأى والمعرفة بالحــرب ، فولاه ذلك . وعقد له اللواء . وذلك سنة ٦٦ هـ . وقد برهن المهلب حقيقة على أنه قائد قدير ، يتقن فن الحرب وأساليبه . فما زال يقاتل الخوارج ، ويزيحهم من مرحلة الى مرحلة . وعلى الرغم من أنهم كانوا أشـــد الناس فى القتال ، استطاع أخيرا بفضل براعته فى القيادة ، وثباته وثبات أبنائه — وكانوا أبطالا — استطاع أن يتغلب على الخوارج ويهزمهم ، وذلك فى موقعة « سلّى وسلّبرى » فى فارس سنة ٦٦ ، وقتل قائدهم — فرجعوا مهزومين ، وابتعدوا عن فارس الى جهة كرمان .

الخوارج وآل الزبير

وظل المهلب يجاهدهم . حتى جاء « مصعب » أميرا على البصرة — سنة ٦٧ . . فرأى مصعب أن يسحب المهلب من هذه الجبهة ، ويعينه أميرا على الموصل والجزيرة ، ليكون بينه وبين عبد الملك بن مروان . فتولى حرب الخوارج قواد آخرون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتيجة حاسمة . فلما سئم الناس حرب الخوارج . كلموا مصعبا فى أنه ينبغى أن يعيد « المهلب بن أبى صفرة » لحربهم ، لأنه أعرف الناس بهم ، وهم لا يهابون أحدا مثله ، كما أن الجند لا يطيعون أحدا غيره . فأعاده مصعب الى الجبهة . وتولى المهلب حرب الخوارج مرة أخرى ، منذئذ .

فما زال فى هذا الميدان . حتى تغيرت الأحوال وقتل مصعب ، وجاء عبد الملك الى العراق . فأصبح الواجب على عبد الملك أن ينهض هو للدفاع عن العراق والدولة ، وينصب لحرب الخوارج . فاعترف به المهلب ودخل فى طاعته ، وأصبح جيشه جيش عبد الملك . وسنرى فيما بعد كيف ستسير الأحوال ، وماذا سيكون مصير الخوارج فى عهد عبد الملك . وسيكون مجيء عبد الملك الى العراق فى عام ٧٢ هـ .

فنرى من ذلك كله أن الخوارج ظلوا شوكة حادة ،

أو جرحا داميا ، فى جنب عبد الله الزبير ودولته . وأنهم بقوا يستنزفون منه الجهود والأموال ، ويكبدونه وأهل العراق خسائر فى الرجال ، ويشغلون الأبطال . فكان هذا — فى الواقع — من أسباب ضعف دولة آل الزبير . ولم يكن عند عبد الملك ودولته ما يشغلهم ، مثل هذا . وكان ابن الزبير مهددا أيضا بالخوارج الآخرين — أتباع نجدة — الذين أقاموا دولة فى قلب جزيرة العرب ، وصاروا على مقربة منه ، حتى انهم أخافوا أهل الطائف ، فجعلوهم يعترفون لهم بالولاء .

أربعة ألوية فى الحج

ويمكن أن نرى صورة لتفرق أمر الأمة فى ذلك الوقت ، فى موسم الحج عام ٦٨ هـ .

فقد ظهرت صورة غريبة ، وهى أنه وافى الموسم ووقف بعرفات فى تلك السنة أربعة ألوية : محمد بن الحنفية وشيعته فى لواء ، وعبد الله بن الزبير فى لواء ، ولواء بنى أمية ، ولواء نجدة الحرورى (الخارجى) . وكادت أن تحدث بينهم الفتنة وتنشب الحرب ، لولا أن توسط بعض الراشدين من الأمة .

فهذه الألوية كانت تمثل — على التوالى — أحزاب : الشيعة ، وأتباع ابن الزبير ، وبنى أمية ، ثم الخوارج . وهى الأحزاب التى كانت الأمة منقسمة اليها فى ذلك الوقت .

الفصل السابع

نحو توحيد الدولة

شهدنا المعارك العديدة التى كانت تدور فى أنحاء الدولة : بين العراق والشام ، أو بين الشام والحجاز ، أو بين العراق والحجاز ، أو فى داخل العراق نفسه ، أو بين العراق وقوات خارجة عليه . فالى متى يظل هذا النزاع داخل الدولة العربية الاسلامية ، ويبقى الانقسام ؟ . وهل يمكن أن تترك الأمور هكذا ، دون بذل جهود لتحقيق وحدة الدولة والأمة ؟

لم يكن عبد الملك أو ابن الزبير ، أو أى أحد فى ذلك العصر ، يعتقد أو يتصور أن الدولة يمكن أن تتجزأ ، أو تبقى منقسمة بين شخصين أو أكثر . فالدولة منذ بدء تاريخها كانت واحدة . والجميع يشعر أنها وحدة دينية وثقافية وجغرافية واقتصادية ، أوجدها الاسلام وروحها الاسلام ، وقواها السياسية والحربية كلها من جنس واحد : من العرب .

فلا يمكن اذن أن تنفك عراها أو تنفصل أجزاؤها ، يجب أن تعود دولة واحدة عليها خليفة واحد .

لكن قد مضى عليها الآن — وقد بلغنا عام ٦٨ أو ٦٩هـ — نحو خمس أو ست سنوات ، أو أكثر ، وهى مسرح لقوى متنافسة متنازعة ، والأقطار أو البلاد منفصلة ، وهناك زعيمان كل منهما قد بايعه قوم وأعلن خلافته ، ويدعى أنه هو الأحق بالخلافة . وهناك امام للشيعة ، يعتقدون أنه لا يوجد من ينازعه فى حقه الأقدس الخاص به . وهناك أئمة للخوارج فى هذا المكان أو ذاك . فالمشاعر مضطربة ، والولاء موزع ، وجهود الأمة منصرفة الى النزاع الداخلى ، بدل أن توجه — متحدة — للصمود أمام العدو الخارجى ، والتغلب عليه . كانت الدولة فى غاية القـوة يوم كانت متحـدة ، وقوادها مظفرون فى الفتوح المتوالية ، وأعلام النصر تسير متقدمة الى كل الجهات .أما الآن فقد ارتدت جيوشها فى المغرب، وفقدت معظم الفتوحات التى حصل عليها من قبل ، وتجمدت الفتوح فى المشرق عنـد النهـر — وكانـوا من قبل يعبرون الى ما وراءه — بل ارتدت الجنود عن بعض المناطق ، ووقعت بينهم حـرب داخلية عنيفة ، مبعثها العصبية والطموح الفردى ، وأخذ الروم يتحركون فى الشمال ، ويتحرشون

بالدولة . وأغاروا على بعض المناطق ، وأحدثوا أضرارا جسيمة — منتهزين فرصة الانقسام الداخلى على ما سنفصله فيما بعد .

لا يمكن السكوت اذن على هذه الحال ، والا فيعظم الضرر ، ويتفاقم الخطر . لابد أن تبذل الجهود لابراء الدولة من هذا التصدع ، وازالة الانقسام : فتجتمع كلمة الأمة — مرة ثانية — وتنضم تحت لواء واحد . وتستأنف سيرها قدما تحت قيادة خليفة واحد . فمن يكون هذا الخليفة ؟ . ومن ينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال : ينبغى — أولا — أن نلقى نظرة على الموقف الذى وصلت اليه الدولة : فى عام ٦٩ هـ .

* * *

كان عبد الملك قد ترك خصومه يتقاتلون ، ولم ير داعيا لبدء الهجوم حتى يرى نتيجة المعارك الدائرة . فان هذه المعارك سيكون من شأنها اضعاف الأطراف المشتبكة ، وسيحين بعدئذ الوقت المناسب ليكون الهجوم مضمون النجاح ، ويكون هو فى الوقت نفسه قد تمكن من تجديد قواه وتدعيم قواعد دولته ، واصلاح شئونها الداخلية .

قد كان من نتائج هذه المعارك أن دحرت — فعلا — احدى القوى المتنازعة . واختفت من الميدان كقوة ايجابية فعالة . وهذه هي قوة الشيعة ، التي قادها المختار ، وحقق بها بعض الانتصارات الرائعة ، وكاد بها أن يؤسس دولة دائمة . فبعد مقتل المختار ، لم يعد لهذه القوة وجود ظاهر في العراق ، وتحولت الى دعوة أو حركة سرية . وكانت هذه القوة قد استنفدت أغراضها — على كل حال — حين نجحت في أخذ ثأر الحسين وآل البيت من قتلتهم : من ابن زياد بالأخص ، ومن شركائه . ففقدت عندئذ الدافع الذي كان يحركها ، والذي ظل يدفعها نحو ست سنوات . ولم نعد نرى بعد انتهاء تلك الحركة الا ذلك الجيش الصغير أو الحرس ، الذي بدا أن كل مهمته أن يلازم المهدي محمد بن الحنفية ويحرسه في مكة ، أو أينما توجه ، على الهيئة التي شاهدناها به في موسم الحج عام ٦٨ هـ . انحلت عقدة كبيرة اذن من الموقف ، فأصبحت المعركة مباشرة بين دولة آل الزبير في الحجاز والعراق ، ودولة عبد الملك في الشام ومصر — دون أن تتوسط بينهما قوة ثالثة . لكن دولة ابن الزبير — كما ذكرنا من قبل — كان بجنبها جرح دام يشغلها ويستنزف قوتها ، وهو حرب الخوارج . وقد استمرت هذه الحرب ،

فأصبحت كالمرض المزمن لا يرجى البرء منه فى وقت قريب .
فلم يكن مصعب بن الزبير — وهو نائب أخيه فى العراق — ليستطيع أن يقوم بحرب هجومية على الشام ، قبل أن يتخلص من هذا الخطر المهدد له على الدوام .

هــذا على أن مركز مصعب ودولته فى العراق لم يكن — فى حقيقة الأمر — بالقوة التى قد يوحى بها ظاهره . فان أهل العراق انما لجأوا اليه ليستخدموه كأداة سياسية ، ليتخلصوا من المختار الذى أحدث انقلابا فى مجتمعهم ، بالحيازه الى الموالى واعطائهم حقوق العرب . فبعد نجاح المهمة وتحقيق غرضهم ، لم يعد هناك رابط قوى يربطهم به . وماذا كان يربطهم بآل الزبير على كل حال ؟ . لم تكن هناك العاطفة القوية التى تربط بين الشيعة وأحد زعمائهم ، ولم يكن هناك الايمان المشترك بعقيدة ثورية ، الذى يربط بين الخــوارج وقادتهم ، ولم يكن هنــاك الماضى الملىء بالذكريات والتاريخ المشترك ، الذى يربط بين أنصــار بنى أمية وخلفائهم — ليس فقط فى الشام ، ولكن هذا التاريخ المشــترك كان فى العراق أيضا ، وبعض جهــات أخــرى .

وقد كان فى العراق دائما حزب لبنى أمية ، وأنصار لهم . لكن الذى أضعف الرابطة أو قطعها — الى حين — كانت

هى أحداث البغى والعدوان ، التى أوجدها ابن زياد . فما دام ذلك الرجل البغيض موجودا،فان عواطف أهل العراق — سواء الشيعة أو غيرهم — كانت متحولة عن دولة الشام . أما وقد زال ذلك الرجل الكريه ، فقد صفا الجو ، وأخذت الذكريات تعود للخواطر ، والنفوس تحن الى الماضى المشترك ، الذى كان يوفر — على الأقل — الطمأنينة والأمن والاستقرار ، ورخاء المعيشة . ولا سيما أن الشخصية التى ظهرت — وهى شخصية عبد الملك — كانت شخصية تستحق الحب ، وتحمل على الاحترام . يدل على ذلك أن قائد العراق الكبير — « ابراهيم بن الأشتر » — بعد أن حارب جيش الشام وانتصر عليه ، صرح — حينما دعاه كل من مصعب وعبد الملك ، لينضم اليه — صرح — كما ذكرت المصادر — بأنه لو ترك الأمر له ، لفضل أن يتبع عبد الملك لكن هذا لم يكن ممكنا ، لما أصاب به رؤساء الشام. وسنرى أن هذا الشعور لم يكن خاصا به ، ولكن سينتشر بين كثير من قواد ورؤساء العراق .

نقول : لم يكن هناك من رابط قوى يربط بين أهل العراق وآل الزبير . فهم انما اختاروا البيعة له ، فى البدء ، لأنهم كانوا فى ألزم الحاجة الى أمير ودولة ، فى الظرف الذى

كانوا مهددين فيه بخروج الخوارج ، وفى ظل الكراهية لابن زياد ، وفى وقت الفوضى الذى اضطربت فيه الأمور ، فى كل الجهات . فكانت البيعة لابن الزبير حكم ضرورة ، لأنه كان آكفأ الموجودين فى الموقف . ولكن الأمور ظلت فى الحقيقة — مع ذلك — بأيدى رؤساء العشائر ، أو أشراف العرب . ولم يستطع ولاة ابن الزبير ضبط الأمور ، فقام ثائرو الشيعة واستولوا على الكوفة والبلاد ، وظهروا كدولة داخل الدولة.

عبد الله بن الزبير

« لقد كان عبد الله بن الزبير ، فى ذاته ، رجلا يتمتع بصفات تبعث على الاحترام : ذا شخصية قوية ، وله ماض مجيد . كان من فرسان قريش وأبطالها ، خطيبا بليغا ، وعابدا لا يبارى فى تحمله مشقات العبادة ، ومن الطبقة الأولى من التابعين . ولكنه قيد نفسه بمكة ، وظل ملازما لها . ولم يخرج أبدا طوال المدة التى ناضل فيها من أجل الخلافة : لم يخرج الى أى جزء آخر من أجزاء دولته ، وخاصة العراق. فكانت الصلة بينه وبين الناس بعيدة . ولم توجد الرابطة التى تستلزم الولاء بين الجمهور وزعيم له ، أو بين جيش وقائده — وهى رابطة الحب وشعور الاعجاب — تلك التى تنشأ عن الاتصال

الشخصى ، وتأثير القائد أو الزعيم فى أتباعه .

وقد لحظ عبد الملك نفسه هذا المعنى ، فتحدث — فيما بعد — فى خطبة له بالكوفة ، بعد أن قدم العراق ، فقال : « ان عبد الله بن الزبير لو كان خليفة — كما يزعم — لخرج وآسى أنصاره بنفسه ، ولم يغرز ذنبه فى الحرم ! » . ولكن هكذا شاء ابن الزبير « أن يغرز ذنبه فى الحرم » . وترك أنصاره وحدهم بعيدا عنه ، دون أن يضرب لهم القدوة أو الاسوة بنفسه ، وترك الأمور تجرى دون أن يحكمها . ولم يكن وكلاؤه — حتى اخوته — بكافين عنه . فكان هذا — ولا شك — من أسباب هزيمته وفشل أمره .

وكان من أكبر عيوب ابن الزبير — أيضا — التى أدت الى نفور الناس منه ، وكانت سببا فى هزيمته ، حرصه وضنه بالأموال — حتى لأتباعه ومناصريه . كما يدل على ذلك هذا الخبر : أن أخاه مصعبا قدم عليه بمكة — ومعه وفد من وجوه أهل العراق — فقال : يا أمير المؤمنين ، قد جئتك بوجوه أهل العراق ، فأعطهم من المال . فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله . والله لافعلت. ولوددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام : صرف الدينار بالدرهم ! » ... ذكر رواة الخبر ، قالوا :

« فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق ، فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج الى مصعب فقتله » . كما وردت أنباء أخرى تؤيد هذا الخبر .

وقد سجل عبد الملك أيضا عن خصمه هذا المعنى ، فقال فى بعض خطبه : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى . وان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام . ولكن لبخله ، لا يصلح أن يكون سائسا » . وقال على بن زيد شيئا شبيها بهذا ، فتحدث عن ابن الزبير — قائلا : « كان عبد الله طويل الصلاة كثير الصيام . وكانت فيه خلال مباينة لما حاول من الخلافة : بخل وضيق ولجاج » . وهو يعنى بالخلة الأخيرة أن عبد الله بن الزبير كان شديدا فى خصومته ، وكان خشن الجانب . وربما كان هذا ناتجا عن قوة اعتداده بنفسه . لكن هذه الخصلة — والصفات السابقة — لم تكن من الصفات التى تساعد على اجتذاب الناس اليه ، ولم تكن من الصفات التى تتفق مع مقتضيات السياسة .

وكان عبد الملك بن مروان على خلاف ذلك — ولو فى مجال السياسة — على الأقل — وقبل أن يتم له أمر الخلافة، وبالنسبة لأهل الشام بصفة خاصة . فكان سخيا مع قواده وجنوده يجزل لهم الأعطيات . وربما كان يقتدى فى هـذا

بمعاوية . فكان جنده من أهل الشام — وهم الذين كان يعتمد عليهم — يحبونه ويطيعون أمره . وقد كاتب قواد العراق ومناهم ، ووعدهم ووصلهم — وان كان الحجاج فيما بعد نقض هذه السياسة ، وعامل أهل العراق بعنف . فكانت هذه من أخطائه ، وأدت الى حروب ومتاعب كثيرة . كذلك كان عبد الملك حسن المعاملة ، بصفة عامة ، لقواده وحاشيته . يكرمهم ويحلم عليهم ، ويزورهم اذا مرضوا ، ويحضرهم مجالسه كأصدقاء . أما من ناحية الخروج بنفسه ، ليضرب الأسوة والقدوة لأنصاره ، فان عبد الملك قرر — فى هذه المرحلة الثانية من النشاط منذ عام ٦٩ هـ — أن ينهض بنفسه ، ويخرج على رأس قواته فيشترك فى الحصار والحرب والمفاوضة . وهكذا فعل ، وهكذا « لم يغرز ذنبه » ! فى دمشق أو غيرها . فكان هذا من أكبر عوامل نجاحه وانتصاره. وقد حضر بنفسه الموقعة الفاصلة بينه وبين مصعب — على ما سنرى . فكان وجوده من أهم أسباب النصر — على حين كان عبد الله بن الزبير غائبا . وهذه هى الموقعة التى تم بها لعبد الملك الاستيلاء على العراق .

مصعب أخو عبد الله

أما مصعب : فكان شخصية قوية أيضا ، وكان يمتاز كأخيه بالشجاعة واباء الضيم ، وكان نموذجا لوسامة العربى القرشى ، ويتصف بالصفات الحميدة . وعلى خلاف أخيه كان جوادا . لكنه كان يعيش كأمير أرستقراطى ، ينفق بسخاء على شئونه الخاصة ، ويتزوج أجمل عقيلات قريش ، ويدفع مهرا لاحداهن ألف ألف (أى مليون) درهم . وفى هذا قال شاعر :

مهر الفتاة بألف ألف كامل ويبيت قادات الجيوش جياعا

وكرمه كان كرما فرديا . وليس نظاما عاما يشمل الجميع ، ويتمثل فى أعطيات ثابتة للأنصار .

وكما بينا من قبل ، لم يكن هناك من روابط قوية طبيعية ، تربط بينه وبين أهل العراق . فلم يكن من آل البيت ، ولا زعيما لشيعة ، ولا من أبناء الخلفاء السابقين . وانما كان قائما ، ممثلا لأخيه الذى يعيش فى الحجاز . ولم ينتخب أحدهما انتخابا شرعيا فى مؤتمر يحضره أهل الحل والعقد ، كذلك المؤتمر الذى انعقد فى الجابية — الذى تحدثنا عنه فى فصل سابق — والذى قامت على

أساسه دولة آل مروان . وهــذه النقطة ـــ فى المقــارنة الدستورية بين أساسى دولتى ابن الزبير ومروان — لم يفت المؤرخ « ابن خلدون » أن يلحظها . حقا ، كان عبد الله ومصعب ـــ كلاهما . شخصيتين رائعتين . لكنهما كانا يريدان أن يؤسسا دولة جديدة ، من البدء : من فراغ . وهذا من أشق الأمور . على أن مصعبا ظل ، طوال مدته بالعراق ، مشغولا بحروب الخوارج . ثم انه ارتكب — كما رأينا — أخطاء سياسية جسيمة ، مثل قتل هذا العدد من الأسرى ، فنفر الناس منه ، وترك له ثأرا عند كثير من القبائل . ولما كان غير واثق تماما من تأييد واتباع أهل العراق له ـــ وهم القوم الذين عرف عنهم فى الأحداث السابقة التقلب والتحول عن الزعماء . . فقد لبث فى موقف دفاعى ، ولم يحاول القيام بهجوم على الشام ، من أجل تصفية الموقف .

* * *

هذه هى الظروف التى وجد عبد الملك بن مروان فيها نفسه ، حين قرر أن يبدأ مرحلته الثانية من النشاط فى عام ٦٩ هـ ، ويقوم هو بقيادة الجيوش والاشراف على الأمور . وكان هو فى موقف لايستطيع فيه الانتظار أكثر من ذلك ، لأمد طويل . لأن دولته أكثر تعرضا للأخطار ، والغارات من الخارج ، أكثر من العراق أو الحجاز .

فالروم — العدو التاريخي القومى — بدأوا يتحركون ، ويحرضون العناصر المخـربة الأجنبية ، التابعـة لهم فى الداخل — وهم « الجراجمة » . والأراضى تفقد فى الغرب ، والسواحل معرضة للهجـوم . وموارد الشام محدودة ، لا تقاس بثروات العراق ، وما وراءه من أقطار ايران . ومصر تكاد تكون مستقلة ، تحت امرة أخيه عبد العزيز بن مروان ، وهى تتحمل عبء الدفاع فى الغرب . فاذا كان عبد الله ابن الزبير — وأخوه — يستطيعان أن يكتفيا بدولتهما فى الحجاز والعراق ، فان عبد الملك كان لا يستطيع أن يضمن بقاء دولته وقوتها ، الا اذا تحقق توحيد الدولة . كانت وحدة الدولة ضرورية لعبد الملك : ألزم له مما كانت بالنسبة لخصومه . فليست غرضا كماليا ، ولا هدفا من أجل بلوغ العظمة الشخصية ، أو الوصول لتوسيع حدود الدولة ، ولكنها كانت أمرا حيويا ، والشرط الجوهرى الذى يتوقف عليه كل شىء .

فالآن نكون قد أجبنا عن السؤال الذى طرحناه من قبل : وهو من يكون الخليفة الذى تعينه الظروف وتدفعه ، وتميزه صفاته ، لينهض لتحقيق هذه المهمة الكبيرة وهى توحيد الدولة ؟ . فالجواب أن هذا انما هو عبد الملك .

خطط سياسية وحربية

ما هى الخطة التى يتبعها اذن لتحقيق توحيد الدولة ؟

لم يختر عبد الملك أن تكون الخطة الآن هى أن يبدأ على الفور ، فيقود جيشا يتوجه به الى العراق أو الحجاز ويخوض مع خصمه موقعة حاسمة . ان هذه الموقعة حتمية ، آتيــة لا ريب فيها - اذا ظلت الظروف كما هى . ولكن لماذا يجعل الأمر مغامرة ، ولا يكون ضامنا النتيجة ؟ ولماذا يترك الحكم للسيف وحده ، وهؤلاء الذين يريدهم أن ينضموا الى دولته مسلمون من أمة واحدة . ثم قد دلت التجــارب أن بعض الجيوش ، التى تكون كثيرة العدد حسنة العدة ، قد تهزم على أيدى فئات أقل منها عددا وعدة . فينبغى اذن — وهذه هى الخطة الحكيمة - أن يمهد للحرب — اذا كان لابد منها — بالوسائل السياسية . ان السياسة قد تكسب ما لا تستطيع الحروب أن تنيله . وانها كثيرا ما توفر الجهد ، وتجعل أمر الحرب - اذا وقعت - هينا ، وأقل كلفة فى التضحية بما يبذل من دماء ، وما يتعرض له من أخطار .

وان عبد الملك — اذا كان قد هداه ذكاؤه وحسن رأيه الى أن يأخذ بهذه الخطة - فانه فى الوقت نفسه لابد أن

يكون قد تمكن من الحكم بأنه لا توجد أسباب قوية ، تمنع أن ينحاز كثير من أهل العراق اليه ، ويتحولون عن مصعب وسلطانه الى تأييده ، ولو بقلوبهم . فانه قد صار واضحا أن التقلب فى السياسة أصبح دأب أهل العراق ، وكأنما كانوا يريدون لهم كل يوم أميرا . ثم ان مصعبا وأخاه يريدان أن يؤسسا دولة من العدم ، أما عبد الملك فانه يمثل استمرارا لدولة كانت قائمة ، وكان أهل العراق يدينون لها . وكثيرا ما خدموا تحت لوائها ، ونعموا فى ظلها بالأمن والاستقرار والرخاء ، وكانوا راضين عنها فى الجملة — لولا اساءات ابن زياد وأبيه — وهذه هى الدولة الأموية . فعبد الملك اذن انما يطالب فى الحقيقة بحق تاريخى أو شرعى ، ويريد أن يعيد وحدة الدولة كما كانت ، وأن تعود الأوضاع الى ما كانت عليـــه .

هذا الى أنه لم يسىء اليهم ، وليس له عندهم ثأر — على حين أن مصعبا قد أساء اليهم بمن قتل منهم فى الحروب ومن الأسرى ، وأصبح لكثير عنده ثأر ، ويسىء اليهم بوجوده بما يرتكب من أخطاء أو يمنع عنهم من خير . ثم اذا قارن الناس بينه وبين عبد الملك — من حيث النسب ، ومن وجهة العصبية — وهذه كان لها شأن كبير عند العرب — فان

عبد الملك يرجح مصعبا أو أخاه فى النسب . فهذان من أسد بن عبد العزى . أما عبد الملك فمن عبد مناف بن قصى . فهو أكثر شرفا ، وأقرب الى نسب الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد رينا أن هذه كانت من الأسباب التى حملت زعماء بنى هاشم : عبد الله بن العباس ، ومحمد بن على (ابن الحنفية) على رفض المبايعة لعبد الله بن الزبير ، وكانوا يفضلون عليه عبد الملك ، ثم بايعوه بعد ذلك . وكذلك كان سائر العرب ينظرون الى الأمر على هذا الوجه . فأمية وعبد شمس وعبد مناف كانوا أعلى درجة فى الشرف ، وأقوى عصبية ، من أسد بن عبد العزى .

ثم ان أهل العراق — ولا سيما الأشراف ورؤساء القبائل — وهم الذين يعول عليهم فى تقرير مصائر الحروب والدول — كان منطقهم عمليا ، كانوا يريدون أن يحققوا مصالحهم . واعتبار مصالحهم هو الذى كان يوجه مشاعرهم وسياساتهم . فهم اذا وازنوا ، يجدون أن مصالحهم ستكون أكثر تحققا فى ظل عبد الملك ، عنها فى ظل مصعب وعبد الله . وأخيرا ، فان الرأى العام لابد أن يكون — بعد مرور هذه السنوات — قد سئم كثرة النزاع ، والحروب التى تنشب بين المسلمين ، وأدرك أن مصالح الاسلام والعروبة قد

أصبحت معرضة المخطر . فهم يتمنون أن تعود الوحدة ، واذا لم يمكن اخضاع الشام ، فالبديل أن ينضم العراق — مختارا — الى الشام ، فيتقوى كل منهما بالآخـر . واذا لم يكن بد من الاختيار ، فعبد الملك هو الذى يبدو أنه أرجح الشخصيات ، لما عرف من كمال عقله ، وبراعته — مثل أكثر بنى أمية — فى السياسة ، ومقدرته على ضبط الأمور ، ولحسن سيرته أيضا ، فى نفس الوقت .

نتائج هذه الأمور كلها ستظهر ، عندما يخرج عبد الملك للقاء مصعب ، فى الموقعة الفاصلة . . التى سيتوقف عليها مصير العراق والدولة ، والتى ستحدث بعد ثلاث سنوات . وسنتكلم عنها فيما بعد .

الخروج إلى قرقيسيا

أما الآن ، فان عبد الملك كان عليه أن يسير الى تنفيذ أغراضه ، خطوة خطوة .

فأولا ، يجب أن يزيل من طريقه تلك العقبة التى بقيت طويلا ، وهى عقبة حصن قرقيسياء ، الذى ظـل زفر بن الحارث الموالى لابن الزبير ممتنعا به ، وحوله قومه قبائل قيس المتعصبة له — فيزيل هذه العقبة من طريقه ، حتى

يكون الطريق الى العراق مفتوحا آمنا . وقد حان الوقت للوصول الى حل لهذه المسألة ، فان قبائل قيس اتخذت من هذا الحصن قاعدة لتشن الغارات والهجوم على قبائل كلب واليمن ثم تغلب — المؤيدة كلها لدولة الشام ، مما أدى الى وقوع « أيام » من الحرب والتدمير ، مثل « أيام » الجاهلية الأولى .

ثم ان عبد الملك قرر أن يتخذ من مكان فى شمال الشام — على الحدود بينه وبين العراق — بالقرب من «قنسرين»، ويسمى « بطنان حبيب » — يتخذ منه مركزا لمعسكره مع جيشه كل عام . فيكون أولا قاعدة للهجوم ، ويكون وجوده به مظاهرة لاعلان قوته ، فيخيف أعداءه الروم ، وخصومه فى قرقيسيا والعراق . ثم الى جانب ذلك — أو فوق ذلك — تكون هناك الفرصة متوفرة له ولممثليه وجيشه ، أن يتصلوا بأهل العراق وجيشهم ، لتبادل وجهات النظر وتقديم العروض السياسية ، والوصول الى اتفاقات . وكان كثير من العرب ، فى العراق والشام ، اخوة فى النسب ، ينتمون الى عشائر واحدة . وسيخرج عبد الملك الى هذا المكان ، عدة مرات فى السنوات القادمة . وفى نفس الوقت ، يخرج مصعب بقواته الى نقطة مقابلة على الحدود ، فى شمال

العراق — تسمى « باجميرا » . فيمكثان هناك مدة ، ثم عندما يهجم الشتاء يعودان . وفى هذا المكان قال شاعر فى جيش مصعب :

أكل عام لك باجميرا تغزو بنا ولا تفيد خيرا !

مؤامرة لقلب الدولة !

وفى صيف عام ٦٩ — ٧٠ هـ ، خرج عبد الملك على رأس جيشه من دمشق ، متوجها الى هذا المكان ، يقصد أن يسير ليواصل الحرب ضد قرقيسيا ، ثم بعدها يسير الى حدود العراق . لكنه —وقد صار قريبا من هذا المكان— فوجىء وهو فى طريقه بخبر أفزعه : خبر مؤامرة دبرت ضده ، وممن ؟ : من أحد أفراد أسرته من بنى أمية ، من أحد زعمائها ، وهى طعنة من الخلف توجه الى ظهره ، فى الوقت الذى خرج فيه لملاقاة أعدائه .

وخلاصة هذا الحادث أن عمرو بن سعيد بن العاص — وهو من بنى أمية بن عبد شمس ، فهو بمثابة ابن عم لعبد الملك ، وكان ابن عمته أيضا — كان ما زال يحمل فى نفسه الضغن منذ أن غير مروان بن الحكم نظام ولاية العهد ، فبعد أن كان العهد لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد هذا — كما

كان اتفق عليه فى مؤتمر الجابية — جعله لابنيه : عبد الملك ، ثم عبد العزيز بن مروان . فلم يزل عمرو يضمر الشر ويترقب الفرصة ، حتى جاء هذا الوقت الذى خرج فيه عبد الملك بجيشه ، متوجها الى قرقيسيا فالعراق . فنفذ هذه المؤامرة التى لابد أنها دبرت من قبل ، وأراد أن يقلب الدولة ويخلع عبد الملك ، ويحل نفسه محله فى الخلافة .

والروايات هنا تختلف : فهل كان عمرو مع عبد الملك فى جيشه ، ثم أسرع فرجع فجأة من الطريق ، ودخل دمشق فاستولى عليها وتحصن بها ؟ أم كان عبد الملك قد خلفه وراءه على ولاية دمشق ، أو لعمل آخر ، فكان اذن فى دمشق ، وقام بحركته الغادرة وهو فيها ؟ لكن الذى حدث على كل حال — بعد ذلك — أن عبد الملك عاد بقوته على الفور ، وضرب الحصار على دمشق . وحدثت بعض الاشتباكات ، ثم بعد نحو نصف شهر تمكن من دخولها ، بعد أن كتب صلحا بينه وبين عمرو ، وأعطاه الأمان .

ماذا يعمل عبد الملك اذن ازاء هذا الغدر ، والخطر الجاثم فى بيته وعاصمته ؟ وهل يأمن أن يخرج بعد ذلك بجيشه للحروب ، ويترك دمشق وفيها عمرو وأمثاله — وكان مشتركا مع عمرو فى حركته اخوته وأبناؤه ، وبعض كبار

القواد . فكانت اذن مؤامرة خطيرة ، هددت بضياع دولة عبد الملك والقضاء عليه ، واحباط كل جهوده التى يبذلها ، أو كان ينوى أن يقوم بها . ثم تؤدى الى احداث الفتن والاضطرابات فى الشام ، والى ما لا يمكن أن يتصور من أوخم العواقب .

فالذى حدث أن عبد الملك بعد أن استقر فى دمشق وضبط الأمور — أرسل الى عمرو بن سعيد ، فدعاه الى القصر . فخرج عمرو — وهو لابس درعه تحت القباء ، ومتقلد سيفه ، وبصحبته مائة من مواليه ودخل القصر ، فاجتمع مع عبد الملك وبنى مروان ورجال الدولة . ما الذى جرى فى القصر بالضبط بعد ذلك ؟ . هل كان الأمر قد رتب لقتله ، أم حدث اشتباك ، أو اعتداء فى القصر أدى الى قتله؟ ومن الذى قتله ؟ . هل هو عبد الملك بيده ، أم أحد أقاربه أو مواليه ، أو مولاه : « أبو الزعيزعة » ، المتولى كتابة رسائله . هنا تختلف الروايات وتضطرب . لكن المؤكد أن ثورة حصلت خارج القصر ، فى أثناء وجود عمرو به ، كان على رأسها أخوه يحيى بن سعيد وسائر أسرته ، وبعض القواد الذين اشتركوا فى المؤامرة . وحاولوا اقتحام القصر ، فحدثت معركة جرح فيها الوليد بن عبد الملك ، وكاد أن يقتل . وأخيرا — تغلب الحراس عليهم ، وألقيت رأس عمرو

اليهم ، ونثرت على الناس بدر النقود ، فانفضوا وانتهى الأمر . ثم بعد أن حبس عبد الملك اخوة عمرو وأبناءه ، عفا عنهم وسيرهم جميعا الى العراق . فوفدوا على مصعب. وقابلوه بعد ذلك . بعد انتصاره ودخوله العراق — فبعد شيء من العتب ، عفا عنهم ووصلهم .

هذا هو الحادث . وأكثر الرواة يقولون هنا أن عبد الملك غدر بعمرو بن سعيد ، وأن هذا أول غدر فى الاسلام ، ويسجلونه على عبد الملك . لكن ألا يذكرون أن عمرو بن سعيد هو الذى غدر بعبد الملك ، وأنه هو الذى بدأ بالغدر ؟! . وأى غدر كان ذاك ؟ انه كان غدرا بالدولة كلها ، وبأمنها ونظامها ومستقبلها ؟ فماذا كان يصنع عبد الملك أو غيره ، ازاء ذلك ؟ وأليس هذا ما نسميه فى الدول الحديثة بأنه التآمر لقلب نظام الحكم ، أو الدولة ، واحداث الفتن ومحاولة القضاء على الدولة ، وأليس هذا هو ما نقول عنه : انه الخيانة العظمى ، وجزاؤه — عادة — الاعدام ؟ وهل كان يمكن أن يضحى بالدولة ومستقبلها ، من أجل تحقيق طموح شخصى ، وارضاء كبرياء فرد لا غاية له الا أن يحصل على المجد لنفسه ؟ ؟ ! .

انتهى هذا الحادث على كل حال ، وسارت الدولة فى طريقها .

غارة على العراق

وخرج عبد الملك كعادته — وذلك فى صيف سنة ٧٠هـ — الى حدود العراق . وعرض عليه أحد رجال بنى أمية ، وهو خالد بن عبد الله — أن يوجهه على رأس جماعة من الفرسان. فيدخلوا البصرة ، ويحتلوها . فوجهه عبد الملك . وكانت هذه غارة جريئة ، أو هجوما على خطوط العدو فى قلب بلاده . وقد قدم خالد بالفعل ، فلم يلق مقاومة . وانما وجد من أجاره ، من قبائل بكر والأزد وتميم . . ثم تصالحوا ، على أن يخرج خالد من البصرة وهو آمن . فخرج خالد ورجع الى الشام ، دون أن يمس بسوء .

فهذا الحادث يدل دلالة واضحة على أثر نجاح الوسائل السياسية ، وعلى أنه لابد أن كان هناك اتصال واتفاق بين أهل البصرة ومعسكر عبد الملك ، وعلى تحول كثير من الرؤساء والناس ، من الولاء لمصعب وآل الزبير الى عبد الملك ودولة الشام ، ويبين ضعف موقف مصعب فى العراق . والحقيقة أنه وجد حزب قوى لبنى أمية فى البصرة، وغيرها من بلاد العراق . وكان ممن انضم الى خالد مالك بن مسمع رئيس قبيلة بكر ، والمغيرة بن المهلب من رؤساء

الأزد ، وعبيد الله بن أبى بكرة ، من زعماء ثقيف . وغيرهم .

فبعد أن عاد عبد الملك الى دمشق ، لم يكن لمصعب هم الا أن يقدم الى البصرة . فأحضر الذين اشتركوا فى هـذا الحادث ، فصب عليهم غضبه ، وسبهم جميعا سـبا قبيحا . وضربهم مائة مائة ، وحلق رءوسهم ولحاهم ، وصهرهم فى الشمس ، وهدم دورهم . وهرب منه من هرب . فما زادهم هذا الا حنقا عليه . وما كان هذا ليغنيه عما وصلت اليه الحال فى جبهته ، من تخاذل وتفكك . وسيزداد هذا التفكك ، كلما مر الوقت .

الاستيلاء على الجزيرة

نجحت الوسائل السياسية اذن ،وأصبح الجو فى العراق ملائما للدخـول فى المعركة الأخـيرة . لكن عقبـة قرقيسيا (شمال الجزيرة) لابد أن تزال نهائيا من الطريق ، حتى يكون ظهر الجيش آمنا عند الزحف .

خرج عبد الملك اذن بجيش كبير فى صيف عام ٧١ هـ ، وهو مصمم على الوصول الى الحل النهائى لهذه المسألة . فلا بد من دك الحصن ، واخضاع زفر . فأخذ معه عـدة الحصار والمجانيق . ولما وصل ضرب الحصار حول المدينة ،

وصوب المجانيق على الأبراج . فأمر زفر أن ينـادى أهل عسكر عبد الملك ، فيقال لهم : لم وضعتم المجانيق علينا ؟ ففعلوا . فقالوا : لنثلم ثلمة نقاتلكم عليها . فقال زفر : قولوا لهم انا لا نقاتلكم من وراء الحيطان والأبواب ، ولكن نخرج اليكم .

فلما أصبح زفر دعا الهذيل ابنه ، فقال : اخرج اليهم ، فشد عليهم شـدة لا ترجـع عنها حتى تضرب فسـطاط عبد الملك . والله لئن رجعت دون أن تطأ أطناب فسطاطه ، لأقتلنك . فجمع الهذيل خيله وحمل عليهم ، فصبروا قليلا ، ثم انكشفوا ، وتبعهم الهذيل بخيله حتى وطئـوا أطناب الفسطاط وقطعوا بعضـها ، ثم رجعوا . فقبـل زفر رأس الهذيل ، وقال : لا يزال عبد الملك يحبك بعـدها أبدا . وهكذا جرت أعمال فروسية مثل هـذه ، تدل على الجرأة والشجاعة المعروفة عند العرب .

وظل عبد الملك يقاتل زفر ويحاصره ، أربعين يوما . ورمى المدينة بالمجانيق ، حتى ثلم عامة بروجها . وفى أثناء ذلك ، كتب عبد الملك الى زفر كتابا يدعوه فيه الى الطاعة ولزوم الجماعة ، ويرغبه ويرهبه . وبعث بالكتاب مع رجاء ابن حيوة والحجاج بن يوسف — كسفيرين فى الصلح —

فقال الهذيل بن زفر لأبيه : لو صالحت هذا الرجل ، فقد أكلتك وقومك الحرب ، وأنت مذ سنين فى هذه المدينة . وقد أعطى الناس الرجل طاعتهم واجتمعوا عليه ، وهو خير لك من ابن الزبير . وأمر عبد الملك أخاه محمد بن مروان أن يعرض على زفر وابنه الهذيل الأمان ، على أنفسهما ومن معهما ، وأن يعطيا ما أحبا .

فأجاب زفر والهذيل . واتفق الجانبان على الصلح . وهكذا استقر صلح زفر بن الحارث : على أن آمنه عبد الملك وابنه وكل من معه ، وعلى العفو عن الدماء والأموال ، وأن لا يقاتل زفر مع عبد الملك حتى يموت عبد الله بن الزبير ، لبيعته له ، وأن يعطى مالاً يقسمه فى أصحابه .

فهكذا تم الصلح ، ونزل زفر فقابل عبد الملك ، فأكرمه هذا وأجلسه على سريره . ثم توثقت العلاقات بين البيتين بالمصاهرة . وبذا انتهت مسألة قرقيسيا التى استمرت سبع سنوات ، وكانت كالشوكة فى جنب دولة الشـــام ، وعقبة منعت الاستيلاء على الجزيرة : أى شمال العراق ، وأثارت زوابع من العصبيات القبليـــة كدرت أمن الدولة . فانتهى أمرها وأمر زفر . واستولى عبد الملك على المدينة . وأصبح الطريق مفتوحا أمامه للدخول الى العراق . فلم يضيع وقتا ،

وأخذ يستعد للزحف للالتقاء مع خصمه فى الموقعة الفاصلة، فى العام التالى .

الموقعتان الفاصلتان :

١ ـ الأولى :

الاستيلاء على العراق

عزم عبد الملك اذن على المسير الى العراق لقتال مصعب، وذلك فى خلال عام ٧٢ هـ .

وقبل أن يسير ، كان قد عقد مجلس شورى من بنى أمية وكبار القواد ، فاختلفت آراؤهم . فأشار عليه عمه « يحيى بن الحكم » أن يقنع بالشام ، ويترك ابن الزبير والعراق — وكان عبد الملك يستشير يحيى ، ثم يعمل بعكس رأيه . وقال خالد بن عبد الله : ان العام جدب ، وقد غزوت سنتين ونصرك الله ، فأقم عامك هذا . فقال عبد الملك : الشام بلد قليل المال ، ولا آمن نفاده . وقد كتب كثير من أشراف العراق يدعوننى اليهم . وقال أخوه محمد بن مروان : الرأى أن تطلب حقك وتسير الى العراق ، فانى أرجو أن ينصرك الله . وقال بعض الرؤساء من أهل الشام : الرأى أن تقيم وتبعث بعض أهلك ، وتمده بالجنود . وذلك خشية أن يصاب عبد الملك فى الحرب . فقال عبد الملك :

انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له رأى . ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وانى بصير بالحرب شجاع بالسيف ، ان ألجئت اليه . ومصعب شجاع من بيت شجاعة . ولكنه لا علم له بالحرب ، يحب الخفض . ومعه من يخالفه ، ومعى من ينصح لى . فأجمع رأيه على السير .

ولما عزم على المسير ، ودع زوجته « عاتكة » بنت يزيد — فبكت — وبكى جواريها لبكائها . فقال : قاتل الله كثير عزة ، لكأنه يشاهدنا حين يقول :

اذا ما آراد الغزو ، لم يثن همه
حصان ، عليها عقد در يزينها
نهته . فلما لم تر النهى عاقه
بكت . فبكى مما عناها قطينها

ثم سار ، قائدا جيشه وعدده خمسون ألفا . حتى وصل الى « مسكن » على مقربة من شاطىء دجلة فى شمال العراق .

فلما بلغ مصعبا مسير عبد الملك أرسل الى المهلب بن أبى صفرة يستدعيه ، وأراد أن يخرجه معه . فأبى أهل البصرة وقالوا : لا نسير ، ولا نأمن أن نترك ديارنا وراءنا الا اذا كان المهلب على حرب الخوارج ، فأمره مصعب أن يبقى

فى مهمته . وأرسل الى ابراهيم بن الأشتر .. وكان على ولاية الموصل — فأحضره وجعله على مقدمة جيشه . وأطلع ابراهيم مصعبا على ما دار من مكاتبة بين أهل العراق وعبد الملك ، وجاء بالكتاب الذى بعثه اليه عبد الملك مختوما ، فقرأه مصعب ، فوجد عبد الملك يمنى ابراهيم بولاية العراق . فنصح ابراهيم مصعبا أن يقتل هؤلاء الذين كاتبوا عبد الملك أو ينفيهم الى المدائن ويحبسهم ، فرأى مصعب أن هذا يثير عليه عشائرهم . وقال حينئذ : « رحم الله أبا بحر (الأحنف بن قيس) ، ان كان ليحذرنى غدر أهل العراق ، ويقول : هم كالمومسة تريد كل يوم بعلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا » ! وسار مصعب بجيشه .. وقد خذله كثير — حتى أصبح قريبا من معسكر عبد الملك بمسكن . ولذا تنسب هذه الموقعة الى ذاك المكان .

ولما تدانى العسكران ، أرسل عبد الملك الى مصعب يعرض عليه أن يدع دعاءه الى أخيه ، ويدع هو دعاءه الى نفسه ، ويجعل الأمر شورى بين المسلمين . فأجابه مصعب : السيف بيننا . ثم بدأ القتال . وكان على مقدمة جيش عبد الملك أخوه محمد بن مروان ؛ وعلى مقدمة جيش مصعب ابراهيم بن الأشتر . فالتقى الفريقان . فبعد معركة

قتل صاحب لواء محمد ، وجعل مصعب يمد ابراهيم ، فأزال محمدا عن موقفه . فوجه عبد الملك عبد الله بن يزيد الى أخيه محمد . فاشتد القتال ، فقتل مسلم بن عمرو الباهلى — والد قتيبة — وهو من أصحاب مصعب . وأمد مصعب ابراهيم بعتاب بن ورقاء على الخيل ، فساء ذلك ابراهيم وقال : قد قلت له لا تمدنى بعتاب وضربائه ، وانا لله وانا اليه راجعون . فانهزم عتاب بالناس — وكان قد كاتب عبد الملك وبايعه — فلما انهزم ، صبر ابن الأشتر ، فقتل .

وتقدم أهل الشام فقاتلهم مصعب . وقال لأحد القواد : قدم خيلك . فقال : أكره أن تقتل عشيرتى فى غير شىء . فقال لآخر مثل ذلك ، فلم يتقدم . فقال لثالث ، فقال : ما فعل أحد هذا ، فأفعله ، فعندئذ قال مصعب : « يا ابراهيم ، ولا ابراهيم لى اليوم ! » . وبدت الهزيمة فى جانبه . فدنا منه محمد بن مروان ، وناداه : أنا ابن عمك ، فاقبل أمان أمير المؤمنين . فقال : أمير المؤمنين بمكة . قال له : فان القوم خاذلوك . فأبى ما عرض عليه . فعرض محمد الأمان على عيسى بن مصعب فأبى أن يخذل أباه . ولما صار القوم يتخلون عن مصعب ، صمم على القتال ، وأنشد :

وان الألى بالطف ، من آل هاشم
تأسوا . فسنوا للكرام التأسيا .

يشير الى موقف الحسين السابق ، فى موقف كهذا .

وظل يقاتل هو وابنه ، وأبى ابنه أن يترك المعركة كما أشار عليه أبوه ، الى أن قتل : أى عيسى بن مصعب . وعرض عبد الملك الأمان على مصعب ، وقال له : انه يعز علىّ أن تقتل . فاقبل أمانى ، ولك حكمك فى المال والولاية . فأبى وجعل يضارب . فقال عبد الملك : هذا كما قال القائل :

ومدجج كره الكماة نزاله

لا ممعن هربا ، ولا مستسلم

وظل مصعب يقاتل الى أن أثخن بالرمى وكثرت الجراحات فيه ، وتخلى عنه الناس حتى بقى فى سبعة أنفس ، ثم قتل . فأسف عبد الملك لمصرعه ، حيث كان يود لو قبل منه الأمان . وقال — حين وضعت رأسه بين يديه — : « متى تلد قرشية مثلك ! » . وقال : « كانت والله الحرمة بيننا قديمة . ولكن هذا الملك عقيم ! » . وتحدث عنه غير مرة ، مثنيا على شجاعته وشدة بأسه ومروءته .

ودعا عبد الملك جند العراق فبايعوه . وسار حتى دخل الكوفة ، وخطب الناس فوعد المحسن وتوعد المسيىء ، ودعا الناس الى البيعة فبايعوه . وهكذا تم لعبد الملك النصر ، واستولى على الكوفة والعراق . . وكم كان هذا أملا عزيزا

بعيد التحقيق — فمكنه الله منه . وبذا اتسعت حدود دولته ، وأصبح قريبا من تحقيق هدفه الأكبر ، وهو توحيد الدولة.
ولكنه وهو فى ذروة المجد لم ينس غرور الدنيا وزوالها ، وظهرت فيه طبيعة العابد الناسك القديم ، فتذكر الآخرة ، وذلك حين صنع له أحد زعماء العراق مائدة فى قصر الخورنق — مقر ملوك الحيرة — وأمر عبد الملك أن تكون عامة ، فأذن للناس فدخلوا ، فبعد أن فرغوا من طعامهم ، وأقبل عبد الملك يطوف فى القصر ، وهو يسأل مضيفه : لمن هذا البيت ، ومن بنى هذا ؟ فيخبره — جعل عبد الملك ينشد :

وكل جديد يا أميم الى البلى
وكل امرىء يوما يصير الى كان

ثم أتى مجلسه فاستلقى ، وأنشد :

اعمل على مهل ، فانك ميت
واكدح لنفسك أيها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك ، اذ مضى
وكأن ما هو كائن قد كان

وأقام عبد الملك بالعراق مدة ، فولى الولاة على المصرين : الكوفة ، والبصرة ، وسائر أعمال العراق . وبعث

وهو بالكوفة جيشا عدده ثلاثة آلاف أو أكثر ، جعل قيادته للحجاج بن يوسف الثقفى ، وذلك لمحاربة عبد الله بن الزبير بمكة . وكان ممن ولاهم عبد الملك : أخوه بشر بن مروان على الكوفة ، وخالد بن عبد الله (وهو أموى) على البصرة، ليتولى حرب الخــوارج . ثم رجع الى الشـــام . وذلك سنة ٧٢ هـ .

٢ ـ الموقعة الثانية :

الاستيلاء على الحجاز

لما بلغ عبد الله بن الزبير خبر قتل أخيه مصعب ، قام فى الناس فخطب خطبة تعد من أبلغ وأروع ما يقال فى مثل هذا الموقف : عبر فيها عن جلده وصبره عند الشدائد ، وتسليمه لقضاء الله ، واستهانته بأمر الدنيا . وقال فى آخرها : « ألا انما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ، فان تقبل لا آخــذها أخــذ الأشر البطر ، وان تدبر لا أبك عليها بكاء الضرع المهين » . وأعلن عزمه على مواصلة القتــال .

كان هذا هو شعور عبد الله بن الزبير ، وهو الشـــعور الجدير بمثله . لكن فى الحقيقة كان الموقف قد أصبح فى غاية

الحروجة بل الخطورة ، بالنسبة له . فان استيلاء منافسه : عبد الملك على العراق كان معناه أن دولته بالحجاز قد صارت أيامها معدودة . فان العراق اذا انضم الى الشام ومصر ، فقد أصبح فى يد عبد الملك معظم الدولة الأصلية الكبرى ومعظم القوة ، ولن يستطيع الحجاز أن يقف أمامها طويلا . على أن العراق كان هو الجناح الأيمن الذى يحمى الحجاز ، وكان ابن الزبير يستمد منه المدد لصد غارات الشــام ، فالآن قد انكسر الجناح وضاع ، وذهبت الحماية . ولذا فان عبد الملك كان مصيبا حين اختار أن يوجه ضربته الأولى القاضية الى العراق ، لا الى الحجاز . وكانت هذه هى « الاستراتيجية » أو الخطة الحربية السليمة . فأصبح الحجاز بعدئذ محصورا ، وغدا ابن الزبير محصورا فى مدينته « مكة » . وهذا القطر قليل الموارد ، فيمكن أن يسلم حتى بالحصار ، من غير حرب .

وجاء الحجاج — أحد جبابرة العرب — بجيشه الذى ذكرناه ، فوصل الى الحجاز ونزل بالطــائف . وهى بلدته الأولى لأنه من ثقيف — ثم بدأ حصاره لعبد الله بن الزبير فى مكة فى أول ذى القعدة من عام ٧٢ هـ . وبعد المناوشات التمهيدية أرسل الى عبد الملك يستمده ، فأمده بجيش آخر على رأسه طارق بن عمرو . فاحتل هذا الجيش المدينــة فى

طريقه ثم وصل الى مكة ، وانضم الى الحجاج . والواقع الذى يسجله التاريخ أن عبد الله بن الزبير ، ومن ثبت معه ، قد ضربوا مثلا رائعا فى الشجاعة والصبر ، اذ استطاعوا أن يصمدوا أمام هذا الجيش المحاصر لهم — مع تفوقه عليهم فى العدد والعدة والمئونة — وحالوا بينه وبين أن يستولى على مكة والحرم ، مدة طالت نحو سبعة أشهر — على حين أنه كان يكفى مثل هذا الجيش نحو شهر — أو أقل — لاتمام المهمة . وقد لجأ الحجاج الى استخدام المنجنيق ، فنصبه على جبل مشرف على مكة ورمى به خصومه . ويروى أن الحجارة كانت تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى ، فلا ينصرف .

لكن الحصار كان لابد أن يحدث أثره ، بمرور الوقت . فنضبت المؤن وأصابت أهل مكة مجاعة شديدة ، أجهدتهم مع القتال . وكان الحجاج — وفقا لما أمره به عبد الملك — قد عرض الأمان على عبد الله بن الزبير وأصحابه ، وأهل مكة . فلما طال الحصار وبلغ الجهد بالناس غايته ، رأى أكثرهم أن يخرجوا الى الحجاج ويقبلوا الأمان . فأخذوا يتخلون عن عبد الله بن الزبير ، حتى بلغ من خرجوا من عنده عشرة آلاف ، ومن بينهم ابناه : حمزة وخبيب .

حديث بين أم عربية وابنها

فلما رأى عبد الله قلة من معه ، وأن المعركة قاربت نهايتها — دخل على أمه ، وهى السيدة أسماء بنت أبى بكر ، ليودعها. فجرى بينه وبينها حديث ، يعد من أعظم ما سجل من أحاديث فى أوقات الخطر ، ويشهد بقوة النفس والبطولة : لكل من الأم العربية وابنها البطل .

قال عبد الله : « يا أماه ، قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى الا اليسير ، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟

فقالت : أنت أعلم بنفسك . ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك ، يتلعب بها غلمان بنى أمية . وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهـذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ! .

فقال : يا أماه ، أخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى .

قالت : يابنى ، ان الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها . فامض على بصيرتك ، واستعن بالله .

فقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا الى يومى هذا . ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها .

فقالت أمه : انى لأرجو من الله أن يكون عـزائى فيك حسنا . ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك . اخرج حتى أنظر الى ما يصير اليه أمرك .

فقال : جزاك الله خيرا ، فلا تدعى الدعاء لى .

قالت : لا أدعه لك أبدا . فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق .

ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى . اللهـم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت . فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فقبل يدى أمه ، ثم خرج ، فعبأ أصحابه ، وحرضهم وقال لهم احملوا على بركة الله . ولا يلهينكم السؤال عنى ، فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الأول . وحمل على مهاجميه حملة منكرة ، فقتل منهم ، ثم تكاثروا عليه فانكشف هو وأصحابه . فقال له بعضهم : لو لحقت بموضع كذا . قال :

« بئس الشيخ أنا اذا فى الاسلام ، لئن أوقعت قوما فقتلوا ، ثم فررت عن مثل مصارعهم » . وظل يقاتل قتال الأبطال ، وهو « مثل الأسد فى أجمة » ! حتى أثخنته الجراحات ، وقتـــل . وكان قتاله يوم الثـــلاثاء لسبع عشرة مضت من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ . وهكذا انتهت فترة من التاريخ استمرت تسع سنوات متتالية ، منذ قام عبد الله بن الزبير يدعو الى نفسه بالخلافة عقب موت يزيد فى عام ٦٤ هـ — وكم حدث فى هذه الفترة من وقائع وخطوب . وعلى الأثر ، دخل الحجاج مكة واستولى عليها ، فبايع أهلها لعبد الملك ابن مروان . وبدأ منذ ذلك الوقت عهد جديد .

* * *

فالآن قد استولى عبد الملك على الحجاز ، كما استولى فى العام السابق على العراق . وكان تحت يده الشام ومصر . فاجتمعت اذن هذه الأقطار — وهى الأركان الأربعة للوطن العربى ، والعمد الرئيسية لدولة الاسلام — اجتمعت مرة أخرى لتكون دولة واحدة ، تحت لواء خليفة واحد . فالنقطة المهمة فى الموضوع أن المنافس فى الخلافة ، وهو ابن الزبير ، قد انتهى ، وانتهت دولتـــه التى بها كانت تنشـــطر الدولة الأصلية الموحدة الى قسمين ، فلم يعد هناك مدع للخلافة

أو معلن حقه فيها ، ولم يعد الولاء موزعا ، وانما قد أصبح في الدولة العربية الاسلامية خليفة واحد ، وهو عبد الملك ابن مروان ، وهو وحده الذى يدعى « أمير المؤمنين » . وأصبح لهذه الدولة كلها عاصمة واحدة الآن ؛ وهى « دمشق » .

والكلمة الأخيرة التى تقال عن عبد الله بن الزبير أنه كان رجلا مسلما تقيا عابدا الى درجة مثالية ، كما كان شجاعا أبيا الى درجة البطولة -- كما رأينا - وكان يعتقد أنه على الحق وأنه يدعو للحق ، ومن أجل هذا جاهد وقاتل . لكن هذا كله لا يعنى أنه كان كفؤا أيضا بدرجة متساوية -- فى ناحية السياسة والادارة ، وتصريف الأمور وقيادة الجماهير . بل الواقع -- الذى رأيناه -- أنه كان ينقصه كثير من الصفات اللازمة لتوفر هذا الشرط : كان أقل من عبد الملك كثيرا فى ذلك . وقد بينا فى الماضى أهم صفاته وعيوبه ، وحللنا العوامل التى أدت الى عدم نجاحه . فلا نحتاج لاعادتها هنا . لكنا نذكر بعامل هام ، وهو ملازمة ابن الزبير لمكة لا يبرحها أبدا . فهل مما يشهد على الكفاءة فى القيادة والادارة ، والنجاح فى الزعامة السياسية ، أن تحكم الدولة وتدار وتوجه والقائد أو الزعيم غائب عنها ؛ معتكف

فى مكان بعيد لا يريد أن يفارقه ؟ ! . وعلى الأقل — كان عبد الملك شابا بالنسبة الى ابن الزبير ، الذى كان شيخا كبيرا . فهذه الصفة تساعد الأول على النشاط ، وتمكنه من مباشرة الأمور . كما أن عبد الملك كان — قطعا ، كما عرفنا من سيرته السابقة ، فى حياته الطويلة بالمدينة — كان أرقى ثقافة دينية وعربية من ابن الزبير ، وأكثر ذكاء وخبرة عملية . ان بنى أمية — على العموم — كانوا ممتازين فى السياسة والادارة . وعبد الملك كان من أكفئهم فى ذلك .

أمثلة البطولة العربية

وقبل أن نجتاز هذه الفترة من حياة الأمة — فترة الخلاف والانقسام والحروب ... أو فترة الفتنة كما كانت تسمى — ويمكن أن يقال انها بدأت منذ عام ٦١ هـ — منذ خروج الحسين الى الكوفة ، واستمرت الى هذا العام ٧٣ هـ ، فانتهت بمقتل عبد الله بن الزبير فى مكة — أى أنها استمرت ثلاثة عشر عاما — نقول : اننا نريد أن نلاحظ ، قبل أن نعبرها ، أننا شاهدنا — فى نفس الوقت — مظاهر مثيرة من حيوية أمة العرب والاسلام ، وأن كل فريق قام ليدافع عما يعتقد أنه الحق . وشاهدنا أمثلة رائعة من البطولة وقوة

الشخصية العربية الأصيلة التى لا تقبل الذل ، وتفضل الموت فى كرامة على الحياة الذليلة . وعرفنا كيف أنها تقدر الشرف فوق الحياة ، وكل عروض الدنيا . فكانت قوة مستمدة من روح العروبة الحقة ، ومن قوة عقيدة المسلم وعزة نفسه . رأينا كيف قابل الأبطال الموت فى كبرياء وتحدى ، فعاشوا أمجادا وماتوا كراما . وهكذا رأينا مصارع عبد الله بن الزبير، ومن قبله أخوه مصعب بن الزبير ، وابراهيم بن الأشتر ، ومن قبلهم المختار بن أبى عبيد ، وسليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة . وقبل الجميع البطل الأكبر ، الذى تحـدى جيشا بمفرده ، وانتصر عليهم بقوة ارادته وروحه ، وهو الحسين عليه السلام . ولو اضطرت الظروف عبد الملك أن يقف فى مثل هذه المواقف الحرجة ، لكان مثل هؤلاء الأبطال ، ولقابل الموت فى شجاعة بدلا من التسليم بالذل ، لأنه عربى مثلهم مؤمن مثلهم ، بل من أصفى معادن العروبة ، وعلى درجة عالية من قوة الايمان . لكنه لم يضطر الى ذلك ، لأنه وفق فى حياته وانتصر فى النهاية فى حروبه ، واستعمل السياسة الموصلة الى الغايات قبل السيف ، وكتب الله له أن يكون القائد الذى يوحد صفوف الأمة ، والزعيم الذى يجمع شملها ويعيد وحدتها وقوتها .

الفصل الثامن

عام الجماعة وإتمام الوحدة

لما كان عام ٧٤ هـ هو أول عام يحل وكلمة الأمة مجتمعة بعد خلاف طويل ، وقد انتهى النزاع حول الخلافة ، فقد سمى الناس هذا العام بعام الجماعة . والمقصود بالجماعة: الوحدة . وهو عام الجماعة الثانى ، لأنه سبق عام جماعة أول .. وكان ذلك عام ٤١ هـ حين اجتمعت كلمة الأمة على معاوية ، بعد تنازل الحسن بن على .

وقد تمت البيعة لعبد الملك بن مروان فى الحجاز والعراق ، كما تمت البيعة له من قبل فى الشام ومصر . وكانت البيعة جاءته أيضا من خراسان فى عام ٧٢ هـ — أرسلها اليه بكير بن وشاح السعدى الذى كان نائبا على « مرو » ، وذلك بعد مقتل عبد الله بن خازم ، الذى تغلب على خراسان ثمانى سنوات ، وكان مواليا لابن الزبير . ثم تأكدت بيعة خراسان فى هذا العام ٧٤ هـ . وأرسلوا يطلبون من عبد الملك أن يولى عليهم أميرا قرشيا ، حتى

لا تختلف عليه القبائل . فولى عليهم « أمية بن عبد الله » — وهو أموى قرشى أخو « خالد بن عبد الله » ، الذى ولاه على البصرة .

وبايع من الزعماء الذين يعتد برأيهم المهلب بن أبى صفرة — وكان القائد على حرب الخوارج — فأرسل ببيعته الى عبد الملك بن مروان ، عندما علم بمقتل مصعب فى عام ٧٢ هـ ، وأخذ البيعة لعبد الملك على الجند . فأقره عبد الملك على عمله ، وسر بطاعته . وتوجه عروة بن الزبير على اثر مقتل أخيه عبد الله الى عبد الملك ، فوفد عليه فى دمشق وبايعه — وكان صديقا له من قبل فى المدينة — وأخذ الأمان لنفسه وأهله . وبايع عبد الله بن عمر عقب مقتل عبد الله بن الزبير ، فكتب الى عبد الملك يقول : « لعبد الملك بن مروان من عبد الله بن عمر . سلام عليك . فانى أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه » . كذلك بايع محمد بن الحنفية (أخو الحسين . وهو ابن على بن أبى طالب). ولبيعته أهمية كبيرة ، لأنه عميد بنى هاشم فى ذلك الوقت ، وزعيم الشيعة . فهو يمثل احدى طوائف الأمة . فبعد مقتل عبد الله بن الزبير ومبايعة عبد الله بن عمر لعبد الملك ، قال عبد الله بن عمر لمحمد بن الحنفية : « ما بقى شىء ، فبايع » .

فكتب ابن الحنفية الى عبد الملك : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من محمد بن علي . أما بعد ، فانى لما رأيت الأمة قد اختلفت اعتزلتهم . فلما أفضى هذا الأمر اليك وبايعك الناس ، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك ،كنت كرجل منهم أدخل فى صالح ما دخلوا فيه . فقد بايعتك ، وبايعت الحجاج لك ، وبعثت اليك ببيعتى . ونحن نحب أن تؤمننا وتعطينا ميثاقا على الوفاء » .

فكتب اليه عبد الملك : « انك عندنا محمود . أنت أحب وأقرب الينا رحما من ابن الزبير . فلك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لا تهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه . ارجع الى بلدك واذهب حيث شئت . ولست أدع صلتك وعونك ، ما حييت » . وكتب الى الحجاج يأمره بحسن جواره واكرامه . فرجع ابن الحنفية الى المدينة وبنى بها داره وأقام بها .

وكان مما كتب عبد الملك الى الحجاج فى هذا الشأن : « لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه » . وكان فى كتابه « جنبنى دماء آل أبى طالب . فليس فيها شفاء من الحرب . وانى رأيت بنى حرب سلبوا ملكهم ، لما قتلوا الحسين بن على » . وبناء عليه ، لم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه . وهذا الأمر من عبد الملك يدل على حكمته السياسية وسعة صدره وأفقه ، وأنه استخلص العبرة من

الأخطاء التى ارتكبها يزيد ، فلا يريد أن يقع فيها . وظلت علاقة « محمد بن على » به طيبة . فكتب اليه محمد يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له ، فلما جاءه فى عام ٧٨ أكرمه ووصله ، وقضى ديونه وحوائجه . وهكذا حتى مات محمد فى عهد عبد الملك فى عام ٨١ هـ آمنا سعيدا . أما آل العباس فكانوا انضموا أيضا الى عبد الملك من قبل ، وكان عبد الله بن العباس لما امتنع عن البيعة لابن الزبير — كما ذكرنا من قبل — أرسل ابنه « عليا » الى عبد الملك وبايعه . فظل « على » — وهو جد الخلفاء العباسيين — مع عبد الملك حتى خرج معه لقتال مصعب . وبقى موضع العطف والرعاية . وهكذا كانت العلاقات حسنة بين عبد الملك ، أو بنى أمية على العموم ، وبنى عمهم من بنى هاشم — علويين وعباسيين — وذلك فى عهد عبد الملك . وظلت العلاقات حسنة بين الأسرتين مدة غير قصيرة بعد ذلك . وهذا مما يشهد بحسن السياسة .

* * *

ولا شك أن من أهم العوامل التى ساعدت عبد الملك على النجاح ، ودعت الناس — ولا سيما هؤلاء الزعماء — الى الالتفاف حوله والرضا به ، والاقبال على مبايعته — على خلاف ما كان الحال مع غيره — هو شخصيته ومعرفة الناس أنه يتمتع بالصفات المتميزة التى تؤهله للزعامة

أو تتوافر فيه الشروط اللازمة للخلافة . وفى مقدمة ذلك ما عرف عنه من طيب النشأة وحسن السيرة والخلق — على النحو الذى وصفنا فى أثناء حيـاته الطويلة بالمدينة — واجتهاده فى العبادة والعلم . ولا نعرف ما يدل على أن هذه السيرة قد تغيرت بعد توليه الخلافة ، وان كان وقته قد أصـبح مشغولا بشئون السياسة والحرب والادارة أكثر من غيرها . ولكن هذه أيضا خدمة للمسلمين ، وعبادة جليلة بل من أجل ضروب العبادة .

فالآن قد أعان الله عبد الملك على تحقيق هـدفه الأكبر والأمنية الغـالية لجميع المسلمين وهى جمع شـمل الأمـة وتوحيدهم فى دولة واحدة . وهذا هو الضمان لبقاء الأمة وازدياد قوتها . وقد كلل عبد الملك هذه المرحلة من النجاح بأن توجه الى الحج ، فذهب الى الحجاز وحج بالناس فى موسم عام ٧٥ هـ . وأقام مدة بمكة ثم المدينة ، وتحدث الى الناس وخطبهم ورسم لهم سياسته . والواقع أن تحركه من دمشق الى مكة والمدينة فى تلك السنة انما كان موكب الظفر ، لدخوله المدن التى كان فيها خصومه والتى طالما شنت الحـرب . فها هى ذى تعـود لتبايعه وترضى به — وما كان عبد الملك غريبا عن المدينة — ومنذئذ يندمج الحجاز مع الأقطار الأخرى فى الدولة الواحدة : دولة العرب والاسلام الموحدة ، التى ستستأنف سيرها نحو النصر .

معارك تصفية

لاتمام الوحدة

تحققت وحـدة الدولة ، وبايع العواصـم والأقطار لعبد الملك . لكن فئة شاذة ، قليلة بالنسبة الى كثرة الأمة ، بقيت خارجـة كدأبهـا على ارادة الجماعة . وهم المتطرفون ، الذين أداهم تعصبهم الى المروق من الدين ، وشنوا الحـرب على المسلمين ، وهم الخوارج . وكانوا طائفتين : طائفة ببلاد فارس وهم الأزارقة ، وكانوا أشدهم ، وطائفة باليمامة ، وهم أتباع نجدة وأبى فديك . كما كانت هناك جماعات أخرى صغيرة .

غير أن مسألة الخوارج بعد توحد الدولة قد أصبحت أشبه بحركة تمرد ، وصارت مشـكلة محدودة ، وبانت نهايتها قريبة ومحتومة . وكل ما كان يتطلب هو أن تصدق الجهود وتعد القوة الكافية وتوضع الخطة السليمة ، لمقاومتها والقضاء عليها . على ان الخوارج وقد عرفوا بالبطولة والحماسة وشدة البأس كانوا لابد أن يكلفوا الدولة جهودا وأعباء غير قليلة ، ويخوضوا معارك عنيفة ، قبل أن يقضى عليهم نهائيا . ومهما يكن من أمـر المعارك

الباقية ، فهى لا تصح أن تسمى الا أنها « معارك تصفية » . ونكتفى بايراد موجز تاريخى لها .. وستكون هذه المشكلة هى المناسبة لظهور شخصية معروفة : هى شخصية « الحجاج » .

اهتم عبد الملك بأمر الخوارج بمجرد أن استولى على العراق ، عقب مقتل مصعب عام ٧٣ هـ . وأرسل اليه المهلب حينئذ ببيعته ، وبيعة جنده . فعين عبد الملك على البصرة أحد رجال بنى أمية ، وهو « خالد بن عبد الله » وأمره بقتال الخوارج . وكان رئيس الخوارج حينئذ هو « قطرى بن الفجاءة » . وكان المهلب يحاربه طوال مدة مصعب ولم يقدر على انزال هزيمة كبيرة به ، لضعف دولة ابن الزبير واختلال الأحوال . لكن المهلب كان أعرف الناس بالخوارج ، وأصلح قائد لقيادة الحرب ضدهم . فارتكب « خالد » بعد أن ولى البصرة خطأ كبيرا ، وهو أنه عزل المهلب عن ولاية الحرب ، وعينه على ولاية الخراج بالأهواز . وبعث مكانه أخاه « عبد العزيز بن عبد الله » ، على رأس جيش جديد . فهزم عبد العزيز هزيمة منكرة ، على يد قطرى والخوارج ، وتفرق جيشه . فلما بلغ عبد الملك الخبر ، أرسل يؤنب « خالدا » تأنيبا شديدا ، لبعثه أخاه « أعرابيا من أهل مكة » على

القتال ، وتركه المهلب الى جانبه يجبى الخراج . « وهو الميمون النقيبة ، الحسن السياسة ، البصير بالحرب ، المقاسى لها ابنها وابن أبنائها » -- كما قال عبد الملك . وأمره أن يعيد المهلب الى الحرب ، ويستشيره فى كل الأمور .

وفى نفس الوقت ، كان خالد قد بعث بجيش آخر -- على رأسه أخ ثان له ، هو « أمية بن عبد الله » - ليقاتل الخوارج الآخرين ، الذين هم باليمامة . وكان رئيسهم اذ ذاك هو « أبو فديك » ، الذى خرج منذ قليل على « نجدة بن عطية » الزعيم السابق ، وقتله . فسار أمية بجيشه ، فهزمه أبو فديك وتفرق عنه القوم ، فعاد وعادوا الى البصرة .

فبعد أن كتب عبد الملك الى خالد بما مر ، خرج خالد بنفسه ، وأحضر معه المهلب . وأمده بشر بن مروان الذى كان والى الكوفة -- بجيش آخر -- كما أمره أخوه عبد الملك - فأحرز خالد نصرا على الخوارج ، واضطرهم الى التقهقر عن الأهواز . وأرسل وراءهم من يتتبعهم ، ويقتل فيهم . وآمر عبد الملك بشرا أن يرسل أيضا مددا من الكوفة ، على رأسه « رجل شجاع بصير بالحرب » فأرسل مددا ، عليه عتاب بن ورقاء . فما زال الجندان يتتبعان الخوارج ، حتى نفقت خيولهم وأصابهم الجهد . فرجعوا الى البصرة .

وفى العام التالى ٧٣ هـ ، وجه عبـد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر - - وهو القائد المجرب ، نظير المهلب — على رأس جيش كبير ، لقتال خوارج أبى فديك . فلما انتهى عمر بجيشه الى البحرين ، حدثت موقعة عنيفة ، كاد أن يهزم فيها ، لولا ثبات أهل الكوفة وأبطال البصرة . ثم دارت الدائرة على أبى فديك ، فقتل ، وهزم جيشه وحصر . ثم نزلوا على حكم عمر بن عبيد الله ، فقتل أكثرهم ، وأسر أعداداً كبيرة . وانتهى أمر هؤلاء الخوارج .

بشر بن مروان

عزل عبد الملك خالدا عن البصرة فى ذاك العام ٧٣ هـ ، وولى عليها أخاه بشرا مع الكوفة . فأصبح بشر بن مروان والى العـراق كله . وبعث اليه عبد الملك حينئذ ، بهذا الكتاب : —

« أما بعد ، فابعث المهلب فى أهل مصره الى الأزارقة . ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم ، فانه أعرف بهم . وخلّه ورأيه فى الحرب ، فانى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين . وابعث من أهل الكوفة بعثا كثيفا ، وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا

حسيبا صليبا ، يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب . ثم أنهض اليهم أهل المصرين ، فليتبعوهم أى وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم . والسلام عليك » .

وهذه الرسالة والأحداث السابقة تدل على شدة اهتمام عبد الملك بمسألة الخوارج ، وتشهد باشرافه على الأمور ومباشرته لأعمال الدولة . فهو الذى يصدر التوجيهات ويضع الخطط ويرسم الحلول . وهذا دليل على كفاءته وسهره على مصلحة الأمة .

نفذ بشر أوامر أخيه — على مضض . اذ كان ينفس على المهلب ما بلغه من مكانة . وأرسل معه قائدا آخر ليعارضه . وخرج الجيشان ، ولكن بعد وصولهم الى الميدان بقليل ، جاء الخبر بنعى بشر . كانت وفاته فى عام ٧٤ هـ . فسرى التخاذل فى الجيش . وارفض ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة . وأخذوا ينصرفون الى العراق . وعبثا حاول « خالد بن عبد الله » الذى كان نائب بشر على البصرة ، وكان واليها من قبل عبثا حاول أن يرد الناس الى الميدان ، ليؤدوا واجبهم . وكتب اليهم هذا الخطاب :

« أما بعد ، فان الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض

طاعة ولاة الأمر ، فمن جاهد فانما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهاد فى الله كان الله عنه أغنى . ومن عصى ولاة الأمر والقئوام بالحق أسخط الله عليه .. أيها المسلمون ، اعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم . انه عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، الذى ليست فيه غميزة ، ولا لأهل المعصية عنده رخصة . سوطه على من عصى ، وعلى من خالف سيفه . فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلا .. » . فما أجدى كل ذلك ، واستهتر الناس بالأوامر ، وتفرق الجند . وعادوا الى بلادهم ، وصار الموقف خطيرا .

الحجاج فى العراق

فلما بلغ ذلك عبد الملك ، قرر اتباع سياسة الشدة والحزم ، والغلظة على أهل المعصية . ورأى أن أهل العراق الذين مرنوا على العصيان ، وطالما أوضعوا فى الفتن وسلكوا سبل الغى ، وآثروا الخلاف والشقاق — رأى أنه لا يصلحهم الا الشدة والقوة . « فنثر كنانته ، ثم عجم عيدانها » ، فانتقى « أمرّها عودا وأصلبها مكسرا » ، فرمى به أهل العراق . وكان هذا العود المرير الصلب هو : « الحجاج بن يوسف الثقفى » الذى كان القائد فى حرب عبد الله بن الزبير ،

والذى ولاه عبد الملك بعد ذلك ولاية الحجاز ٧٣ — ٧٥ ، ثم فى هذا العام ٧٥ هـ — بعد أن فرغ عبد الملك من مشاكله ، وحقق وحدة الدولة — نقله من الحجاز ، وعينه واليا على العراق كله وعلى المشرق — ماعدا خراسان وسجستان .

فجاء الحجاج الى الكوفة ، وصعد منبرها ، وخطب خطبته المشهورة التى كانت كلها تهديدا لأهل العراق ، والتى قال فيها : « وانى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها » . وقال : « والله لأضربنكم ضرب غرائب الابل ، حتى تذروا العصيان وتنقادوا » . ثم قال فى آخرها : « وقد بلغنى رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم — عصاة مخالفين . وانى أقسم لكم بالله ، لا أجد واحدا بعد ثلاثة أيام — الا ضربت عنقه » . كانت هذه هى السياسة ، التى أعلن الحجاج أنه سيتبعها مع أهل العراق . وهى سياسة الحكم العرفى أو الحكم العسكرى — كما نقول اليوم — وجرى عليها الحجاج طوال حكمه .

المهلب والخوارج

وقد أجدت هذه السياسة ، فيما يتعلق بتنفير الناس الى حرب الخوارج ، ولحوقهم بالمهلب . فاجتمع اليه جند

كثير ، وأصبح جيشه قويا مستعدا لمجابهة الخوارج ، فى المعركة الأخيرة . ونشط المهلب الى حرب الخوارج ، فقاتلهم قتالا شديدا . لكن التغلب على الخوارج — مع ذلك — لم يكن بالأمر السهل ، فهم كانوا « سباع العرب » — كما وصفهم المهلب . وفى بعض المواقع ، قتل أحد كبار قواد المهلب . ثم اضطر الخوارج — كدأبهم — الى التقهقر ، واتباع الحركة السريعة . فما زال المهلب يقاتلهم ويناهضهم ، ولا يتمكن منهم من موقعة فاصلة . وذلك طوال عام ٧٦ هـ . وكان هو يفضل الصبر والمكث ، حتى تضعف قوتهم ، ويصيب منهم المقتل . فلما أجلوا عن فارس كلها ، وبعدت ديارهم ، ضاق عليهم العيش وقلت مواردهم ، وانحصروا فى كرمان . فتبعهم المهلب ، وواصل قتالهم . وكانت أشد موقعة له معهم هى موقعة « يوم البستان » ، فى عام ٧٧ هـ . وكان أبناء المهلب أبطالا ، يقاتلون معه فى كل هذه الحروب . وقد وفد عليهم رسول من قبل الحجاج لينظر أمرهم ، فقال للمهلب : « ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أبأس ولا أصبر . أنت والله المعذور » .

وأخيرا — وقع الخلاف بين الخوارج أنفسهم . فخلع

أكثرهم « قطرى بن الفجاءة » ، وولوا بدلا منه « عبد ربه الكبير » . وبقى مع قطرى نحو ربعهم أو خمسهم . فتحاربوا وظلوا يقتتلون شهرا . ورأى المهلب أن لا يقاتلهم ، حتى يضعف بعضهم بعضا على خلاف رأى الحجاج ، الذى كان يريد أن يقاتلهم حينذاك وكان رأى المهلب أصوب . فانكشف قتالهم عن خروج قطرى بمن معه ، الى طبرستان . وبقى عبد ربه ومن تبعه ، وقد ضعفت قوتهم . فحمل عليهم المهلب حينئذ ، حملة أخيرة صادقة . فهزمهم هزيمة تامة ، ولم ينج منهم الا القليل . واستولى على معسكرهم وما فيه . وهكذا انتهى أمر هؤلاء الخوارج . وذلك فى عام ٧٧ هـ .

أما قطرى ومن سار معه فقد توجهوا الى طبرستان . فأرسل الحجاج اليهم جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد من أهل الشام فلحقوا بقطرى ، فى شعب من جبال طبرستان . فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه . ووقع عن دابته فى أسفل الشعب وأصيب . فأسرع اليه نفر من أهل الكوفة فقتلوه ، وأخذوا رأسه الى الحجاج فأرسلها الى عبد الملك . وتتبع سفيان من بقى من جيش قطرى ، حتى حصرهم فى مكان بعيد اسمه « قومس » . فظلوا حتى جهدهم الحصار ولم يجدوا طعاما ، فخرجوا فقاتلوا فقضى عليهم . وكانت هذه هى نهاية الخوارج الأزارقة فى عام ٧٧ هـ

ـ بعد أن لبثوا يشنون الحرب على جماعة المسلمين منـذ عام ٦٤ هـ ، حين خرجوا مع ابن الأزرق — بلا انقطاع .

صالح وشبيب

وفى نفس الوقت ، كان خرج خارجيان على الحجاج ، شديدا البأس : أولهما « صالح بن مسرح التميمى » — الذى خرج بالجزيرة شمال العراق فى عام ٧٦ هـ . فأرسل اليه محمد بن مروان جيشا ، فهزمه . فأرسل اليه الحجاج جيشا آخر ، فقاتل صالح أشد قتال حتى قتل فى ذاك العام .

وأما الثانى فهو « شبيب بن يزيد الشيبانى » — وكان أقوى شكيمة وأشد بأسا ، وأكثر براعة فى فنون القتال . خرج هذا الرجل مع صالح وكان على مذهبه — ثم حل محله بعد أن قتل ، وانضم جند صالح اليه . وكان أمـر شبيب عجيبا . وقصته ما هى الا ملحمة ، تشبه احدى أساطير الأبطال القدماء . لقد ظل شبيب يقاتل فى جماعة قليلة لا تزيد على ألف ، فلم يستطع أحد أن يتغلب عليه . كانت حربه أشبه بحرب العصابات : لا يثبت فى مكان ، يتقن الكر والفر والحركة السريعة ، ويوجه الضربة المباغتة . ولبث الحجاج يرسل اليه الجيش وراء الجيش ، فيبدد الجيوش ويقتل

القواد . وهزم وقتل عددا من كبار قواد الكوفة . ودخل الكوفة مرتين ، ووضع الحجاج فى مأزق . وكاد أن يستولى على المدينة . ولولا ثبات الحجاج - وكان يثبت فى موقف الخطر — وقيادته المعركة بنفسه ، لتم لشبيب ما أراد .

وكان من أسباب نجاح شبيب أن أكثر جند العراق كان متغيبا ، مشغولا بحرب الخوارج الأزارقة ، فى نفس الوقت - على ما وصفنا من قبل كما أن العلاقات كانت سيئة بين أهل العراق والحجاج ، لسياسته الشديدة وجبريته ، فلم ينقذ الحجاج الا أهل الشام ، حيث أرسل الحجاج يستنجد بعبد الملك ، فأنجده بجيش من الشام . وعلى يد هذا الجيش ، تمت هزيمة شبيب . لكنه لم يقتل فى معركة ، وانما مات غرقا فى نهر ، وهو يعبر بحصانه على قنطرة عليه ، فزلت قدم فرسه ، فوقع بصاحبه فى الماء . وكان ذلك فى سنة ٧٧ أيضا . فياله من فارس هزم الفرسان . وبطل أعيى الأبطال .

سياسة الحجاج

لكن هذا كله لا يبرر عدم نجاح الحجاج فى القضاء عليه بسرعة ، وهزيمته أو قتل هذا العدد من القواد ، الذين أرسلهم اليه . فهذا يبين — أولا - نقصا فى كفاءة الحجاج .

ويشير ثانية — الى ناحية خطيرة ، وهى أن سياسة الشدة والغشم ، التى اتبعها الحجاج ، اذا كانت أجدت فى اخراج الناس لحرب الخوارج — فانها فى ذات الوقت قد أفسدت قلوبهم ونياتهم ، وأصبحت الجفوة بعيدة بين أهل العراق وبينه . ولقد صار أهل العراق يكرهونه ، الا من كانت مصالحهم تتفق مع البقاء معه . وهذه السياسة أدت الى قيام ثورة فى البصرة عليه فى خلال عام ٧٦ هـ — قادها عبد الله بن الجاورد ، وأيده عدد من القواد . وكاد الحجاج يهلك فيها أيضا ، لولا ثباته وحسن حظه ، وانضمام بعض القواد اليه . ولم يكن هناك من سبب قوى لكى يعرض نفسه لهذه الثورة ، وهذا الخطر . فقد كان سببها أنه رفض أن يجيز زيادة فى أعطيات الجند ، كان قررها مصعب فى أواخر أيامه . فكان رفض الحجاج لهذه الزيادة — فى الواقع — تعنتا وبخلا — ولا سيما أن بشر بن مروان كان أقر هذه الزيادة . فكان أحسن فى السياسة لو أجاز الحجاج هذه الزيادة ، وبذلك يرضى الناس والقواد ، ويضمن تأييدهم بدل اغضابهم واثارتهم . ان التضحية بالأموال خير من التضحية بالرجال . ولئن كان الحجاج نجح فى اخماد الثورة والقضاء على من خرجوا عليه ، فما كسب بذلك بل خسر كثيرا .

وقد أدت هذه السياسة أيضا الى ثورة رجل من أهل بيت ، عرف باخلاصه للدولة — وهو « مطرّف بن المغيرة بن شعبة » — وكان اذ ذاك واليا على « المدائن » . فلم يرض عما وصفه بأنه : « سياسة جور وتسلط بالجبرية » ، وقام بثورة فى عام ٧٧ هـ ، تبعه فيها ناس كثير . فأرسل اليه الحجاج جيشا ، فلحق بالجبال . وما زال يقاتل ، حتى قتل فى ذاك العام . وسيكون لشدة الحجاج وجبريته أيضا آثار خطيرة ، ستظهر فى ثورة قادمة ، وتعرض الحجاج والدولة كلها — وقتا ما — للخطر . وسنتكلم عنها فى الفصل التالى .

* * *

فالحقيقة التى نريد أن نقررها أن سياسة الشدة والعسف ، اذا كانت تنجح فى ظروف حربية خاصة ولمدة مؤقتة ، فانها لا تنفع أن تكون سياسة دائمة تساس بها الشعوب . وانها تؤدى الى عواقب خطيرة . فملخص الحكم على الحجاج أنه كان حاكما عسكريا ، ولم يكن سياسيا ، ولا قائدا حربيا . وكان يجب على عبد الملك بعد أن انتهى أمر الخوارج . أن يعزله . ويبدله بحاكم أكثر سياسة ، وأوسع أفقا ، ليجتذب قلوب الناس بدل أن يزيدهم نفورا . لكن يظهر أن عبد الملك كان سيىء الاعتقاد فى أهل العراق ، وكان

يرى أنه لا يصلح لهم الا الشـدة والقوة ، والا أحدثوا الفتن ولم يطيعوا الأوامر ، وأنه لا يخضعهم الا مثـل الحجـاج . وكانت فى هـذا الرجـل مـزايا لها قيمتهـا ولا شك هى التى جعلت الخليفة يتشبث به . ففى مقدمتها ، شدة اخلاصه لرئيسه عبد الملك ، وتفانيه فى خدمة الدولة وأداء واجبه . ومنها قوة شخصيته وارادته ، ورغبته فى الاصلاح والتعمير ، وكفاءته الادارية ، واهتمامه بشأن الفتوح التى سيكون له فيها أثر كبير . لكن هـذا كله لا يوازى حب الناس ، وطاعة الرعية عن رغبة . والوثوق باخلاصهم الموقوف مع الدولة فى أوقات الشدة . فالقاعدة المتينة الراسخة التى يؤسس عليها الحكم ، وتقـام عليها الدول ، انما هى حب الشعب لمن يحكمونه واخلاصه لهم .

دولة كبرى واحدة

على كل ، فانه - فيمـا يتعلق بالخوارج - قد نجح الحجاج فى القضاء عليهم ، ولو بعد جهود كثيرة . وكان للمهلب الفضل الأكبر فى هزيمة الأزارقة . وانتهت حينئذ فتنتهم ، وأخمدت الثورات الأخرى ، وذلك فى سنة ٧٧ هـ . فعند ذلك تمت وحدة الدولة ، نهائيا . ولم يعد هناك استثناء ولا شذوذ .

صارت الدولة من حدود نهر بلخ ، وجبال سجستان

ومشارف الهند شرقا ، الى أواسط بلاد المغرب غربا ، ومن بحر قزوين والبحر الأسود شمالا ، الى حدود النوبة والسودان جنوبا — صارت دولة واحدة وكتلة واحدة ، ليس عليها الا خليفة واحد : هو عبد الملك بن مروان ، من بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وليس لها الا عاصمة واحدة هى « دمشق » ، فى أرض الشام . فياله من نجاح كبير ، ونصر باهر قد تحقق — اذا قارنا حالة هذه الدولة حينئذ بحالتها حينما تولى عبد الملك الخلافة ، أو قبل ذلك بقليل ، وقد كانت متفرقة ، متمزقة الى أقسام وطوائف ، والحروب دائرة بين بعضها والبعض الآخر . لقد حدث ما يشبه المعجزة . وتحقق الأمل الكبير . ونجح عبد الملك حقا فى أن يصل الى غايته ، وهى توحيد الدولة كلها تحت لوائه ورعايته .

ان الفقيه ، العابد ، الذى قضى أربعين سنة من حياته بالمدينة ، وما كان يفكر أن يخرج منها ، والذى أخرج منها — كرها — وهو فى سن الأربعين ، ليبدأ حياة فى المنفى — قد كتب له أن ينال الملك ويتولى الخلافة ، ويرعى شئون أمة الاسلام ودولة العرب ، ويوجه الجيوش أو يقودها ، ويضع السياسات ويحكم الادارة ، حتى يحقق أغلى أمنية للأمة : ألا وهى جمع كلمتها وتوحيد صفوفها ، فى دولة كبرى واحدة .

الفصل التاسع

فتوحات وإصلاحات

لو لم يكن لعبد الملك بن مروان من فضل الا أنه حقق وحدة دولة العرب والاسلام ، وأنقذ الأمة من شرور الانقسام ، وأخطار الحرب الأهلية — لكفاه ذلك من عمل مجيد ، يؤهله لأن يدرجه التاريخ بين العظماء ، الذين أسدوا أجل الخدمات لأممهم . كانت هذه هى المهمة الكبرى التى قام بها فى خلافته . وقد وصفنا فى الفصول الماضية كيف اضطلع بها ، وما هى الخطط التى اتبعها لكى يؤديها ، وكيف تكللت جهوده فيها بالنجاح . وسنبين فى هذا الفصل — فيما بعد — أهم النتائج الجليلة ، التى ترتبت على الوحدة .

لكن عبد الملك كانت له أعمال أخرى مجيدة — أيضا — وهى تؤكد أهليته لأن يضعه التاريخ فى تلك المرتبة الرفيعة . فمن ناحية ، نهض عبد الملك بهمة وحزم — حتى من قبل أن تتم الوحدة — ليستأنف الفتوحات التى توقفت طويلا ، منذ

بدء الفتنة والنزاع الداخلى ، فأثمرت جهوده ولكن بعد أن تمت الوحدة - أن ضمت الى الدولة أقطار هامة ، كم صار لها فيما بعد شأن فى تاريخ العروبة والاسلام ونعنى بها بلاد المغرب - بعد أن كاد الروم يحولون بين الدولة وبينها ، ويسلمونها الى التأخر وحياة الاستعباد والفوضى .
فعبد الملك بن مروان هو صاحب الفضل فى اتمام تحرير هذه البلاد وطرد الروم منها نهائيا ، وفتح الطريق لنشر الاسلام واللغة العربية فيها ، واستقرارهما كما أثمرت جهوده أيضا أن أعادت للدولة - بصفة عامة كامل قوتها أمام الأعداء ، فاستردت هيبتها ومركزها . وبذلك أوجد العوامل وهيأ الوسائل للتمهيد لفتح أقطار أخرى كبيرة سيتم ضمها فى عهد خلافة ابنه الوليد ثم العهود التالية . سنشير اليها فيما بعد .

ومن ناحية اخرى ، أمر عبد الملك بتنفيذ اصلاحات داخلية ، كان من شأنها دعم المقومات التى تقوم عليها الدولة، ورفع الروح القومية وحفظها . وأهم هذه الاصلاحات أمران : الأول : - تحقيق الاستقلال المالى للدولة وسيادتها الاقتصادية ، وذلك باصدار عملة عربية قومية لها ، بدل اعتمادها على النقود الأجنبية . والثانى : جعل اللغة العربية

هى اللغة الرسمية القومية للدولة ، وابطال استخدام اللغات الأجنبية فى الدواوين .

فالآن نتكلم عن هاتين الناحيتين من جهود عبد الملك : والأولى هى الفتوحات . والثانية هى الاصلاحات . ثم نختم الكلام بوصف شخصية عبد الملك وبيان صفاته ، ومبادىء سياسته العامة : ثم نتحدث عن بيته وخلفائه ، وآثاره . وبذلك كله تتحدد مكانته فى التاريخ .

(ا) الفتـــوحات

أولا — فى بلاد المغرب

كانت أهم الفتوحات التى تحققت فى عهـــد عبد الملك — كما ذكرنا — هى فتوحاته فى بلاد المغرب .

وبلاد المغرب تسمى الآن : ليبيا ، تونس ، الجـــزائر ، مراكش . لكن كانت أسماؤها عند العرب ، فى تلك العصور ، هى — على الترتيب المذكور — :

برقة وطرابلس ، ثم افريقية أو المغرب الأدنى ، فالمغرب الأوسط ، فالمغرب الأقصى .

بدأ الجهد الاسلامى لفتح هـــذه البـــلاد وتحريرها من احتلال الروم واستعبادهم ، فى عهد دولة الخلفاء الراشدين :

فى عهدى - عمر وعثمان رضى الله عنهما . وقد أمكن لجيش الاسلام التحررى فى عهد عثمان أن يصل الى قلب تونس (افريقية) ، ويوافى الروم فى موقعة « سبيطلة » ، فيهزم ملكهم المسمى « جرجير » وهو جريجورى - ويقتله ، ويبيد جيشهم . وذلك على يد عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، الذى كان والى مصر . فمصر ، منذ ذلك الوقت وظلت دائما ، القاعدة لفتح أو تحرير بلاد المغرب . لكن المسلمين لم ينووا الاقامة فى ذلك الوقت . فاكتفوا بدفع الفدية لهم ثم عادوا الى برقة . وفى أثناء الفتنة الأهلية التى تلت ، توقفت الفتوحات . ثم بعد أن توحدت الدولة ، استأنف معاوية الفتوحات بعزيمة جديدة . وبقصد الحصول على نتائج دائمة . فكان البطل الذى حمل لواء الفتح فى عهده هو « عقبة بن نافع الفهرى » ، الذى ظفر بالنصر حتى انتهى الى قلب تونس ، وأسس هناك مدينة « القيروان » - سنة ٥٥ هـ - ، لتكون مركزا للاسلام ونشر العربية ، وقاعدة حربية . ثم عاد الى الشام ، وحمل عبء الجهاد بعده قائد آخر من مصر ، هو « أبو المهاجر » .

ثم عاد عقبة ، ثانية ، فى عهد يزيد بن معاوية عام ٦٢ هـ . فاستأنف جهاده ، وواصل الفتوحات ، فهزم الروم ومن معهم

هزائم كبيرة متوالية ، حتى وصل الى المغرب الأقصى . ولما بلغ شاطىء المحيط ، وقف وهو على ظهر جواده ، وقال قولته المشهورة : « يا رب ، لولا هذا البحر ، لمضيت مجاهدا فى سبيلك » ! . ثم عاد . ولكنه فى عودته حينما صار على مقربة من القيروان ، سرح معظم جيشه وبقى فى فئة قليلة . فانتهز الروم هذه الفرصة ، وكانوا قد اتفقوا مع « كسيلة » — من البربر المسيحيين — على أن يغدر بعقبة ، فغدر كسيلة وارتد عن الاسلام ، وانضم الى البيزنطيين . واجتمعوا على عقبة ، فحاربهم محاربة الأبطال ، هو والمسلمون الذين معه على قلة عددهم ، الى أن استشهد — رحمه الله ومن معه . وأراد « زهير بن قيس البلوى » — وكان نائبه فى القيروان — أن يهب لمحاربة الروم . ولكن خالفه قوم ممن معه وعادوا الى مصر . فاضطر « زهير » أن يعود بجيشه الى برقة ، وبقى مرابطا بها ست سنوات ، من سنة ٦٣ حتى سنة ٦٩ هـ . وذلك لحدوث الحرب الأهلية ، والفتن التى وصفناها فى الماضى . فكانت الدولة فى شغل بالنزاع الداخلى ، عن أن تعنى بجهاد الأعداء فى الخارج .

زهير بن قيس فى إفريقية

كانت هذه هى حال المسلمين والفتح فى ثالث الجبهة . وكان « زهير بن قيس » لا يزال مقيما فى « برقة » ، وكانت جالية من المسلمين قد تركت فى خطوط العدو ، بـ « القيروان » ، وان نالت الأمان . لكنها كانت تعيش معرضة للغدر تحت حكم العدو . كانت هذه هى الأحوال ، حينما ذكر حال هؤلاء المسلمين وزهير وجنده عند عبد الملك بن مروان . وكان هو فى أشد مشغلة بالحرب مع ابن الزبير ، وغيره . فعلى الرغم من انشغال عبد الملك بذلك ، وعلى الرغم من حاجته لتوفير كل جهد وكل جندى ، لينتهى من المعركة الداخلية التى أمامه . على الرغم من ذلك ، قرر أن لا يدخر وسعا لانقاذ هؤلاء المسلمين ، واظهار قوة الدولة أمام العدو فى ذلك الميدان . ففى عام ٦٩ هـ فى ذروة الأزمة ، وهو يستعد للخروج الى العراق لمواجهة ابن الزبير — أعد جيشا قويا وأرسله الى « زهير » ببرقه ، وكتب الى زهير بولاية افريقية . وبذلك أخذ عبد الملك يحارب الروم وحلفاءهم المعتدين ، فى نفس الوقت الذى كان فيه مشغولا بالفتنة الداخلية . وهذا يشهد لعبد الملك بقوة

العزيمة ، وقوة ايمانه بالله وثقته بنصره ، ورغبته فى الجهاد فى سبيل الله ، وحرصه على الدولة وصالح المسلمين .

تقدم زهير بهذا الجيش ، وتوجه لفتح افريقية — وكان زهير من خيرة المسلمين : عابدا زاهدا ، نذر نفسه للجهاد من أجل مرضاة ربه ، كما كان من كبار القواد مع عقبة ابن نافع ، واشترك معه فى أكثر غزواته . فلما وصل قرب القيروان ، وجد أن كسيلة - الزعيم البربرى الغادر ، الذى كان فى خدمة البيزنطيين ويجب أن نذكر هنا أن كثيرا من البربر ، ولا سيما فى الجنوب ، قد اعتنقوا الاسلام ، فلم يبق الا بربر الشمال الذين كانوا متأثرين بالروم وموالين لهم وجد أن كسيلة هذا قد ترك القيروان ، خوفا أن يحاصر فيها ويثور عليه المسلمون الذين كانوا بها ، وسار الى الجبال فاتخذ عندها معسكره ، ليحمى ظهره بها وليلوذ بها اذا هزم .

وفى موقعه هذا حشد جموعا كثيرة من البربر التابعين له والروم ، وتأهب للقتال . ويجدر أن ننقل هنا ما قاله مؤرخ كبير من القدماء عن هذه الموقعة ، بأسلوبه الموجز — قال : « .. وبلغ ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان . بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ، ثم رحل فى طلب كسيلة ،

فلما قاربه ، نزل وعبى أصحـابه ، وركب اليـه . فالتقى العسكران . واشتد القتال . وكثر القتل فى الفريقين ؛ حتى أيس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك أكثر النهار . ثم نصر الله المسلمين . وانهزم كسيلة وأصحابه . وقتل هو ، وجماعة من أعيان أصحابه بممس (هذا اسم الموقعة) . وتبع المسـلمون البربر والروم فقتلوا من أدركوا منهم ، فأكثروا . وفى هـذه الوقعـة ذهب رجال البربر والروم ؛ وملوكهم وأشرافهم . وعاد زهير الى القيروان » .

هكذا أحرز الجيش الاسلامى بقيادة زهير هذا النصر الكبير على قوات البربر والروم ؛ التى قادها «كسيلة». وقتل « كسيلة » نفسه فى هذه الموقعة وكان هو الذى ارتد عن الاسلام ، وغدر بعقبة وتسبب فى قتله فأخـذ المسلمون اذن بالثأر منه وممن تابعوه . وانتهى أمر هـذا الخائن المرتد ، بعد أن ظل يعيث فى البلاد فسادا ، منذ سنة ٦٣ هـ . ولا شك أن الدافع الأول لهذا النصر وراعيه انما هو : « عبد الملك بن مروان » ، الخليفة فى دمشق وذلك بفضل عزمه وايمانه .

على أن فتح افريقيـة ما كان ليتم بسهولة . وكم لاقى المسلمون فى فتوحهم من عقبات ، وكم منوا بنكسات . لكن

هذا ما كان الا ليشحذ همتهم ويقوى ايمانهم . فبعد هـذا النصر المبين جاءت نكسة. وذلك أن افريقية ، أو بلاد المغرب، لها ساحل طويل ممتد على البحر المتوسط ، فما لم تكن هناك قوة بحرية تحميه ، فان الأعداء يستطيعون أن يهاجموه فى آى وقت ، من أى نقطة . فلما بلغ الروم بالقسطنطينية أن زهيرا سار من برقة الى القيروان ، انتهزوا الفرصة وأرسلوا أسطولهم بقوة كثيفـة ، فاحتلوا برقة . وبذلك قطعوا خط المواصلات ، أو الرجعة ، على زهير وجيشه . وكان زهير قد قرر العودة من القيروان الى مصر ، فترك جزءا من جيشـه وعاد بجزء . ولم يعلم بما حدث فى برقة ، الا وهو فى الطريق. فلم ينتظر حتى تصله امدادات أو يرتب أمره ، بل بادر الى انجاد المسلمين الذين استنجدوا به ، وهاجم الروم وهو قوة قليلة ، وكان الروم على استعداد وقد دسوا له كمينا . فعلى الرغم من قتاله بشجاعة وفدائية ، تكاثر عليه الروم وأحاطوا به ، فقتل رحمه الله ومن معه .

فلما بلغ خبر مقتله عبد الملك بن مروان ، حزن حـزنا شديدا — كما أثبتت أخبار التاريخ — وأهمه ذلك كثيرا . لكن ماذا كان يستطيع أن يصنع ، وهو فى غمرة النضال مع الخارجين عليه ، وقواه مشغولة بالمعارك الفاصلة معهم ؟ ان

الفتن أو المنازعات الداخلية تنقص فاعلية الدول ، وتكاد تشل حركتها . فكان عبد الملك مضطرا اذن أن ينتظر حتى ينتهى من الفتنة التى أمامه ، ثم بعد ذلك يستطيع أن يستأنف جهاده، ضد الأعداء المعتدين .

حسان بن النعمان يفتح قرطاجنه

وما ان فرغ من المعركة مع ابن الزبير ، حتى أعد جيشا كبيرا . اختار له قائدا قديرا هو « حسان بن النعمان الغسانى » فسيره الى افريقية . وقد جعل له الولاية عليها . فسار حسان بجيشه ، وكان ذلك فى عام ٧٤ هـ ، فلم يجد مقاومة فى طريقه : فى برقة أو طرابلس ، حتى دخل افريقية بجيشه « ولم يدخل افريقية قط جيش مثله » . وكان الهدف منازلة الروم أولا ، لأنهم هم العدو الحقيقى . وهم الذين يقفون فى طريق الفتح ، وهم الذين هاجموا « زهيرا » .

فبعد أن وصل حسان الى القيروان ، وأراح جنده وتجهز منها بما أراد ، زحف بجيشه على « قرطاجنه » وكانت أكبر معقل للروم فى افريقية ، وقاعدتهم البحرية الكبرى - ولم يكن المسلمون هاجموها من قبل . فجمع الروم كل قواتهم للدفاع عنها ، ولكن حسانا حاصرها ، وظل يقاتل

الروم حتى هزمهم ، وتمكن من دخول المدينة عنوة . فأسرع الروم الى الهرب فى البحر ، وساروا بمراكبهم الى صقلية أو الأندلس . فاستولى حسان على المدينة . ثم أمر بهدم أسوارها ، حتى لا تتخذ حصنا بعد ذلك . ثم اتجه أيضا الى معقلين آخرين للروم على الساحل ، وهما مدينتا : بنزرت وسطفورة ، فاستولى عليهما أيضا ، بعد قتال عنيف . وهكذا نجح حسان فى تحطيم معاقل الروم ، على ساحل افريقية . وكان لانتصاراته على الروم دوى شديد ، ورفع من هيبة قوة الدولة الاسلامية ، حتى أصبح الروم منها فى خوف . وشعروا بقرب نهايتهم .

الكاهنـــة

لكن ثورة كانت ناشبة بين البربر منذ مقتل « كسيلة » ، حيث ظهرت امرأة تسمى « الكاهنة » من بيت ملكهم ، فالتفوا حولها واعتصموا بجبال أوراس ، وهى منطقة منيعة ، فأراد حسان أن ينازل هذه القوة ويقضى عليها أيضا . لكن جيشه كان أصيب بخسائر ، من جراء المواقع العديدة التى خاضها مع الروم ، ومع ذلك اتجه لمقاتلة الكاهنة وأتباعها ، فلقى مقاومة عنيفة وأسر بعض رجاله . فرأى أن الأولى أن

يعود حتى تصله امدادات . فرجع وأقام بطرابلس ، التى اتخذها قاعدة له لقربها من البر والبحر . وظلت القيروان كما هى ، قاعدة حربية اسلامية فى قلب افريقية ؛ ولم تجرؤ الكاهنة أن تتقدم اليها . وأرسل حسان الى عبد الملك يطلب امدادات . لكن عبد الملك كان لا يزال مشغولا بحروب الخوارج ، فأمر حسانا بالمقام وأن يكتفى بما فتح حتى يصله أمره .

وبعد أن فرغ عبد الملك من حروب الخوارج ، وأتم الوحدة ، وجه عنايته ثانية الى افريقية . فبعث بالجنود والأموال الى حسان ، وآمره باستئناف الزحف ، حتى يقضى على الكاهنة . وكانت الكاهنة فى أثناء ذلك قد أساءت السيرة ، وعسفت بأهل البلاد وظلمتهم : من بربر وروم وغيرهم . فكرهوها ، وتمنوا الخلاص منها ، وقدروا مزايا حكم الاسلام الذى كان يتميز بالعدل والتسامح وسيادة القانون والنظام . فأرسلوا الى المسلمين يستنجدون بهم . فلما سار حسان اليها ، عمدت الى خطة التخريب . فأخذت تخرب المدن وتنقل الأموال ، وتحرق المزارع أمامه ، لتوقف زحفه . ولكن كل ذلك لم يجدها نفعا ، بل زاد من كره الناس لها ، وسخطهم عليها . وواصل حسان سيره ،

فقابله كثير من أهـل المدن حتى الروم بالترحيب ، وقدموا الطاعة . وأخـيرا التقى بجموع الكاهنة . فبعد قتال عنيف هزمهم شر هزيمة ، وقتل فيهم قتلا ذريعا . وفرت الكاهنة الى الجبال ، فأتبعها من أدركهـا وقتلت . وبذلك انتهى أمر الكاهنة . وكانت هذه آخر ثورة للبربر . فبعد ذلك خضع أهالى البلاد لحكم الاسلام ، وأخذوا يدخلون فى الاسلام أفواجا . وكان مقتل الكاهنة فى سنة ٨١ هـ .

لكن الروم كانوا قد انتهزوا فرصـة خروج الكاهنة والأحداث التى تلت ، فعادوا بقوة جديدة واحتلوا قرطاجنه . فتركهم حسان ، حتى انتهى من أمر الكاهنة . ثم اتجه اليهم فقاتلهم ، وطردهم مرة أخرى من قرطاجنه . وأعانه فى هـذه المرة أسطول اسلامى ، قدم من الشام ومصر . فقتـل من الروم من قتل ، وهرب من هرب . وكانت هـذه آخر مرة يرون فيها قرطاجنه . فقد كان هذا هو القضاء النهائى عليهم ، وتمام تحرير افريقيـة والمغرب ، من حكمهم واحتـلالهم وجورهم .

المغرب العربى الاسلامى

وهكذا أتم حسان تحرير بلاد المغـرب ، وخلصهـا — نهائيا — من حكم الروم ، الذى كان قائما على أسـاس

استغلال السكان ، واستعبادهم ، وتقسيم الناس الى طبقات، والاضطهاد الدينى والعنصرى ، وغير ذلك من مساوىء حكم الظلم — كما قضى أيضا على عناصر الشغب والفوضى بين البربر ، وطهر البلاد من القوات المعادية . فأتم الفتح ، حتى وصل الى طنجة والمغرب الأقصى ، وشاطىء المحيط . وأخذ يوجه جهوده كلها الى نشر الاسلام ، والتأليف بين السكان ، وطبق حكم المساواة ومبادىء العدل ، وأحسن معاملة الناس . فرغب الناس فى الاسلام ، وأخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا . وأخذت اللغة والثقافة العربية تنتشر . وكان عدد كبير من البربر قد دخل فى الاسلام — فعلا — منذ وقت طويل ، فى مدى نصف قرن أو أكثر مضى ، منذ دخول العرب البلاد . وسارت عملية المزج بين الأجناس — جنبا الى جنب — مع انتشار الدين والثقافة فوضعت اذن أسس شخصية المغرب العربى الجديد ، الذى سيكون من أهم أقطار الدولة الاسلامية .

بدأت هذه التطورات فى عهد حسان — الذى بقى فى ولايته حتى سنة ٨٩ هـ . ثم خلفه موسى بن نصير . فسار على نفس السياسة وأكملها ، وحقق بها نتائج عظيمة . وموسى ابن نصير هو القائد ، الذى سيجعل المغرب قاعدة لفتح

الأندلس . ويكون الى جانبه قائد آخر : هو طارق بن زياد ، الذى يمثل شخصية المغرب الجديد ، فى ظل الاسلام . فأصله من البربر سكان البلاد ، لكنه صار خلقا آخر ، فأصبح قائدا عربيا اسلاميا . وهكذا استمر المغرب فى هذا الطريق ، حتى أصبح من أهم أقطار العروبة والاسلام — شأنه شأن مصر أو الشام أو العراق . وهو اليوم بمثابة الجناح الغربى للأمة العربية والاسلامية ، تخفق معــه قلوب جميع العــرب والمسلمين . فاذا كان لأحد فضل فى بدء هــذه التطورات ، وهذا التاريخ للمغرب ، فاسم عبد الملك بن مروان يجب أن يكون فى مقدمة من يقر لهم بهذا الفضل . فهو الذى وجــه اليه بالغ عنايته ، على الرغم من انشغاله ، وأهمــه أمره ، وواصل الجهود لانقاذه ، حتى أتم تحريره من الروم الأجانب المعتدين ، وأوجد له الظروف ليصبح جزءا لا يتجزأ من عالم العروبة والاسلام . فهذا هو فضل عبد الملك بن مروان فى بلاد المغرب .

ثانياً — الفتوح فى بلاد الروم

كانت قوة الدولة العربية الاســلامية ظاهرة على الروم — أو الامبراطورية الرومية البيزنطية — طوال عهد معاوية .

حتى انه ضرب الحصار سبع سنوات على « القسطنطينية » : عاصمة تلك الامبراطورية الرومية ، وهاجم الروم عند أسوارها ، وكاد أن يستولى عليها ، لولا مناعة موقعها . فكان للدولة الاسلامية اذن هيبة كبيرة فى قلوب الروم وأباطرتهم ، تجعلهم يعترفون بتفوقها عليهم ويترددون فى مهاجمتها .

عبد الملك ــ وجستنيان

ظلت الحال كذلك ، حتى نشبت الفتنة الداخلية بين المسلمين بسبب ظهور ابن الزبير . فلما تولى الخلافة عبدالملك بالشام رأى من الحكمة السياسية أن يعقد هدنة مع الروم ، فعقد اتفاقا فى أول عهده مع الامبراطور جستنيان الثانى الذى كان معاصرا له . وكان هذا الامبراطور على النقيض من عبد الملك ، اذ كان طائش التصرفات ، ولذا لقب بـ « الأحمق » . وانصرف عبد الملك الى معالجة الأزمة الداخلية دون أن يحدث شيء . لكن الروم ــ وهم العدو القومى للمسلمين ــ وقد رأوا عبد الملك فى أزمة قد طالت ــ بدا لهم أن لا يضيعوا الفرصة . فبدأوا بتحريك العناصر الأجنبية الموالية لهم ، التى كانت تقيم فى جبال اللكام ولبنان

ومنهم الذين كانوا يسمون « الجراجمة » . فقاموا فى عام ٦٩ هـ بثورة وشغب ضد دولة دمشق ، انضم اليهم فيهـــا الرعاع والعبيد . وفى نفس الوقت أخـــذ الروم يهددون الحدود . ولما علموا فى نفس العام بمسير زهير من برقة لغزو افريقية ، أرسلوا قوة وأسطولا فاحتلوا برقة ، وجرت موقعة قتل فيها زهير عند عودته — كما قدمنا . ثم فى العام التالى ٧٠ هـ بدأ الروم حربا جدية ، فأخذوا يعبرون حدود الشام من الشمال ، ويغيرون على المسلمين داخل أراضيهم .

* * *

فلما رأى عبد الملك ذلك — وكان فى ذروة الأزمة وأمامه خصومه فى الداخل لم يتغلب عليهم بعد ، وتبين له حرج الموقف — رأى أن يلجأ الى السياسة . فأرسل أولا الى الجراجمة قائدا استطاع بحيلته ودهائه أن يتمكن منهم ، ثم فاجأهم بقوة كان أكمنها لهم فهزمهم وشردهم . وفى نفس الوقت دخل عبد الملك فى مفاوضات مع ملك الروم ، وتوصل الى عقد معاهدة معه ، رضى فيها عبد الملك أن يدفع الى الروم مبلغا قدره ألف دينار كل جمعة — وكان هـذا ضد شعور عبد الملك — لكنه كان مضطرا أن يدفع الأذى عن المسلمين، نظير دفع هذا المبلغ من المال ، ريثما تنجلى الأزمة الداخلية .

وهكذا يصل التفرق والنزاع الداخلى بالأمم والدول الى أن تضعف — رغم قوتها الأصلية — أمام أعدائها . لكن عبد الملك حصل فى هذا الاتفاق على شرط دل على بعد نظره اذ كانت له نتائج حسنة ، وذلك أنه اشترط أن تقوم دولة الروم بنقل « الجراجمة » الى جهات داخل أراضيها . فنفذ « جستنيان » فعلا هذا الشرط ، ونقل الجراجمة الى البلقان . فاستراح المسلمون من شرهم وأمنوا خيانتهم ، اذ طالما كانوا ينضمون الى أعدائهم ، على حين خسر البيزنطيون ما أسموه مؤرخوهم : بالستار الحديدى ، حيث كان هؤلاء يدافعون عنهم ضد دولة المسلمين . وآتت هذه المعاهدة ثمرتها ، حيث أعطت عبد الملك فرصة ثلاث سنوات استطاع فيها أن ينهض ، فيلاقى خصومه فى المواقع الفاصلة ويتغلب عليهم ، وينهى الفتنة الداخلية الأساسية ، ويحقق الوحدة — على ما وصفنا فى الفصول السابقة وفى أواخر عام ٧٣ هـ شعر عبد الملك أن الدولة استعادت قوتها ، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلى ارادتها . كما كان دأبها دائمـا .

هزيمة الروم

وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الاسلامية فى هذه الفترة ، وأخذ الروم يتأهبون للانتقاض . فكان عبد الملك لهم بالمرصاد ، وقد أحكم اعداده ، فعين أخاه محمد بن مروان واليا على الجزيرة وأرمينية ، ليكون القائد فى هذه الجبهة . ومنع عبد الملك ارسال النقود التى كان يدفعها وقت الضرورة ، فأثار هذا حنق جستنيان الأحمق فأعلن الحرب . وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية ، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة ، هزم فيها الروم على كثرة عددهم هزيمة شنيعة ، وفر الامبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده . وكان ذلك فى عام ٧٤ هـ . فزعزت هذه الوقعة الدولة البيزنطية ، وردت امبراطورها الى صوابه . وفى نفس العام ، قام الخليفة عبد الملك بالهجوم على الروم فى جبهة أخرى — هى جبهة افريقية — فأرسل حسان بن النعمان بجيش كبير — على ما ذكرنا آنفا — فاتجه حسان الى مهاجمة الروم فى أكبر معقل لهم ، وهو مدينة « قرطاجنة ». وقد أنزل بالروم هزيمة ساحقة ، فى عام ٧٥ هـ — كما بينا — وطردهم من المدينة ، واستولى عليها .

الاستيلاء على معاقل الروم

وهكذا أثبتت الدولة الاسلامية ، بعد الوحدة ، أنها ما زالت محتفظة بقدرتها على التفوق واحراز السيادة . وعادت قوة رهيبة ، يخشى بأسها الأعداء ويعملون حسابها — كما كان شأنهم من قبل . وبعد أن فرغت الدولة من كل مشاكلها الداخلية بانهاء مسألة الخوارج ، ازدادت قوتها ، وغدت قوة مندفعة لا ترد . فحررت جيوش المسلمين افريقية وبلاد المغرب — نهائيا — من نير البيزنطيين ، وثبتوا قبضتهم على قرطاجنة وجميع المدن الساحلية . وتحولت افريقية الى قطر اسلامى عربى على ما ذكرناه من قبل . وكانت الموقعة الأخيرة فى عام ٨١ هـ فى عهد عبد الملك .

وفى نفس الوقت ، بدأ التقدم والتوغل داخل الأراضى البيزنطية القريبة . فكانت الصوائف تخرج بانتظام للاغارة على هذه الأراضى ، يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بنى أمية . وفى عام ٨١ هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله ابن عبد الملك ، ففتح « قاليقالا » وهى احدى مدن الروم الكبيرة . وفى عام ٨٤ هـ ، تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية ، داخل دولة الروم فى

آسيا الصغرى ، وهى مدينة « المصيصة » . فبنى حصنها ، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ، ولم يكن المسلمون سكنوها من قبل ، وبنى مسجدها .

وهكذا اندفعت قوة دولة العرب والاسلام الى الأمام : تفتح المعاقل وتستولى على الحصون داخل أرض العدو فى دولة الروم ، منـذ تحققت الوحدة فى عهـد عبد الملك . واستمرت فى اندفاعها طول مـدة الوليد ثم سليمان، حتى بلغت الغاية فى محاولة قوية لفتح القسطنطينية نفسها -- عاصمة الدولة - - فى عهد سليمان بن عبد الملك ، عام ٩٩ هـ . وكان ذلك كله بفضل همة عبد الملك وعزيمته ، ونذره نفسه للجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمته ونشر دينه الحق ، ورفع شأن دولة الاسلام والعروبة ، التى لم تكن تضاهيها آية دولة فى حيويتها وقواها الكامنة التى كانت كفيلة بأن تجعلها - - وقد جعلتها فعلا -- أقوى دولة على وجه الأرض .

ثالثاً — الفتوح فى المشرق

والكلام هنا يتناول جبهتين : خراسان ، ثم سجستان .

فأما عن خراسان : فانها كانت قد أصبحت فى عهد معاوية قاعدة هامة للدفاع عن حـدود الدولة فى الشرق ، ولغزو

الترك فيما وراء النهر (نهر بلخ ، أو جيحون) ، وبدأت منها بعض الفتوحات . ولكن الأمور اضطربت فيها حينما حدثت الفتنة واستعرت روح العصبية القبلية . فأدى ذلك كله الى توقف الفتوحات . وبعد حروب قبلية ، تغلب على خراسان رجل من مضر اسمه « عبد الله بن خازم » ، وأخيرا قتل فى بعض هذه المواقع عام ٧٢ هـ .

فبعد سنتين ، أرسل أهل خراسان الى عبد الملك يطلبون أن يولى عليهم واليا قرشيا ، حتى لا يقع التنافس بين القبائل . فأرسل اليهم « أمية بن عبد الله » - وهو أخو « خالد بن عبد الله » — وهما من بنى أمية . فانتظمت الأحوال أحسن من ذى قبل ، لكن لم يقض على المنازعات ولم تبدأ فتوح جدية . ولم يثبت أمية كفاءته . فعزله عبد الملك فى عام ٧٨ ، وعين الحجاج الثقفى واليا على المشرق كله — بما فيه خراسان وسجستان . فاختار الحجاج المهلب بن أبى صفرة بعد أن انتصر على الخوارج ، وعينه واليا على خراسان . فقدم اليها فى عام ٧٩ هـ . فأخذت الأمور فى الاستقرار منذئذ ، وبدأ عهد من النشاط والتقدم ، واستؤنفت الفتوحات .

عبر « المهلب » النهر (نهر جيحون) : الفاصل بين اقليم

خراسان وبلاد ما وراء النهر — كما كانت تسميها العرب — وهي الآن بلاد « تركستان » . وكان عبوره ذلك في عام ٨٠ هـ . ثم بعث المهلب أولاده لغزو الجهات ، حتى قاربوا مدينة « بخارى » . ومكث المهلب سنتين وراء النهر ، وأعاد للدولة هيبتها ، ومات في عام ٨٢ هـ . ومما يذكر أنه أحضر أولاده وأوصاهم وصية غالية ، بالاتحاد وعدم التفرق . ومثل لهم ذلك بأن دعا بمجموعة من السهام ، فحزمت ، فقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة .

فولى الحجاج يزيد بن المهلب في عام ٨٣ هـ مكان أبيه . فتمكن يزيد من الاستيلاء على قلعة « باذغيس » الحصينة في عام ٨٤ هـ . ثم في العام التالي عزله الحجاج وولى مكانه أخاه « المفضل بن المهلب » . فلبث في الولاية تسعة أشهر فتح في أثنائها منطقة « باذغيس » كلها ، واستولى على حصونها . وكان ذلك العمل وجميع جهود آل الملهب ممهدة للقيام بفتوح كبيرة في بلاد الترك ، وراء النهر . ثم عزله الحجاج عام ٨٥ ، وعين في مكانه « قتيبة بن مسلم الباهلي » — وهو القائد الكبير الذي سيتم على يديه فتح بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين ، في عهد الوليد بن عبد الملك .

سجستان

أو (أرض كابل)

وأما عن سجستان : فان الحجاج كان — حين ولى على المشرق كله فى عام ٧٨ هـ — ولى عليها « عبيد الله بن أبى بكرة » . وفى العام التالى ٧٩ هـ ، وجه عبيد الله هذا بجيش لغزو « رتبيل » — وفى رواية «زنبيل» — ملك سجستان . لأنه نقض عهد الصلح الذى كان بينه وبين المسلمين . فتوجه القائد وغلب على البلاد ، وأوغل فيها حتى صار غير بعيد من العاصمة . لكن العدو أخذ على المسلمين العقاب والشعاب ، وحاصرهم . فرأى ابن أبى بكرة أن يصالح رتبيل على مبلغ من المال ، ويخلى بينه وبين الخروج . ولكن جنده عارضوا الصلح ، وأبوا الا أن يقاتلوا حتى الشهادة . فقاتلوا ، حتى استشهد أكثرهم ونجا أقلهم .

فلما بلغ ذلك الحجاج ، صمم على أن يجهز جيشا كثيفا ويبعثه ليؤدب رتبيل ، ويأخذ بثأر المسلمين . وأرسل الى الخليفة : عبد الملك بن مروان يستأذنه فى ذلك ، فأذن له . فجهز جيشا من أربعين ألفا : عشرين ألفا من الكوفة ، وعشرين ألفا من البصرة . وأعدهم بكل ما يحتاجون اليه ، وأعطى الناس أعطياتهم كاملة ، وأمدهم بالخيول الروائع ،

والسلاح الكامل ، فكان هـذا الجيش يدعى : « جيش الطواويس » ، لكامل رونقه وحسن عدته . وولى الحجاج قائدا على هذا الجيش : « عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى » . فخرج هذا الجيش الى مقصده فى عام ٨٠ هـ .

وصل الجيش الى بلاد « رتبيل » ، فأرسل هذا يعتذر ويسأل الصلح ، فلم يقبل منه . وسار عبد الرحمن فى غزوه لتالث البلاد وفق خطة منظمة ، ومتخذا اجراءات الاحتياط : فكلما حوى بلدا بعث اليه عاملا ، وبعث معه أعوانا ، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف . حتى اذا حاز من بلاد رتبيل أرضا عظيمة ، وملأ يديه من المغـانم ، حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل ، وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها . وهكذا حتى يتم فتح البلاد . وكتب الى الحجاج يعلمه بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبمـا صنع الله للمسلمين ، ويخبره برأيه هذا .

فكتب اليه الحجاج : « أما بعد ، فان كتـابك أتانى ، وفهمت ما ذكرت فيه . وكتابك كتـاب امرىء يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة . قد صانع عدوا قليلا ذليلا ، قد

أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا وغناؤهم فى الاسلام عظيما .. وانى لم أعدد رأيك رأى مكيدة ، ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه الا ضعفك والتياث رأيك . فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم » . وفى كتاب تال أمره بالوغول ، والا فان أمير الناس أخوه اسحاق بن محمد ، بدلا عنه .

فتنة أو محنة أخيرة

تمرد جيش العراق

حينئذ جمع عبد الرحمن الناس، وعرض عليهم رأيه ورأى الحجاج -- مدافعا عن رأيه هو . فانضم الناس الى رأى عبد الرحمن ، وثاروا اليه . وتكلموا ضد الحجاج متهمين له بأنه انما يريد هلاكهم أو نفيهم . وأظهر كلامهم ما فى قلوبهم من كراهية عميقة له . وأجمع رأيهم على مبايعة الأمير عبد الرحمن وعلى خلع الحجاج . وعلى العودة الى العراق لنفيه . وكروا راجعين الى العراق . وذلك فى عام ٨١ هـ .

هكذا انقلب الأمر الى حركة تمرد أو عصيان ، فى جيش العراق . وكانت حركة خطيرة هزت الدولة هزا عنيفا ، وكادت تعرضها لأسوأ النتائج . وقبل أن نبين رأينا . أو حكم التاريخ عليها . نتمم القصة بذكر ما تلا من أحداث ، باجمال :

سار هذا الجيش عائدا الى العراق . ولما وصلوا فارس ، قالوا : اذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبدالملك. فخلعوه، وبايعوا عبد الرحمن . ولما بلغ الحجاج خبرهم ، بعث الى عبد الملك يستنجده ، ويسأله أن يوجه الجنود اليه . فهال الخليفة الأمر ، وبادر بارسال الجنود من الشام اليه والحجاج مقيم بالبصرة . فلما اجتمعت الجنود اليه ، سار بها حتى نزل « تستر » أول الأهواز . وأقبلت جنود ابن الأشعث ، فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ هـ . فانصرف الحجاج راجعا ، حتى نزل الزاوية قرب البصرة ، وجاءت جنود ابن الأشعث حتى دخلت البصرة ، وذلك فى آخر ذى الحجة سنة ٨١ هـ . ثم تقابل الجندان بالزاوية ، فى أوائل عام ٨٢ . فهزمت جنود الحجاج أولا ، ولكنه ثبت وتمثل بموقف مصعب ، وقال : « لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ! » . فقوى ذلك قلوب جنوده حتى هزموا ميمنة أهل العراق ، وقتل منهم عدد وافر . فمضى ابن الأشعث الى الكوفة . واستولى على قصرها . فسار فى اثره الحجاج ، وخرج ابن الأشعث حتى عسكر بدير الجماجم .

وقبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة ، أرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ، ليعرضا على أهل

العراق عزل الحجاج عنهم . فان قبلوا وثابوا الى الطاعة عزله عنهم ، وولى بدلا منه أخاه محمد بن مروان أميرا على العراق ، وأجرى عليهم أعطياتهم مثل أهل الشام . فمال عبد الرحمن الى قبول العرض ، ولكن أهل العراق رفضوا ، وأصروا على موقفهم وعلى خلع عبد الملك . فلم يكن بد من القتال .

وكانت بين الفريقين مواقع هائلة بدير الجماجم ، استمرت مائة يوم . وكانت نهايتها فى ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٢ ، حيث تمت الهزيمة على ابن الأشعث وجنوده .

وكان الحجاج قد أمر بعد الهزيمة بعدم اتباع الناس ، ونادى مناديه : من رجع فهو آمن ، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن . فلحق به كثيرون . ودخل الحجاج الكوفة منتصرا ، وجاء الناس يبايعونه ، فكان لا يرضى مبايعتهم الا اذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا . واستعمل الشدة ، فقتل من الخارجين عددا غير قليل . أما ابن الأشعث فهرب الى البصرة ، وأراد أن يقاتل فهزم مرة أخرى ، ففر الى سجستان . وانتهى أمره ، بأن أرسل الحجاج الى رتبيل يطلب منه أن يرسل اليه ابن

الأشعث ، فأراد رتبيل أن يرسله . فلما أحيط به ألقى نفسه من فوق قصر فمات : أى انتحر . وهكذا أحبطت هــذه الفتنة ، بعد أن سفكت الدماء وذهب فيها عدد كبير من أهل العراق وجنود المسلمين .

التمرد وسياسة الحجاج

وخلاصة الحكم على هذه الفتنـــــة أنها لا يمكن أن توصف الا بأنها « حركة تمرد وعصيان » ، من جيش العراق على رئيسه الأعلى وعلى الدولة . وأنه لا يمكن أن يسمح لجيش خرج لقتال العدو أن يعود فيقاتل مواطنيه ودولته . ولو كانت الفتنة نجحت ، لأدت الى انشقاق الدولة واندلاع الحرب الأهلية مرة أخرى ، ولعرضت الدولة كلها لأخطـــر النتائج . وقد أدت — بالفعل — الى ضياع أرواح كثيرة ، فكانت هذه خسارة عامة .

لكن — من ناحية أخرى — تدل هذه الثورة على خطأ سياسة الحجاج . وقد ذممنا من قبل هذه السياسة ، وبينا أنها كانت سياسة قهر وعنف . فنفرت النــاس وحفرت فى قلوبهم الكراهية له ، بل ولدولته . وكانت هــذه الحركة — التى هددت بأفدح الأخطار — ثمرة مرة لسياسته تلك :

سياسة الشدة والتسلط ، دون محاولة اجتذاب قلوب الناس بالعدل والرحمة . وقد رأينا — فى مناسبة سابقة — أنه كان ينبغى للخليفة عبدالملك — بعد أن فرغ من أمر الخوارج — أن يستبدل بالحجاج واليا آخر ، يتبع سياسة جديدة تهدف الى ربط قلوب الناس بالدولة ، بشعور الولاء والمحبة . ولكنه لم يفعل ، فكانت هذه هى النتيجة . ويبدو أن عذر عبد الملك فى ذلك أنه — أولا — فوض أمر العراق الى الحجاج ، وكان أوثق ما يكون من اخلاصه له وللدولة . وثانيا — لأنه — كما أشرنا اليه من قبل — كان سيىء الرأى فى أهل العراق ، اذ كان يرى أنهم ميالون الى الغدر وعصيان الأوامر ، فهم محتاجون الى الشدة ، ولا يسيرهم الا رجل قوى مثل الحجاج .

ولكن سياسة الشدة — ان كان لا بد منها — فيجب أن تكون موقوتة ، ولا تتخذ مبدأ دائما ، ويجب أيضا أن تقترن بالعدل . وقد كان لأهل العراق شكاوى يجب الاعتراف لبعضها بأنها كانت عادلة . فمن ذلك أن الدولة كانت تسير على قاعدة تفضيل أهل الشام ، ومنحهم أعطيات أكبر . وكان جند الشام يقيمون بالعراق فيتأذى بهم الناس ، فكانت هذه محاباة أو تحيزا . وسياسة المحاباة تضر الدولة

لأنها تفسد القلوب . كما أن الحجاج كان صارما فى عقوبته ، شديدا على أهل الخراج ، مسرفا فى الدماء . والواقع أنه كان يعامل العراق كأنه اقليم محتل ، ويعامل أهله كأنهم شعب مغلوب . وكان موقفه منهم موقف الحاكم العسكرى ، الذى يسيرهم ويجبرهم بما يشبه الأحكام العرفية . وكان ينعتهم فى خطبه بأنهم « أهل الشـــقاق ، والنفـاق » ، و « الفجرات » و « الغدرات » و « النزوات » ، ويقول انه ما شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، الا كانوا أتباعه وأنصاره!. فكانت الثقة منعدمة اذن بين الجانبين ، واتسعت الهوة بينه وبينهم . فكان لا يستطيع أن يعيش بينهم الا اذا ظل هكذا حاكما عسكريا ، أو جبارا ، أو « ديكتاتورا » . وقد ظـل يعتمد فى حكمه لهم على جند الشـام . ولذا بنى لهؤلاء الجند مدينة « واسط » ، لتكون قاعدة لهم .

فهذه سياسة خاطئة ، كان من نتائجها تلك الثورة التى كادت أن تهدم كل شىء ، وتطيح به . وعرضت الدولة لخطر جسيم . وقد جعلت اسمه — على رغم الأعمال العظيمة التى قام بها — مكروها فى الأجيال . بل أساءت أيضا الى سمعة عبد الملك . ولئن نجحت هـذه السياسة فى المدى القريب ، فانه كان لا بد أن تحدث عنها نتائج ضارة أو خطـيرة ، فى

المدى البعيد . وفى رأينا أن الحجـــاج وسياسته كانا من العوامل التى أدت الى انهيار دولة بنى أمية ، فيما بعد .

على أننا — مع هذا كله — لا نبرر أن يقوم أهـــل العراق بثورة ، كتلك التى قاموا بها . وليس الطريق للوصول الى الانصاف ورفع الشكاوى هو طريق السيف ، ومقـــاتلة المواطنين ، ومحاولة هدم الدولة التى تكفل الأمن والسلام والعـــزة للجميـــع . ان الحـــركة التى قام بهـــا جيشهم فى سجستان — وما بعد ذلك — بقيادة ابن الأشعث ، لا يمكن أن ترى الا على أنها حركة تمرد وعصيان ، من جيش على رئيسه الأعلى وعلى الدولة . ومثل هذه الحركة تدمغ اليوم بأنها خيانة وطنية . ولا يمكن أن تبرر على أى وجه . وانما نحن نبين أن الحجاج بسياسته هذه مسئول عن قيام هـــذه الحركة ، والنتائج السيئة التى أدت اليها . انه يحمل — الى حد كبير — وزر الحركة . لأنه دفع الناس اليها ، وهيأ الجو لها باعدامه الثقة بينه وبين الرعية ، واتباعه سياســـة العسف التى تبث الكراهية ، بدل سياسة التعـــاون والانصـــاف والعطف . ولا نبرىء ابن الأشعث أيضا من المسئولية ، لأنه عصى أميره ، واستغـــل الموقف ليرضى طموحـــه ، وظن أنه سينجح بفتنته فيحقق مجدا شخصيا . ولكنه لاقى جزاءه .

ففر وشرد ، ثم لم يجد أمامه الا أن يقتل نفسه . ولقد أضاع أهل العراق فرصة طيبة ، حينما عرض عليهم الملك عزل الحجاج ، فرفضوا . كان هذا العرض عدلا وانصافا من عبد الملك ، وحسن سياسة . وبه أقام الحجة عليهم . وهم أخطأوا خطأ بالغا برفضهم ، وكانوا فى ذلك مأفونى الرأى .

على كل حال ، أراد الله للدولة الخير . ففشلت هذه الحركة . ونال مثيروها جزاءهم . ووقى الله الأمة والمسلمين. ونجت الدولة . واستمرت فى طريقها لتحقق أعمالها الكبيرة .

(ب) الاصلاحات

أولا : ـ إصدار العملة العربية

ظلت الدولة الاسلامية العربية ، منذ نشأتها حتى عهد عبد الملك بن مروان ، تتعامل بالنقود الأجنبية . ذلك أن العرب منذ الجاهلية كانوا يذهبون فى التجارة الى بلاد الروم ، فيحصلون على عملة الدولة الرومية . ويذهبون كذلك الى بلاد الفرس أو اليمن ، فيحصلون على العملات الفارسية واليمنية . وكانت هذه هى النقود الموجودة فى الأسواق . ولما ظهر الاسلام وفتح العرب تلك البلاد ،

وجدوا فيها العملات الروميـة والفارسية . كانت الدنانير الذهبية ترد اذن من بلاد الروم ، والدراهم الفضية تأتى من بلاد الفرس ، وهناك دراهم قليلة ترد من بلاد اليمن . ولم تهتم الدولة الاسلامية -- فى بادىء الأمر -- بأن تصـدر نقودا خاصة بها . فهذه العمـلات فى بادىء الأمر كانت موفورة . وكل ما فعله الاسلام أن أقر وزنا شرعيا خاصا ، وهو الوزن الذى كانت تتعامل به قريش فى مكة . وذلك لأن العرب والتجار كانوا يتعاملون بهـذه النقـود بالوزن لا بالعدد . كأنها تبر ، وليست نقودا ، لاختلاف أحجام وأوزان الوحدات النقدية ، فلا يضمن العدل الا بالوزن .

ثم اتسعت الدولة الاسلامية ، وتبلورت الى امبراطورية ممتدة الأطراف ، وكثر فيها التعـامل وازداد نشـاطها التجـارى . وكانت دولة الفـرس قد انتهت . وانقطعت العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية والروم -- أو قلت . فأدى ذلك الى أنه -- فى الوقت الذى كثر فيه التعامل ، وازداد النشاط الاقتصادى فى الدولة الاسلامية -- أخذت تقل كمية النقود السائلة فى الأسواق ، لانقطاع مصادرها ، أو صارت -- باطراد -- لا تتناسب ولا تتكافأ مع نشاط الدولة المالى ، وحاجاتها الاقتصادية . وظلت الحالة تزداد سوءا ، حتى وصلت الى درجة خطيرة .

وكان أهم عامل أدى الى سوء الوضع المالى — ولا سيما بالنسبة للنقود الفارسية — أن هذه النقود دخل عليها الغش والتزييف ، منذ أواخر عهد الدولة الفارسية . واستمر الغش فيها بعد ذلك ، وكذلك كثر تزييف أو انقاص العملة الذهبية . قال « قدامة » بالنسبة للدولة الفارسية : « ولما أخذ أمر الفرس يضمحل ، ودولتهم تضعف ، وسياستهم تضطرب — فسدت نقودهم . فقام الاسلام ونقودهم من العين (الذهب) والورق (الفضة) غير خالصة . الى أن اتخذ الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين الخ » . وقرر ابن خلدون أنه « تفاحش الغش فى الدنانير والدراهم » ، « الى أن جاء عبد الملك وأمر بطبع العملة » . وهكذا كانت العملة الموجودة بالأسواق — كما نقول بالتعبير الاقتصادى — قد أصبحت « عملة رديئة » . والعملة الرديئة — كما ينص على ذلك قانون اقتصادى مشهور — تطرد دائما العملة الجيدة من السوق . وأدى ذلك الى نتائج اقتصادية ضارة كثيرة : فمنها هبوط قيمة العملة ، وارتفاع أسعار الحاجيات ، وزوال الثقة المالية ، ومن أهمها الغبن الذى يقع على الدولة فى استيفاء حقوقها من الضرائب ، فيؤدى ذلك الى نقص كمية الخراج .

لكل هذه الأسباب ، ولأنه ما كان يمكن أو يصح أن تظل دولة . . بل امبراطورية كبيرة كالدولة العربية الاسلامية — معتمدة فى تعاملها التجارى أو الاقتصادى العام على نقود أجنبية كان لابد من اتخاذ اجراءات لاصلاح هذا الوضع المالى الجامد ، الذى صار غير طبيعى ، وأيضا لكى تستكمل الدولة شخصيتها أو مقوماتها الاقتصادية ، وتحقق سيادتها أو استقلالها المالى ، وتتمم كرامتها القومية .

وجاء حادث يؤثر فى الكرامة القومية. فكان هو السبب الأخير أو المباشر ، الذى جعل المسئولين يرون ضرورة البدء فى الاصلاح . هذا الحادث كان من أسباب سوء العلاقات بين الدولة الاسلامية ودولة الروم البيزنطية ، الذى سبق اعلان الحرب بينهما . وهى الحرب التى نشبت بين الخليفة عبد الملك وجستنيان . . التى أشرنا اليها قبلا . وذلك فى سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) وما بعدها . وموجز الحادث أن مصر — وكانت مشهورة بصنع الورق — كانت تصدر ورق الكتابة (القراطيس) الى دولة الروم ، وكانت الدولة الاسلامية — فى مقابل ذلك — تحصل على الدنانير الرومية . فحدث أن عبد الملك بن مروان أمر أن تكتب آية :

« قل هو الله أحد » فى صدر هذه الصحف ، وبدل عبارات التثليث ، والصليب الذى كان يرسم عليها . فغضب ملك الروم ، وكتب الى الخليفة : « انكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه . فان تركتموه ، والا آتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » . فساء ذلك عبد الملك وكبر عليه ، وشعر أن ملك الروم يهدده . وحينئذ أدرك أن الدولة الاسلامية الكبيرة لا يصح أن تظل معتمدة على النقد الذى يرد من بلاد العدو ، وتبقى عرضة لتهديده أو اذلاله . وهو العدو الذليل الذى يجب أن يبقى خاضعا .

قرر عبد الملك اذن أن يحقق للدولة استقلالها المالى ، ويجرى الاصلاح الذى يزيل المفاسد الاقتصادية التى تحدثنا عنها ، ويضمن سلامة العملة ، ويوفر الشروط اللازمة للنمو الاقتصادى وانتشار الرخاء . وبذلك قرر اصدار العملة العربية القومية . ففى عام ٧٤ هـ أنشأ دارا للضرب فى دمشق ، وبدأ باصدار الدينار العربى الذهبى ، فى ذلك العام - وهو عام الجماعة . وكذلك أصدر أمره الى الحجاج بانشاء دار للضرب فى الكوفة ، وبدأ الحجاج باصدار الدرهم العربى الاسلامى . وعمم ضرب العملة فى جميع الأنحاء منذ سنة ٧٦ هـ . وقد أصدر عبد الملك الدينار

والدرهم على الوزن الشرعى ، والنسبة المعينة التى حددها الاسلام ، وذلك منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسـلام والخليفة عمر بن الخطاب . فجاءت عمـلة نقية خالصـة . وحرصت الدولة على سلامة النقد . ومنعت ضرب النقود الا فى الدور الحكومية المعتمدة . وشـددت فى عقوبة من يمس العملة بغش أو تزييف . فكان هذا اصلاحا شرعيـا أو عملا دينيا أيضا ، يضاف الى حسنات عبد الملك ، الى جانب انه اصلاح اقتصادى .

ولما صدرت العملة الاسلامية وكثرت ، أمر عبد الملك بمنع التعامل بالنقود الأجنبية الرومية والفارسية وغيرها ، التى كان أكثرها عملة مغشوشة — كما بينا - وجمعت من الأسواق ، وأعيد سبكها وطبعها على النسبة الجـديدة . وهكذا بطل التعامل — نهائيا — بالنقود الأجنبية . وصارت العملة الرسمية المعترف بها ، منذ ذلك الحين ، هى العمـلة العربية الاسلامية الصحيحة : الدينـار العـربى الذهبى الخالص ، والدرهم الاسلامى الفضى الخالص ، والوحدات اللائى ينقسمان اليها . وأصبحت سمعة هذه العملة أشرف سمعة ، لأنها كانت تمثل أعلى درجة فى الجودة والنقاء .

هذا الاصلاح الكبير ... الذى كانت له أنفع النتـائج

الاقتصادية ، ووفر للدولة أيضا ، من ناحية أخرى ، أحد عناصرها المعنوية ، ومقوماتها القومية . كان الفضل فيه للخليفة عبد الملك بن مروان .

ثانياً — اللغة العربية هى اللغة الرسمية

نفذ عبد الملك أيضا اصلاحا آخر ، كان له أجل النتائج من حيث صيانة أحد المقومات الكبرى للأمة ، وحفظ كيانها القومى ، وهو خاص باللغة . واللغة — بلا جدال — من أكبر مقومات وأهم أركان القومية .

فقد بقيت أهم دواوين فى الدولة — وهى دواوين الخراج . وهى التى كانت تشرف على الشئون المالية للدولة ، وكانت موجودة فى عواصم الدولة العربية الاسلامية ولها فروعها فى مدن كثيرة — بقيت هذه الدواوين تستعمل اللغات الأجنبية . كما كانت حالها فى عهود الدول السابقة قبل ظهور الاسلام . فكانت لغة الدواوين فى العراق هى اللغة الفارسية ، ولغتها فى الشام الرومية أى اليونانية ، وفى مصر اليونانية والقبطية . استمر الحال على ذلك ، منذ بدء الاسلام حتى عهد عبد الملك . فكانت نتيجة ذلك احتفاظ الدولة بطوائف من الموظفين ، الذين يعتبرون

أجانب ، أى من غير العرب والمسلمين . ومن نتائجه بقاء تلك اللغات الأجنبية حية ، وكأنها معترف بها لغات رسمية ، ويقبل الناس على تعلمها واتقانها لحاجة الدولة اليها ، وكونها طريقا لتولى الوظائف العالية . ولو استمر الحال كذلك لبقيت هذه اللغات منافسة للغة العربية ، ولما أمكن للغة العربية أن تتغلب عليها ، بل لأدى ذلك الى انتشار هذه اللغات الأجنبية ، وكان هذا يضعف من شأن اللغة العربية وخطرا يهددها . وبالتالى كان يضعف من تكوين الدولة القومى .

وشعر عبد الملك بتعارض هذا الوضع مع شخصية الدولة العربية الاسلامية ، التى كان يرأسها ويرعاها . وكان هو مهتما بالاشراف على جميع شئون الدولة ، وحريصا على أن تبلغ الادارة درجة عالية من الكفاءة والدقة والانتظام ، ووجد — من الناحية العملية — أن هذا لا يمكن أن يتم ما دام هؤلاء الموظفون غريبين عن الدولة ، وما دامت اللغات التى يستعملونها فى الأعمال والمكاتبات الرسمية هى لغات أجنبية . فقرر عبد الملك ازالة هذا الوضع الشاذ ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين الى اللغة العربية ، فتكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى جميع الدواوين ،

وفى الدولة . وهذه هى الحركة التى تسمى فى كتب التاريخ بحركة : « تعريب الدواوين » . وكانت لها نتائج عظيمة بعيدة المدى .

كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو « سرجون ابن منصور الرومى » ، وكان محتكرا لهذا العمل منذ عهد معاوية . فأمر عبد الملك شخصا عربيا هو « سليمان بن سعد الخشنى » ، الملقب أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان من الرومية الى العربية . فقام سليمان بذلك منذ سنة ٨١ هـ . وأتم النقل بعد سنة . وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن فى مقابل هذا العمل . ولما أتم النقل ، عزل سرجون وتولى سليمان رئاسة الديوان . وحينئذ قال سرجون لكتاب الروم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة » . وأمر عبد الملك بتحويل جميع دواوين الشام ، على هذا النحو .

وكان رئيس ديوان العراق يسمى « زاذان فروخ » — وهو فارسى — وكان محتكرا لهذا العمل كذلك من أيام يزيد — وقتل فى أثناء فتنة ابن الأشعث فى عام ٨٢ هـ . وجاء قتله مناسبا للوقت الذى اتجهت فيه الدولة الى تعريب الدواوين ، وصدر الأمر بذلك من الخليفة عبد الملك . فعين الحجاج بدلا منه صالح بن عبد الرحمن ، وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية الى العربية . وكان صالح

يحذق اللغتين معا . وحدد الحجاج له آجلا لينهى عمـله . فأتم مهمته بنجاح . وحكى أن « مردانشـاه » بن زاذان فروخ بذل له مائة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن هذا العمل ويمتنع عنه ، فأبى . وحينئذ دعا عليه لأنه - كما قال - قطع أصل الفارسية . وأمر الحجاج بتحويل جميع دواوين العراق من الفارسية الى العربيـة .وتخرج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق . ولذا كان عبد الحميـد الكاتب يقول : «لله در صالح . ما أعظم منته على الكتاب» .

وكذلك تم نقل ديوان الخـراج أيضـا فى مصر ، من اليونانية والقبطية الى اللغة العربية ، ولكن فى وقت بعـد هذا . أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك فى آخر عهد أبيه .

ثم تم تحويل جميع الدواوين فى سائر أنحاء الدولة الى العربية ، فى أوقات بعد ذلك .

بذلك أصبحت اللغة العربية هى لغة جميع الدواوين ، ولغة الدولة . وكانت كبرى نتائج ذلك ابطال تلك اللغات الأجنبية ، فتحقق نصر اللغة العربية عليهـا . وكان تعريب الدواوين سبيلا الى تعريب الجاليات والأقاليم ، فكان هذا من أكبر العوامل فى انتشار العربية . ولمـا كانت هى اللغة التى تؤدى الى الوظائف والمناصب العالية ، فقد أصبحت لها

المكانة الممتازة . وأقبل الموالى وغيرهم على تعلمها واتقانها ، فتكونت فى الدواوين طبقات من الموظفين المثقفين الذين حصلوا على قدر من الثقافة العربيـة ، ونبغوا فى الكتابة والآداب العربية . ومن أظهر الأمثلة فى ذلك : عبد الحميد الكاتب ، ثم كبار الكتاب فى عهد بنى العباس .

حتفظ للأمة العربية اذن أكبر مقوم لثقافتها القوميـة ، وأغلى عنصر تعتز به — بعد دينها — فى تكوين شخصيتها — ألا ، وهو اللغة العربية . وكان لعبد الملك فضل لا يقدر فى ذلك .

مكانته فى التاريخ

فالآن بعد أن وصلنا الى هذه الغاية ، وفى ضوء ما قدمنا من حقائق عن سيرة عبد الملك وأعماله وفتوحاته واصلاحاته، نستطيع القول بأن مكانته فى التاريخ قد أصبحت واضحة . فهذه المكانة تحددها الجوانب الرئيسية التالية :

أولا : أنه حفظ الدولة وثبت دعائمها ، ومكنهـا من البقاء والاستمرار .

ثانيا : أنه حقق وحدة الدولة . وهـذا مطلب غال . وهو أكبر ضمان لبقائها ونموها وازدياد قوتها .

ثالثا : أنه عمل على تقوية الدولة ، وجعلها تسترد مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء كما كانت ، أو أكثر .

رابعا : أنه وسع حدود الدولة ، فأضاف اليها أقاليم جديدة . وأهم ما تحقق فى هذا الشأن فتوحه فى بلاد المغرب . فأصبحت منذ ذلك الحين جزءا لا يتجزأ من الدولة العربية .

خامسا : وضع أساس السيادة الاقتصادية للدولة باصداره العملة العربية .

سادسا : حفظ أحد المقومات الكبرى للدولة وللقومية بتحويله جميع الدواوين الى اللغة العربية .

وقد استمرت الدولة بعد ذلك محتفظة بهذه المميزات والمقومات والأسس ، حتى بعد أن انتهى عهد الدولة الأموية، وذلك بعد نحو نصف قرن . فان الدولة العباسية انما قامت — أيضا — على هذه الأسس ، واحتفظت بهذه المقومات . وكانت — على رغم تغيير الأسرة استمرارا للدولة الأموية ، من حيث القواعد الجوهرية . ولولا اقامة عبد الملك للدولة على أسس ثابتة ، وتحقيق وحدتها ، واعادة قوتها وروحها وتدعيم نظمها لما أمكن لبنى العباس أن يقيموا

دولتهم ويحفظوها ، ويسيروا بها الى أن أوصلوها الذروة التى بلغتها . فاللاحق بنى على جهود السابق ، والدولة الاسلامية العربية استمرت فى حياتها .

بقيت بعد ذلك جوانب ، تعرف من دراسة شخصيـــة عبد الملك وصفاته وسياسته ، وتتصل أيضا بأثره فى التاريخ ببقاء الخلافة والملك فى بيته . اذ تولى أمانة الحـــكم بعده أولاده ، ثم استمر الملك فى أحفاده وذريته حين أقاموا الدولة الأموية الأخرى فى المغرب : أى الأندلس . فهذه هى النقط الباقية ، وتتحدث عنها الآن ، ليتم بهـــا الحديث عن هذه الشخصية الكبيرة الأثر فى التاريخ .

الفصل العاشر

شخصية عبد الملك . سياسته . خلفاؤه

لابد أن شخصية عبد الملك قد أصبحت الآن متميزة من خلال دراسة سيرته وأعماله وجهـــوده وسياسته . لكن هذه الصورة تزداد وضوحا وجلاء ، وتتحدد ملامحها ، اذا عينا الصفات الخاصة التى تميز شخصيتـــه ، وجمعناها فى نسق واحد . وعرفنا نماذج من صلاته الانسانية ، وأسلوب اشرافه على الدولة ومبادىء سياسته ، ومن حياته فى الأسرة وأثره فيها . وهذا ما نحاول أن نضيفه - فيما يلى — الى هذه الصورة . وهو ختام البحث .

فاذا أردنا — أولا — أن نعرف شيئا عن صـــــورته الجثمانية ، فلم يرد الا القليل . فهذا ما ورد . قال «المدائنى» : « كان عبد الملك آدم (أى أسمر) جميلا أقنى ، كأنه من رجال ثمود فى تمامه » . واستشهد بعد ذلك بما قال عبد الله أثنهائها منطقة « باذغيس » كلها ، واستولى على حصونها . ابن قيس الرقيات ، وهو يمدح عبد الملك :

يعتدل التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب !

فحكى المدائنى أن رجلا سمع هذا الشعر ، فقال :

نعلم — والله — أنه (أى الشاعر) قد رآه : أى أن هذا الوصف صادق ينطبق على عبد الملك .

فبعد أن تتخيل عبد الملك فى هذه الصورة — تتقدم لمعرفة صفاته النفسية ، ويهمنا أن نعرف الصفات البارزة قبل كل شىء .

فما قد تبين لنا من دراسة تاريخ عبد الملك أنه كان قوى الارادة ، وأنه كان ثابت العزم ، يصر على الوصـــول الى غايته ، مهما كان فى طريقه من عقبات ، ومهما حاول المترددون أن يثبطوا من همته . وكانت الشجاعة لديه موفورة ، فيقدم على ارسال الجيوش ومنازلة الخصوم وخوض معارك القتال ، دون أن يتهيب الصعاب أو يخشى المخاطر . وهاتان الصفتان : قوة الارادة ، والشجاعة — فى مقدمة الصفات التى تشترط للقيادة والزعامة ، فلا يصلح لقيادة الأمم ورياسة الدول الا من كانت متوفرة فيه هاتان الصفتان . وبفضل هاتين الصفتين ، استطاع عبد الملك فعلا أن يصل الى غايته : من الانتصار على خصومه ، ونجاحه فى تحقيق الوحدة .

وكانت تصاحب هاتين الصفتين — أو هى فرع عنهما — صفة عبر عنها القدماء ، فى تحدثهم عن عبد الملك ، بأنها :

« الحزم » . ويقصد به الثبات فى مواجهة المواقف ، واتخاذ القرارات ، والبت فى الأمور دون تردد . ولذا قالوا : « كان معاوية أحلم . وعبد الملك أحزم » . وبذلك شهد له أبو جعفر المنصور — وقد ذكر ملوك بنى أمية — فقال : « كان عبد الملك أشدهم شكيمة ، وأمضاهم عزيمة » . فاذا أردنا أن نجمع هذه الصفات كلها فى صفة واحدة ، ونجعلها صفة تعبر عن شخصية عبد الملك — قلنا ان الصفة التى نستخلصها من تصرفات عبد الملك وأعماله وسياسته هى : القوة . فالقوة هى الطابع العام لشخصيته : القوة فى الارادة والعزم والسلوك والتنفيذ . وقد كان الموقف الذى وصلت اليه الأمة والدولة فى ذلك الوقت — كما شرحنا فى الفصول السابقة — يتطلب رجلا له هذه القوة النفسية ، ليحل الأزمات والمشاكل بقرارات نهائية يتخذها وينفذها ، بقوة الارادة والاصرار والحزم . وهكذا تمكن عبد الملك من حل جميع المشاكل التى كانت أمامه — وقد سبق أن فصلنا القول فيها — فحين ترك الدولة لابنه الوليد تركها هادئة ، خالية من المشاكل والتعقيدات . فكانت سفينة الحكم فى عهد الوليد تسير فى بحر مستقر ، وجو هادىء ، ولذا أمكن أن تتم فى مدته أعمال عظيمة .

ومن الأمثلة الظاهرة على حزم عبد الملك : تصرفه فى مسألة عمرو بن سعيد الذى قام بمؤامرة لقلب الدولة ، فقد تحرك عبد الملك بسرعة ، وبت فى الأمر ، وقضى على الفتنة فى مهدها ، دون أن يدفعه الى التردد عامل القرابة والصلة ، أو مكانة عمرو أو اعتبارات أخرى . وقد ذكر عبد الملك هذه المسألة — فى أواخر عهده — فى أثناء حديث جرى بينه وبين أحد مستشاريه حول التأنى والعجلة ، فقال عبد الملك : « .. ربما كان فى العجلة خير كثير . أرأيت عمرو بن سعيد ، ألم تكن العجلة فى أمره خيرا من التأنى فيه » ! . وقد كانت هذه المسألة مثلا أو درسا ، ردع من كانت نفسه تحاول أن تحدثه أن يفعل مثلما فعل عمرو بن سعيد .

وقد كان من نتائج صفة القوة أن عبد الملك كان شديدا فى سياسته . وهذه الشدة كانت موجهة — بصفة خاصة — ضد المخالفين أو العصاة ، أو من يحتمل أن يكونوا كذلك . وقد ظهرت هذه الشدة فى معاملته لأهل العراق . فلا شك أن عبد الملك أوصى عامله الحجاج حين أرسله الى العراق أن ينهج منهج الشدة ، وتدل على ذلك خطبة الحجاج . وكان الأمر يقتضى ذلك ، لتخاذل أهل العراق عن الدفاع عن وطنهم والدولة ضد الخوارج ، ودأبهم على العصيان . لكن

الحجاج استمر فى هذه السياسة ، وجعلها قاعدة بعد انتهاء مقتضيها . فأدت الى عكس ما يراد منها . فكان هذا خطأ فى السياسة . وقد أوضحنا ذلك فيما مضى حين تحدثنا عن سياسة الحجاج ، وحملنا عبد الملك أيضا جانبا من المسئولية. وقد بينا أيضا فى فصل سابق « الرابع » السبب أو العلة فى انتحاء عبد الملك منحى الشدة واتباع سياسة الصرامة والحزم ، فقلنا ان أكبر درس تلقاه فى مطلع عمره ورسبت عبرته فى أعماق نفسه كان هو الدرس الذى أخذه من مقتل الخليفة عثمان ، الذى كان عميد أسرته وقمة مجدها . فقد فجع بمصرع هذا الخليفة . ولم يجد سببا لحدوث الفاجعة أو الكارثة الا ضعف أو تهاون عثمان ، اذ أن الخليفة لو كان اتبع سياسة الشدة ضد الذين شغبوا عليه ، لقضى عليهم من بادىء الأمر ، ولم يعرض نفسه والدولة للكارثة التى وقعت . فمن ذلك الحين وعى عبد الملك هذا الدرس ، ثم رأى الفتن التى حدثت بعد ذلك وعواقبها . فحين شاءت الأقدار أن تضعه فى موضع عمه الخليفة عثمان ، عزم على أن يطبق الدرس ويتمسك به ، وهو يكره الفتن ويعتقد أن خير سياسة هى الشدة أو القوة وفيها النجاة للنفس والدولة ، وأن فى الضعف والتردد الخطر والهلكة . وقد أوردنا فى

ذلك الفصل المذكور نص حـديث عبد الملك عن هـذا الموضوع، ، وكان مما قال فيه : « وما خالف عثمان عمر فى شيء الا باللين . فان عثمان لان لهم حتى رُكب . ولو كان غلّظ عليهم جانبه كما غلّظ عليهم ابن الخطاب ، ما نالوا منه ما نالوا » .

وتظهر هذه السياسة فى خطب ولاته كخطبة الحجـاج ، وفى خطبه هو أيضا . ونذكر هنا نص خطبتين له — وهما يبينان أيضا أسلوبه فى الخطابة : —

فالخطبة الأولى خطبها فى دمشق ، بعـد حادث عمرو ابن سعيد ، وفيها قال — بعد المقدمة — : «أرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبر منكم عظة . ولا تكونوا أغفـالا من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادر النقمات . وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة ، وتتركـكم همدا رُفاتا ، وتشتمل عليـكم بطون الأرض أمواتا . فاياى من قول قائل ، ورشقة جاهل . فانما بينى وبينكم أن أسمع النغوة ، فأسمم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحنق الموتور . وانما هى المصافحة والمكافحة بظبات السيوف وأسنة الرماح .

فانظروا لأنفسكم وأقبلوا على حظوظكم . وليكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم . واستديموا النعمة التى ابتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها ، فانكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء والمثوبة . عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغه ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه . انهضوا - رحمكم الله - الى أعطياتكم غير مقطوعة عنكم ولا مكدرة عليكم » .

أما الخطبة الثانية فقدخطبها بالمدينة — وذلك بعد عودته من مكة عام حج سنة خمس وسبعين . وكان ذلك بعد احرازه النصر وانتهاء أمر عبد الله بن الزبير ، فقد صعد المنبر وألقى الخطبة التالية :

« أما بعد - أيها الناس - فلست بالخليفة المستضعف ولا الخليفة المداهن ، ولا الخليفة المأفون (يعنى بذلك الخلفاء : عثمان ومعاوية ويزيد - على الترتيب) .

ألا وانى لا أداوى أدواء هذه الأمة الا بالسيف ، حتى تستقيم لى قناتكم . فمن أحب أن يبدى صفحته فليفعل .

تكلفونا أعمال المهاجرين ، ولا تعملون مثل أعمالهم ؟!

ان الله عز وجل فرض فرائض وحدد حدودا . فما زلتم

تزدادون فى الذنوب ونزداد فى العقوبة ، حتى اجتمعنا وأنتم عند السيف .

هـــذا عمرو بن سعيد — قرابته قرابته ، وموضعــه موضعه — قال برأسه كذا ، فقلنا بأسيافنا كذا .

ألا وانا نحمل لكم كل شىء ، الا وثوبا على أمير ، أو نصب راية .

الا وان الجامعة التى جعلتها فى عنق عمــرو بن سعيد عندى ، فوالله لا يفعل أحد فعله الا جعلتها فى عنقه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم . » ثم نزل .

فهاتان الخطبتـــان تدلان على السياسة التى اختـــارها عبد الملك ، وهى سياسة الحزم والقــوة . ولا غرو ، فهذه السياسة كانت رد الفعل للفتن التى اجتاحت الأمة وفرقت أمرها ، وآذتها طوال سنين عديدة . وقد لخص الجاحظ حياة عبد الملك — فى دوريها — فى قوله الذى سبق أن اقتبسناه اذ قال : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها ، رأيا وحزما . وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهدا » .

نستخلص من كل ذلك أن الفترة التى كانت تجتـــازها الأمـــة فى ذلك الوقت كانت تتطلب القوة والحـــزم ، وأن

عبد الملك كان الشخصية المناسبة للموقف ولقيادة الأمة فى ذلك الدور ، وأن القوة كانت الطابع العام لسياسته . وكان هو يشعر بذلك وبثقته فى نفســه ، اذ كان يقول : « والله ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى » .

على أننا يجب أن نفرق بين الشدة والقسوة ، وبينها وبين الرغبة فى التسلط أو النزوع الى الاستبداد . فقد كانت شدة عبد الملك بعيدة عن هذا . وانما كانت نوعا من الحزم لمنع الفتن أو قمعها ، وكان رائدها المحافظة على ســلامة الدولة وطاعة القانون ، لا الرغبة الشخصية حبا فى التحــكم أو الانتقام ... حتى الشدة — التى جاوزت حدها · من الحجاج كان رائده العام فيها حرصه على سلامة الدولة وسيادة القانون والنظام ، لكنه أخطأ فى التنفيــذ وغلا ، فلم يراع الشعور العام ولا الخاص ، حتى انقلب حكمه الى نوع من التجبر والعسف . ولا نخليه أيضا من النزعات الشخصية . وقد لاحظ عبد الملك اسرافه هذا ، فكتب اليه يلومه على ذلك ، وكثيرا ما كان يؤنبه ويرشده . ولما تبين لعبد الملك خطأ سياسة الحجاج فى أثناء فتنة ابن الأشعث ، عرض على أهل العراق عزل الحجاج ، وتولية أخيه محمد بن مروان عليهم · كما قدمنا · وكان هذا انصافا وحكمة من

عبد الملك – لكنهم رفضوا ، وأصروا على أن يداوموا الحرب ضد عبد الملك والدولة ، فاستحقوا بذلك سوء رأى عبد الملك فيهم ، وصار من الضرورى ابقاء الحجاج عليهم ، عقابا لهم وتأديبا ، وحتى يعودهم الخضوع ويشفيهم من داء الفتنة والعصيان . فهذه كانت حالة خاصة أو استثنائية .

لكننا نرى أن شدة عبد الملك كان يقترن بها – بصفة عامة – الحكمة . كما يتجلى ذلك فى توصيته للحجاج أن يكف عن العلويين ، وأن يجنبه دماء آل أبى طالب . وقد سبق أن روينا نص وصاته فى ذلك . ولذا لم يحدث فى عهد عبد الملك شىء يثير الرأى العام . بل انه أحسن معاملة آل على وآل العباس . وقد كان هذا من بواعث الاستقرار فى عهده وعهد ابنه الوليد . ولم نسمع عن قتل أحد من الناس أو اضطهاده لغرض شخصى ، وحتى الخصوم السياسيين ، الا من اشتركوا فى فتنة أو ثورة ضد الدولة . بل اننا اذا تعمقنا فى فهم شخصية عبد الملك تتبين أن شدته كانت ظاهرية ، وأنها كانت مجرد اتخاذ موقف حازم من المخالفين والعصاة لأن الضرورة العملية كانت تقتضى ذلك ، أى أنها كانت سياسة فرضتها أو تفرضها الظروف والأحوال القائمة . أما حقيقة شعور عبد الملك فانه كان يميل الى العفو والمسالمة

والود . فنرى ذلك من أنه كان يعرض الأمان على أعدائه قبل بدء القتال وفى أثنائه ، ويكره قتلهم . ثم يعز عليه مصيرهم : كما حدث مع مصعب ، وعبد الله بن الزبير وزفر بن الحارث ، ومن كان معهم ، وغيرهم . فهذا يدل على سمو نفسية عبد الملك وسماحته ، وتشبعه بالروح والعاطفة الانسانية . ومن قبل من هؤلاء الأمان وفى له وعفا عنه ، بل أكرمه ، كما حدث له مع زفر وابنه الهذيل — بعد أن ظلا يقاتلانه سبع سنوات . وقد صارا بعد من خواص جلسائه . ولو كان مصعب وعبد الله بن الزبير قبلا الأمان ، لاستبقيا حياتيهما .

وكما حدث أيضا من عفوه عن اخوة وأبناء عمرو بن سعيد وأسرته ، ثم وصله لهم وبره بهم . وأمثلة عفوه عن خصومه كثيرة . فقد عفا عن القواد الذين كانوا مع مصعب وحاربوه من قبل . فقد روت الأخبار أنه « لما قتل مصعب واستقام الأمر لعبد الملك ، دخل عليه عمر ابن عبيد الله بن معمر ، وسويد بن منجوف ، ونعيم ابن مسعود التميمى ، وقيس بن الهيثم السلمى - بعد أن حبسهم على بابه حينا . . فقال عبد الملك : انكم سعيتم مع

الشيطان فكنتم حزبه ، فلما نكص نكصتم . ثم بعد أن تكلموا بكلام فيه اعتذار واستعطاف — عفا عنهم ، وأسنى جوائزهم » . ووردت أنباء أخرى عن عفوه عن كثير من الناس .

فهذه الشواهد وغيرها تدل على حقيقة نفسية عبد الملك، وأنه يميل الى الرحمة والعفو والمسالمة . وأما الشدة فانها كانت سياسة وضرورة . أو بعبارة أخرى : ان هذه الشدة كانت نابعة من عقل عبد الملك لا وجدانه . فهى أشبه بالشدة التي يلجأ اليها الوالد لضرورة اصلاح ابنه وتقويم مسلكه ، على حين أن قلبه يفيض بالرحمة والعطف والأسى لما يحدث . وهو ما يعبر عنه الشاعر بقوله : « فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما . فليقس أحيانا على من يرحم » . وهذا هو الذى يتفق حقيقة مع طبيعة نفسية عبد الملك وخلقه ، وهى نفسية التقى الفقيه الذى يخاف ربه ويعرف أحكامه . واذن فلا تناقض بين دورى حياة الرجل . ففى الدور الأول كان عابدا محافظا يشتد على نفسه فى أداء واجبه ، وفى الثانى كان سياسيا وراعيا ووالدا ، ينهج منهج الشدة للمحافظة على الأمة والدولة ، وصونهما من شرور الفتن والخلاف والتفرق . وكلاهما واجب دينى : الأول خاص ، والثانى عام .

فالخلاصة أن عبد الملك كان رجل الواجب ، صارما في أدائه والاضطلاع بمسئوليته ، دون أن تختلط بذلك نزعة الحقد أو الانتقام أو التسلط ، بل في استعـداد للرحمـة والعفو والمصالحة . وهذه هي السياسة الجديرة بالمسلم الذى يعرف ربه ، والعربى النبيل .

وحيث قد عرفنا أن قوة عبد الملك وصرامته تنبعان من عقله ، فقد وصلنا الى صفة جوهرية تميز شخصيته - وتتفرع عنها صفات أخرى — وهى قوة العقل أو رجاحتـه . فكل تصرفات عبد الملك وأعماله وسياسته توحى بأن صاحبها رجل موفورالعقل ، أو « محشو عقلا » ، وأنه سديد الرأى ، تملى عليه تصرفاته الحكمة ، ومتزن الشخصية . وآية ذلك ضبطـه لعواطفه ، وقدرته على العفو - كما شـاهدنا - ونسيان الماضى ، بما كان فيـه من أذى وأضرار . وآيته انصافه ، حتى لأعـدائه . فلم تحمـله خصومته لمصعب أو عبد الله بن الزبير — أو غيرهما — أن ينال منهم ، بل كان يعطيهم حقهم ويثني عليهم . فقد تحدث لجلسائه عن مصعب ووصفه بأنه أشد الناس ، وذلك لأنه — كما قال — : « كان أكثر الناس مالا ، وقد جعلت له الأمان وولاية العراق ، وعلم أنى سأفى له للمودة التى كانت بيننا ، فحمى أنفـا ، وأبى

وقاتل حتى قتل ! » . فذكر رجل أن مصعبا كان يشرب النبيذ، فقال عبد الملك : « كان ذلك قبل أن يطلب المروءة ، فأما مذ طلبهـا فلو علم أن الماء ينقص مروءته ، ما شربه » . ومدح طارق بن عمرو — وهو القائد الذى كان مع الحجـاج فى محاصرة ابن الزبير — مدح عبـد الله بن الزبير . فاعترض عليه الحجاج ، وقال له : تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين. فبلغ كلامهما عبد الملك فحكم بأن طارقا هو المصيب .

ومما يشهد بقوة عقل عبد الملك ما حدثت به الأنباء أن عبد الملك كان اذا دخل عليه رجل من أفق من الآفاق ، قال له : « أعفنى من أربع . وقل بعدها ما شئت : لا تكذبنى ، فان الكذوب لا رأى له . ولا تجبنى فيما لا أسألك ، فان فيما أسألك عنه شغلا . ولا تطرنى فانى أعلم بنفسى منك . ولا تحملنى على الرعية فانى الى الرفق بهم أحوج » .

وليس هناك ماهو أكثر حكمة من هذه التعليمات الى من يجالس الحاكم . فهو ينهاه عن الكذب ، لأن الكذب ضلال . وعن أن يخوض فيما لم يسأل عنه . وعن النفاق ومداهنـة الحاكم . فليس عبد الملك ممن يقبل أو يغره النفاق ، ويحذره أن يثيره ضـد الرعية ، لأنه يرى أن الرفق بهم واجب . ومما يؤيد أيضا ما قررنا ما روى أن عبد الملك سئل : من

أفضل الناس ؟ . فقال : « من تواضع عن رفعة . وزهد عن قدرة . وأنصف عن قوة » . وبالجملة فان أعمال عبد الملك وأقواله تشهد برجاحة عقله وقوة رأيه. وسنقرأ أمثلة أخرى أيضا فى وصاياه ، ورسائله ، التى سنورد بعضها بعد قليل .

ومن أهم الصفات التى عرفت عن عبد الملك ثباته عند الخطوب وجلده فى الشدائد ، فيحتملها بقوة عزيمته ولا يرتاع لها .

ومن ذلك ما رواه التاريخ عن أحد أصحاب عبد الملك أنه قال : « رأيت عبد الملك وقد أتته أمور أربعة فى ليلة ، فما تنكر ولا تغير وجهه : قتل عبيد الله بن زياد ، وقتل حبيش ابن دلجة بالحجاز ، وانتقاض ما كان بينه وبين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد الى دمشق » . وهذا الخبر يبدو صحيحا فى جوهره ، ولكن عند التأمل يعترض عليه بأن هذه الأمور لم تحدث فى ليلة واحدة ، ولا فى سنة واحدة : فالأول حدث فى سنة ٦٧ ،والثانى حدث فى سنة ٦٥ ،والأمران الأخيران حقيقة حدثا فى عام واحد ، لكن هذا هو عام ٦٩ هـ . كذلك أورد المسعودى رواية فيها أكثر من هذا الخلط ، وذكر أمورا عديدة ثابت أنها حدثت فى سنوات متفرقة على أنها وقعت فى عام واحد ، أو نفس الليلة .

وكما قلنا ان جوهر الخبر صحيح . وهو أن عبد الملك وردت عليه أخبار مفزعة فى ليلة واحدة أو وقت متقارب ، فلم يظهر أثر الانزعاج عليه ولم يتغير وجهه . لكن الرواة خلطوا بين الوقائع ، ونسوا أمورا فذكروا غيرها . واذا أردنا أن نصحح الخبر ، فاننا نقول ان هذه الأمور الأربعة — التى يمكن أنها وردت أخبارها على عبد الملك — هى : قتل زهير بن قيس بافريقية ، وانتقاض ما بينه وبين ملك الروم وخروج عمرو بن سعيد ، وحدوث اختلال للأمن فى دمشق . فهذه الأمور الأربعة قد حدثت كلها فعلا فى عام ٦٩ هـ . وقد وردت بعض هذه الأمور فى الروايتين ، ولكن مخلوطة بغيرها . وقد ذكر المسعودى فى ختام روايته — بعد أن عدد ما نمى الى عبد الملك من المفظعات فى تلك الليلة — قال : « فلم ير عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا ، منه تلك الليلة — تجلدا وسياسة للملوك » .

إدارته للدولة

أما من حيث أسلوبه فى ادارة الدولة ، فانه كان يشرف على الأمور بنفسه . كان مثال الرئيس العارف بواجبه لا يلهيه

عنه شاغل ، والذى ينظر الى عمله فى الدولة أو خدمته لها على أنه الغاية من حياته . كان البريد منتظما فى أيامه . فتصل اليه الأخبار والرسائل من جميع الأنحاء ، ويبعث برسائله وتعليماته الى ولاته وعماله . وكان يرجع اليه دائما فى الأمور الهامة . وحتى الحجاج — على علو قدره ومقامه — كانت ترد اليه الرسائل والأوامر بانتظام ، ويبعث هو يطلب الاذن بالشروع فيما يهم به من أعمال ذات بال . ومن خلال هذه المكاتبات لا يبدو الحجاج الا مجرد عامل أو تابع ، أو خادم للخلافة والدولة ، فيخاطبه عبد الملك بأشد لهجة اذا اقتضى الأمر . ونورد أمثلة من هذه الرسائل :

كتب اليه عبد الملك بعد موقعة دير الجماجم يقرعه ، ويقول له : « أما بعد ، فقد بلغنى سرفك فى الدماء ، وتبذيرك الأموال . وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس . وقد حكمت عليك فى القتل بالقود ، وفى الخطأ بالدية . وأن ترد الأموال الى أصحابها ، فانما المال مال الله ونحن خزانه . وقد منعنا بحق فأعطينا باطلا » .

وفى هذه المناسبة كتب اليه الخليفة أيضا ، يأمره أن يعطى الناس عطاءهم . فكتب الحجاج يبرر منع العطاء عنهم بأنهم نكثوا العهد ، ونقضوا البيعة وفارقوا الجماعة الخ ،

فرد عليه عبد الملك برسالة شديدة ، قال له فيها : « انما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم » .

وكان الحجاج قد كتب اليه أيضا يستأذنه فى أخذ زيادة من أموال أهل العراق ، فكتب اليه عبد الملك : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك . وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » .

أما احدى الرسائل الشديدة اللهجة فتلك التى كتبها عبد الملك الى الحجاج ، حين أساء هـذا الى أنس بن مالك خادم رسول الله وأضرّ به ، اذ أن عبـد الله بن أنس كان من الخارجين على الحجاج فى بعض الثورات .

غضب عبد الملك لما لحق أحد أصحاب رسول الله ص ، وأقرب الناس اليه ، من الاهانة . فكتب الى الحجاج رسالة قال فيها : ـ

« من عبد الله عبدالملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف. أما بعد ، فانك عبد طمت بك الأمور فطغيت . وعلوت فيها حتى جزت قدرك ، وعدوت طورك . وأيم الله ... لأغمزنك كبعض غمزات الليوث الثعالب ، ولأركضنك ركضة تدخل منها فى وجارك ... وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على أنس بن مالك خادم رسـول الله ﷺ ، جرأة منك على

أمير المؤمنين ، وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله . وأيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرما ، وانتهكت له عرضا فيما كتب به الى أمير المؤمنين، ابعث اليك من يسحبك ظهــرا لبطن ، حتى ينتهى بك الى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب . ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك . « ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

وجاءت الأخبار بما يدل على أن عبد الملك بن مروان كان حريصا على أن تكون النزاهة من أولى صفات عماله وولاته .

فقد روى المــدائنى وغيره أنه بلغ عبد الملك أن بعض عماله قبل هدية . فأمر باشخاصه اليه . فلما حضر قال له : أقبلت هدية مذ وليتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال . قال : أجب عما سألتك ! . قال نعم ، قد قبلت ! .

فقال : لئن كنت قبلت هدية لا تنوى أن تعوض المهدى لها ، انك للئيم . وان كنت قبلتها لتكافىء المهدى من مال المسلمين ، أو لتقلد رجلا من عملك مالم تكن لتقلده اياه قبل الهدية ... انك لخائن . وان كنت نويت تعويض المهدى عن هديته من مالك ، فقد فعلت ما جلب لك التهمة ، وبسط فيك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك .. فانك

لأحمق . وان من أتى أمرا لم يخل فيه من لؤم ، أو خيانة ، أو حمق — لحقيق ألا يصطنع : (أى يستخدم) . ثم عزله .

أما عن بيت مال عبدالملك ، فقد حدثت الأخبار بأنه «كان لعبد الملك بيت مال لا يدخله الا مال طيب . لم يظلم فيه مسلم ولا معاهد . وقد عرف وجـوهه . ويقول : لا أستحل الا طيبا » .

وهذا هو الجدير بالرجل الفقيه العابد التقى ، الذى صار فيما بعد ملكا . وهو — كما تقول اليوم — الملك العالم . فعبد الملك كان من طراز الخلفاء السـابقين ، وكان يتشبه بعمر بن الخطاب فى شدته ونزاهته ورعايته لواجبه ، وحرصه على صالح الدولة .

ويتبين جانب آخر من سياسته العامة فى مثل هذه الوصية التى أوصى بها ابنه ، حين عهد اليه بامارة مصر — قال له : « أنظر — أى بنى — الى أهل عملك ، فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخـره الى عشية ، وان كان لك عشية فلا تؤخره الى غدوة . وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . واياك أن يظهر لرعيتك منـك كذب ، فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر جلساءك وأهل العلم . فان لم يستبن لك فاكتب الىّ يأتك

رأيى فيه ان شاء الله . وان كان بك غضب على أحـــد من رعيتك ، فلا تؤاخــذه به عنــد ســورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك . ثم انظــر الى أهل الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك . ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم . أقول هذا ، وأستخلف الله عليك».

* * *

وكان كبار معاونى عبد الملك فى ديوان الخلافة بدمشق — أى المتولين رئاسات دواوينه — هم : قبيصة بن ذؤيب الخزاعى ، وهو من أجلاء فقهاء المدينة ، وقرين عبد الملك فى العلم والعبادة . وكان هو أقرب الناس اليه بمثابة الوزير ، يكتب له ويتلقى الرسائل الخاصة ، وكان صاحب « ديوان الخاتم » . ثم يليه « روح بن زنباع الجذامى » ، وهو من عرب الشام ، وكان معروفا أيضا بالفضــل والورع وكمال السيرة ، فتولى رئاسة « ديوان الرسائل » حينــا . وكان عبد الملك يقول عنه : « ان روح بن زنباع شامى الطاعة ، عراقى الخط ، حجازى الفقه ، فارسى الكتابة » . كما أنه كتب لعبد الملك أيضا رسائله « أبو الزعيزعه » مولاه ، وهو من بلاد المغرب من البربر المتعربين ، وعرف بسداد الرأى ، والاخلاص فى الطــاعة . أما ديوان الخراج ... الخــاص

بالأموال — فكان الذى يتولاه هو « سرجون بن منصور الرومى » ، كما كان فى هذه الوظيفة منذ عهد معاوية . ولكن حين أمر عبد الملك بتعريب الدواوين ، عين على رئاسة الديوان أحد مثقفى العرب : وهو « سليمان بن سعد الخشنى » .

ولم يكن عبد الملك يقيم بدمشق طوال العام ، بل كان يتنقل بين أماكن مختلفة حسب فصول السنة . وقد عرفت هذه الأماكن . فكان يشتو : أى يقضى وقت الشتاء القارس فى موضع ، اسمه « الصنبرة » بالأردن ، ثم ينتقل فى أواخره الى « الجابية » . ثم يقضى فصل الربيع فى دمشق ، وكذلك فصل الخريف . أما فى الصيف فى شهور الحر الشديد ، فكان يقيم ببعلبك فى لبنان . ذلك لأن الأردن ولبنان وسورية كانت كلها اقليما واحدا ، وهو الشام .

وكان كبار ولاة عبد الملك هم : الحجاج بن يوسف الثقفى — واليا على العراق والمشرق ، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى على خراسان ، ثم ابناه يزيد والمفضل . ومحمد ابن مروان على الجزيرة والموصل ، وعبد العزيز بن مروان فى مصر ، وحسان بن النعمان الغسانى على بلاد المغرب . وتعاقب على الحجاز يحيى بن الحكم ، فأبان بن عثمان ،

فهشام بن اسماعيل المخزومى . وكل هؤلاء عرب . فالدولة فى ذلك العهد كانت عربية خالصة : خليفتها وولاتها وحكامها وقوادها عرب . وهم الذين يتولون المناصب الرئيسية . وقد برهنوا على كفاءة ومقدرة عالية ، ووصلت الدولة فى عهدهم الى أوج القوة والسيادة .

مجالسه الأدبية

كان عبد الملك أديبا عالما ، أو كما عبر « ابن طباطبا » : « كان أديبا ذكيا فاضلا » ، وحصل — كما ذكرنا من قبل عند الكلام على سيرته — على أكبر قدر ممكن من الثقافة العربية . فكان يحب الأدب والشعر ، وفى أوقات فراغه يعقد المجالس الأدبية فى حضرته ، التى تتبادل فيها الأحاديث اللغوية والأدبية وغيرها ، وينشد الشعراء شعرهم مدحا فيه وفى بيته أو فى أغراض أخرى .

وقد سجلت كتب الأدب أو التاريخ بعض هذه المجالس ، وبينت كيف أن عبد الملك كان هو الذى يشرف على المجلس وينتقد ما يلقى عليه من الشعر انتقادا دل على ذوق أدبى رفيع وذكاء لماح وبراعة فى النقد .

ولنورد هنا طرفا من أخباره الأدبية .

عقد عبد الملك أحد هذه المجالس ، وقال للحاضرين : ليقل كل منكم أحسن شعر سمع به . فرووا لامرىء القيس وطرفة والأعشى ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا . فقال عبد الملك : أشعرهم والله الذى يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه
بحلمى عنه ، وهو ليس له حلم
يحاول رغمى لا يحـاول غيره
وكالموت عندى أن يحل به الرغم

وظاهر أن الذى أعجب عبد الملك المعنى الخلقى الذى ينطوى عليه هذا الشعر ، وهو الاحسان الى ذوى الأرحام والعفـو عن سيئاتهم ، وما يتضمن ذلك أيضا من حكمة سياسية .

وفى مجلس آخـر قال للشعراء : « يا معشر الشعراء ، تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر ، ومرة بالجبـل الأوعر ، ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلتم فينا كما قال الشاعر : ـ

نهاركمو مكابدة وصوم
وليلكمو صـلاة واقتراء

أى أنه أراد أن يمدحه الشعراء بأنه يقضى ليله ونهاره فى العبادة وطاعة الله .

ودخل عليه « عبد الله بن قيس الرقيات » فأنشده مادحا له :

ان الأغر الذى أبوه أبو العا
ص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه
على جبين كأنه الذهب

فلم يرض عبد الملك عن ذلك ، وقال : يا بن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ! وتقول فى مصعب :

انما مصعب شهاب من الل ه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ورده دون أن يعطيه عطاء .

ووفد عليه جرير ليمدحه. وكان خبر ذلك أن جريرا مدح الحجاج فأعجبه شعره ، بيد أنه قال له : ان الطاقة تعجز عن المكافأة ، ولكنى موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان ، فسر اليه بكتابى هذا . فسار اليه ، ثم استأذنه فى الانشاد فأذن له ، فأنشد جرير قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟!

فبادره عبد الملك عندئذ قائلا : بل فؤادك ، لا أم لك !

ثم استمر جرير :

عشية هم صحبك بالرواح !

واستمر حتى قال :

تعزت أم حـــزرة ثم قالت	رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ســاغبة بنيــها	بأنفاس من الشــبم القراح
ثقى بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح !

فلما بلغ هذا البيت ظهر الارتياح على عبد الملك . وكان متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا ، أو ليسكت . وبعد أن فرغ جرير من انشاده قال له : « أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة ؟ » . فقال جرير : اذا لم تروها - يا أمير المؤمنين - فلا أرواها الله ! فأمر له بمائة ناقة كلها سود الحدقة . وكان بين يديه صحاف من فضة ، فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، تأذن لى بواحـدة منهن . فقال : « خذها ، لانفعتك ! » فقال جرير : « كل ما أخذته منك ينفعنى ان شاء الله » .

وكان الأخطل يحضر كثيرا مجالس عبد الملك ، وكان أثيرا عنده . وكان عبد الملك يقدر موهبتــه وقدرته فى البــلاغة العربية . فأدى هذا التشجيع الى أن الأخطل قضى سنة ينظم

قصيدة ليمدح بها عبد الملك ، ثم وفد على الخليفة فأخبره بذلك ، وقال انه مع ذلك لم يبلغ ما أراد . فطلب اليه الخليفة أن ينشدها ، فأنشدها وهى قصيدته الرائية التى مطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

والتى يقول فيها :

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطر

وما الفرات اذا جاشت حوالبه
فى حافتيه وفى أوساطه العشر

يوما بأجود منه حين تسأله
ولا بأجهر منه حين يجتهر

ثم يمدح بنى أمية ، فيقول :

فى نبعة من قريش يعصبون بها
ما ان يوازى بأعلى نبتها الشجر

حشد على الحق عيافو الخنا أنف
اذا ألمت بهم مكروهة صبروا

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

فجعل عبد الملك يتطاول لها ويطرب لمعانى المدح فيها . وأعلن عن شديد اعجابه بالمعنى فى البيت الأخير —خاصة— وأخذ يردده . فلما فرغ الأخطل من انشاده قال له عبدالملك: « يا أخطل ، أتريد أن أكتب الى الآفاق أنك أشعر العرب !» قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين . فأمر له الخليفة بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم فمنحها له ، وأنعم عليه بخلع ثمينة . وخرج به مولى على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب !

وهكذا كان عبد الملك مغرما بالأدب والشعر ، راعيا للأدباء والشعراء ، وذلك لأنه هو نفسه كان أديبا وعالما كبيرا . وقد حضر هذه المجالس « الشعبى » — عالم العراق — فى أواخر عهد الخلافة ، وقال شهادته التى سبق أن اقتبسناها ، وهى قوله : « ما ذاكرت أحدا الا وجدت لى الفضل عليه ، الا عبد الملك : فانى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه ، ولا شعرا الا زادنى فيه » .

وكان يعجب عبد الملك من الشعر — بصفة خاصة — ما يدعو الى مكارم الأخلاق ، ولذا كان يستحث الشعراء على أن يضمنوا شعرهم المعانى الكريمة ، ويفضل أن يمدحه الشعراء بالأوصاف الدينية ، من التقوى والعدل ، بدل

التشبيهات القديمة . وقد رأينا الأدلة على أنه كان يكرم الشعراء ويجيزهم ويحسن صلاتهم . لكنه كان يكافىء الممتازين ، وليس كل من يفد عليه للسؤال . ولم يسرف فى ذلك لأنه — كما عبر فى مناسبة — كان يرى أن الأموال العامة حق للدولة . ولذا نسب اليه بعضهم البخل ممن لم يظفروا بنواله . لكنه فى الحقيقة لم يكن بخلا ولكن اقتصادا ، وموازنة بين الأمور ، لتصرف أموال الدولة فى الوجوه التى تستحق .

ولا شك أن عبد الملك أوجد بعمله واتجاهه هذا نهضة أدبية عظيمة . وشجع الشعراء والرواة على القول والتنافس . ودل باهتمامه بالأدب على تقديره للثقافة العربية . فبذلك أدى خدمة كبيرة للغة العربية تضاف الى خدماته السابقة لها . وبذلك حافظ على أحد المقومات الكبرى للقومية العربية ، وهى اللغة وثقافتها . وكان هذا هو الذى يتوقع من خليفة عربى ، من صميم العرب ، قرشى من خيرة قريش ، وعالم مسلم يعلم أن الدين واللغة صنوان . وما دامت صبغة القومية تزداد فى الدولة ، فهذا يؤدى الى قوتها ونهوضها وتماسكها . أى أن رعاية عبد الملك للثقافة القومية كانت لها أيضا نتائج سياسية طيبة .

بيتــــه وأولاده

وهذه آخر نقطة فى الكتاب .

عنى عبد الملك أكبر عناية بأمر تربيـــة أولاده . ونثبت هنا احـــدى وصـــاياه لمربى أولاده ، فهى تبين المنهج الذى رسمه عبد الملك لتربيتهم .

قال عبد الملك لمعلم ولده : « انى قـــد اخترتك لتأديب ولدى ، وجعلتك عينى عليهم وأمينى . فاجتهد فى تأديبهم . ونصيحتى فيما استنصحتك فيه من أمرهم : علمهم كتاب الله — عز وجل — حتى يحفظوه . وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه . وخذهم من الأخلاق بأحسنها ، ومن الآداب بأجمعها . وروّهم من الشـــعر أعفـــه ، ومن الحديث أصدقه . وجنبهم محادثة النساء ، ومجالسة الأظناء ، ومخالطة الســـــفهاء . وخوفهم بى ، وأدبهم دونى . ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وأنا أسأل الله تسديدك وتوفيقك » .

وفى وصية أخرى ، قال عبد الملك أيضا : —

« علم بنىّ القرآن . وخذهم بمكارم الأخلاق . وحثهم على صلة الأرحام . ووقرهم فى الملأ ، وأخفهم فى السر . فان

الأدب أملك بالغـلام من الحسب . وتهددهم بى . وأدبهم دونى . ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم » .

وهذا يدل على عناية عبد الملك بتربيتهم تربية دينية وأخلاقية كريمة . وأولاد عبد الملك الذين صار لهم تاريخ هم : الوليد بن عبد الملك ، وأمه بنت العباس بن جزء من عبس ، وأخوه — وهو شقيقه — سليمان بن عبد الملك . ويزيد بن عبد الملك ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وهشام بن عبد الملك ، وأمه بنت هشام بن اسماعيل المخزومى . وجميع هؤلاء صاروا خلفاء أو ملوكا ، بدورهم ، بعد أبيهم . ولذا فان عبد الملك يقال له : « أبو الملوك » . ثم مسلمة بن عبد الملك وعبد الله وسعيد ، وهم لأمهات أولاد . ويجدر ذكر فاطمة بنت عبد الملك ، وهى التى صارت زوجة لعمر بن عبد العزيز . وكانت له نعم القرين والمؤازر ، موافقة له على مذهبه المثالى ، وأمها أم المغيرة بنت المغيرة المخزومى .

ولاية العهد

كان العهد بعد عبد الملك لأخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر ، حسب ما قرره وعقده من قبل أبوهما مروان:

ابن الحكم . وبقى الأمر كذلك حتى أواخر عهد عبد الملك ، فبدأ يفكر فى مسألة الخلافة بعده ، وهو يود تحويل العهد من أخيه الى ابنه الوليد بن عبد الملك ، لكنه كان يخشى أن هذا سيغضب أخاه . واستشار عبد الملك من حوله فبعضهم أشار بالتنفيذ ، وبعضهم نصح بالتأجيل . ولكنه بعدئذ ، اتخذ قراره وعزم على تحويل ولاية العهد . وبينما هم فى ذلك ، واذا بالخبر يرد من مصر بوفاة عبد العزيز بن مروان، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ . وهنا يذكر الرواة أن الخطاب وصل أولا الى قبيصة بن ذؤيب صاحب الخاتم والبريد ، فقرأه واطلع على مافيه قبل عبد الملك — وكان عبد الملك قد أذن له بذلك — فدخل قبيصة على عبد الملك ليلا بعد وقت نومه ، وأبلغه الخبر . فاسترجع عبد الملك ووجم ساعة ، حزنا لموت أخيه . لكنه شعر فيما يتعلق بولاية العهد أن المسألة حلت من نفسها . وقال لمن كان يحدثهم فى الأمر : كفانا الله ما كنا نريد . وجمع مستشاريه بعدئذ ، وقال لهم : ان عبد العزيز قد مضى لسبيله ، ولا بد للناس من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدى . فأجمعوا على العهد للوليد بن عبد الملك ، ثم من بعده لأخيه سليمان ابن عبد الملك .

فعقد عبد الملك العهد لهما ، على هذا الترتيب . وكتب ببيعته لهما الى جميع البلدان . فبايع الناس . وبذلك تمت البيعة لهما فى سنة ٨٥ هـ . ويذكر أن سـعيد بن المسيب — أحد فقهاء أهل المدينة — لما طلب اليه البيعة أبى ، لأن مذهبه — فيما يبدو — أن البيعة لا تصح الا بعد وفاة الخليفة ، حيث قال : لا أبايع وعبد الملك حى . فضربه والى المدينة — هشام بن اسماعيل المخزومى — وطاف به . فلما بلغ الخبر عبد الملك لم يرض عن ذلك . وكتب الى هشام يلومه ويقول : سعيد والله كان أحوج أن تصـل رحمه — (لأنه مخزومى مثله من بنى قومه) — من أن تضربه . وانا لنعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف . وبايع أهل المدينة وجميع الناس فى الآفاق . وأصبح العهد مقررا للوليد ، وانتهت هذه المسألة .

وفاة الخليفة

ووصـل عبد الملك الى عام ٨٦ هـ ، والأمور مستتبة والدولة مستقرة ، وكلها وحدة واحدة ، ولم يعد هنـاك ثورات ولا خلاف . وكل شىء فيها يسير بانتظـام . وفى رمضان من ذلك العام ، كان قد مضى عليه فى الحكم : أى

على كرسي الخلافة ، واحد وعشرون عاما . فمرض مرضه الأخير . وكان قد بلغ من العمر اثنين وستين عاما — على ما حققناه .

ومما يروى أنه كان يقول : أخاف الموت فى شهر رمضان : فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لى الناس . فكان يتوقع الموت فى ذلك الشهر . لكن القدر الذى يهوى أحيانا اخلاف الظنون كان قدر أن يكون موعد وفاته بعد هذا الشهر . فاشتد عليه المرض . ثم كانت وفاة عبد الملك بن مروان — خليفة المسلمين — فى يوم الخميس للنصف من شوال ، عام ٨٦ هـ .

وكان قد أوصى بنيه ، فى مرض موته ، بهذه الوصية :

« أوصيكم بتقوى الله . فانها أزين حلية ، وأحصن كهف . ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير . وانظروا مسلمة فأصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذى عنه تفترون ، ومجنكم الذى عنه ترمون . وأكرموا الحجاج ، فانه الذى وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد وأذل الأعداء . وكونوا بنى أم برة ، لا تدب بينكم العقارب . وكونوا فى الحرب أحرارا . وكونوا للمعروف منارا . فان المعروف يبقى أجره وذكره . وضعوا معروفكم عند ذوى

الأحساب ، فانهم أصون له وأشكر لما يؤتى اليهم منـــه . وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب ، فان استقالوا فأقيلوا ، وان عادوا فانتقموا . »

وهكذا كان عبد الملك يبدأ وصاياه دائما لأولاده بأن يوصيهم بتقوى الله . فقد كان عبد الملك رجل دين فى الوقت الذى يدير فيه أمور الدنيا . وهذا يدل على مكان عبد الملك وأكثر خلفاء بنى أمية من الدين . وتنسب لعبد الملك أقوال على أنه قالها فى مرض موته تفيد الندم أو نحو ذلك ، والظاهر أنها من وضع أعدائه ، فهى لا تتفق مع سيرته وتدينه وخلقه. وقد أشرنا من قبل الى أن الشيعة وضعوا أحاديث وروايات كثيرة مكذوبة عن بنى أمية .

وكانت وفـــاة عبد الملك بدمشـــق . فدفن خارج باب الجابية . وصلى عليه ابنه الوليد . وتمثل أحد أولاده بهذا البيت :

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنــه بنيـــان قوم تهـــدما

ورثاه كثير من الشعراء ، ومنهم كثير عزة الذى قال :

سقاك ابن مروان من الغيث مسبل
أجش شمالى يجود ويهطـــل

فما فى حيـــاة بعد موتك رغبة

لحر ، وان كنـــا الوليـــد نؤمل

وانصرف الوليد على الفور الى المسـجد — دون أن يدخل منزله — فصعد المنبر ، واجتمع اليه الناس فخطبهم ، فقال : انا لله وانا اليه راجعون ، والله المســـتعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين . والحمـــد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة . قوموا فبايعوا . فبايعه الناس . وكان بذلك أول من عزى نفسه وهنأها . ثم ألقى هذه الخطبة ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، قال : —

« أيها الناس : انه لا مقدم لما أخر الله ، ولا مؤخر لمـــا قدم الله . وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه ، الموت . وقد صار الى منازل الأبرار ولىّ هذه الأمة بالذى يحق عليه لله : من الشدة على المريب ، واللين لأهل الحق والفضـــل . واقامة ما أقام الله من منـــار الاسلام وأعلامه : من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزا ولا مفرطا . أيها الناس : عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة . فان الشيطان مع الفرد . أيها الناس : من أبدى لنا ذات نفســه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .

وهكذا انتقلت الخلافة فى هدوء ، وبدون خلاف ، الى الوليد بن عبد الملك . وكان هذا نتيجة جهود عبد الملك ، اذ ترك له أى لابنه دولة مستقرة موحـــدة ثابتـة الأركان والدعائم ، قوية : حربيا وسياسيا واقتصاديا وأدبيا . وظهرت آثار الاستقرار والتوحد والقوة فى عهد الوليد ، فكان عهده الذروة التى وصلت اليها الدولة العربية الاســـلامية فى مجدها . كان عهـد الفتوحات العظيمة والرغد والرخاء . ولا يزال الجامع الأموى الذى بناه الخليفة الوليد بدمشق باقيا الى اليوم ، يرمز الى ذلك العهد : عهد المجد والقوة ، والوحدة الشاملة للدولة العربية الاسلامية .

أولاده الخلفاء بعده

لم يبق الا أن نذكر أن آثر عبد الملك ظل باقيا فى أولاده الذين خلفوه ، فقد أحسن تربيتهم وتنشئتهم ، ورسم لهم النهج وكان لهم أســوة ، وقــد سجــل التاريخ أنهم كانوا أكفاء وخلفاء قادرين . وهم : الوليد ، وسليمان ، وهشام — اذا خلينا جانبا يزيد ومدته القصيرة ، وهى أربع سنوات. فهؤلاء الخلفاء الذين ذكرناهم حملوا الأمانة بعـد أبيهم ، وقادوا الأمة ورعوا الدولة خير قيادة ورعاية . فالوليـد

ابن عبد الملك قال عنه الذهبى : انه أقام الجهاد فى أيامه ، وفيها فتحت الفتوحات العظيمة ، كأيام عمر بن الخطاب . وفضلا عن ذلك ، فان الوليد — كما أثبت المؤرخون — كان يتعهـــد الأيتام فيرتب لهم من يختنهم ، ومن يؤدبهم (يعلمهم) ، ويرتب للزمنى (المرضى وكبار السن والمقعدين) من يخدمهم . وللمكفوفين من يقودهم . ورزق العلمـــاء والضعفاء والفقراء . وحرم عليهم سؤال الناس . وفرض لهم ما يكفيهم . أى أنه جعل الدولة كافلة أن تؤدى هـــذه الخدمات العـــامة للناس . وهذا هو التكافل الاجتماعى ، أو الاشتراكى — كما نعبر عنه اليوم — سبقت به الدولة الاسلامية النظم الاشتراكية التقدمية ، التى لم تهتد اليها أوروبا الا منذ عهد قريب ، ولكن الدولة الاسلامية استقتها من روح الاسلام ومبادئه ، وطبقتها .

وأما سليمان : فكان من خيار الخلفاء ، مؤثرا للعدل ، محبا للجهاد ، جوادا ، فصيحا . وفى عهـــده فتحت أقاليم طبرستان وجرجان ، التى خرجت فيما بعد كبار العلمـــاء . واستمر جهاده لغزو الروم ، حتى انه جهز حملة قوية لفتح القسطنطينية نفسها عاصمة الدولة الرومية البيزنطية ، وذلك تحت قيادة أخيه مســلمة بن عبد الملك . ولولا أن أدركه

الأجل لأتم فتحها . وقال عنه ابن سيرين من العلماء : « يرحم الله سليمان . افتتح خلافته باحيائه للصلاة لأول مواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العــزيز . » وذكروا أن من محاسنه أن عمر بن عبد العزيز كان له كالوزير ، فكان يمتثل أوامره فى الخير .

وكان لسليمان فضل أنه عهد بالخلافة بعده لابن عمه : عمر بن عبد العزيز . فتولى عمــر فى نهــاية القــرن الأول الهجرى . وهو ابن أخى عبد الملك بن مروان وختنه : أى زوج ابنته فاطمة ، على ما قدمنا ، وحفيد مروان . وقد أدرك عمر عهود عبد الملك والوليد وسليمان ، واشترك معهم فى أعمال الدولة وعمل تحت قيادتهم ، فعمر ماهو الا فرع من هذه الدوحة . والثمرة الكريمة لا تنبت الا من شجرة كريمة . وان كان هو سما بمثاليته وورعه و «اشتراكيته الاسلامية»، الى الحد الأعلى .

وأما هشام ، فكان شبيه أبيه عبد الملك : فى قوة العقل والحزم . وهو الذى اتخذه أبو جعفر المنصور فيما بعد مثله الكامل ، الذى يقتدى به فى ادارته للدولة . فكان يتحدث عنه بكل اعجاب ، ويقول عنه « انه محشو عقلا » ، وأنه « رجــل القوم » وكانت دواوينه أضبط دواوين . وقــد

حكم البلاد عشرين عاما ، كانت الدولة فى أثنائهـا لا تزال تمثل امبراطورية قوية واسعة الأطراف ، تمتد حدودها من جبال البرانس الى حدود الصين .

فهؤلاء هم الخلفاء : أولاد عبد الملك . وقد استمرت الدولة الأموية — بعد انتهاء عهدها فى المشرق — فى الدولة الأموية الجـديدة ، التى أقامها بالأندلس أحد أحفاد هشام وعبد الملك — وهو عبد الرحمن الداخل الملقب بـ « صقر قريش » — وهو عبد الرحمن بن معـاوية بن هشـام ابن عبد الملك . فالدولة الاسلامية والحضارة الاسلامية التى ظهرت فى الأندلس ، وبهرت أهل أوروبا ، وكانت كالشمس المشرقة وسط ظلام أوروبا الدامس : من الجهل والتأخر ، وهى التى مدت بنورها أوروبا منذ ذلك الوقت الى النهضة الحديثة — هذه الدولة كانت من أثر عبد الرحمن الداخل وبنى أمية . والخلفاء العظام الذين تبوأوا عرش الدولة بالأندلس : مثل عبد الرحمن الناصر — الذى كان أعظم عاهل فى أوروبا فى عصره — كانوا من أحفاد عبد الملك ومروان . وهكذا ظل الأثر باقيا ، وكانت الدولة الأموية — وهى الدولة التى استعرضنا تاريخها فى هذا الكتاب — الدولة التى أقامها مروان ، وثبت دعائمها وحفظها ، وأعاد اليها

قوتها وحقق وحدتها عبد الملك -- لها هـــذا الأثر العظيم الخالد فى التاريخ ، اذ خدمت الدين والعلم والحضـــارة والتقدم فى المشرق والمغرب ، وهى الدولة العربية الاسلامية، التى كانت تدفعها روح العروبة وتهتدى بنور الاسلام .

(وبعـــد) فهذه سيرة الخليفة العربى المسلم عبد الملك ابن مروان ، أحد الأعلام فى تاريخنا العربى الاسلامى : سيرة حياته وأعماله وفتوحاته واصـــلاحاته وآثاره فى التاريخ ، وسيرة الأمة العربية الاسلامية فى ذلك العهد . رسمنا عنها صورة تاريخية صادقة ، لا هدف لنا منها الا اثبات وتجلية الحقيقة ، لعل ما فيها من عظات وعبر ينفع الجيل الحاضر ، المتطلع للنهضة والاصـــلاح : جيـــل العروبة والاسلام .

والله سبحانه الموفق . وله الحمد أولا وآخرا

فهرس الكتاب